نتمنى ان تنال اعجابكم

www.vuseen.com

الفصل 1

في المساء، عندما ينام الجميع، الأغنياء في بطانياتهم الدافئة، الفقراء على درجات المحلات التجارية أو تحت سقائف القصور، أنا لم أكن أنام، كنت أفكر في وحدتي و أشعر بكامل وزنها. إن وحدتي قديمة جدا.
في نهاية زقاق لا تبلغه الشمس مطلقا، كنت أرى طفلا صغيرا ذا ست سنوات، ينصب فخا ليمسك بدوري لكن هذا الدوري كان لا يأتي أبدا. كان يرغب بشدة في الإمساك بهذا الدوري الصغير، ليس لأكله و لا لتعذيبه، كان يريد فقط أن يجعل منه رفيقا له، بقدمين حافيتين و على أرض مبللة، كان يجري حتى نهاية الزقاق ليرى مرور الحمير ثم يعود للجلوس على درجة المنزل و انتظار قدوم الدوري الذي لا يأتي. في المساء، يعود بقلب منكسر و عينين حمراوين، مأرجحا في طرف ذراعه الصغيرة فخا مصنوعا من سلك نحاسي.
كنا نسكن **دار الشوافة**، بيت العرافة. بالفعل، كانت تعيش عرافة ذات شهرة كبيرة في الطابق الأرضي. كانت نساء من كل الأنواع يأتين لاستشارتها من أبعد الأحياء. لقد كانت عرافة و ساحرة نوعا ما. تابعة لأخوية **گناوة** (ناس غينيا)، مرة كل شهر، كانت تقيم جلسة موسيقى ورقصات زنجية. كانت سحب البنزوين تملأ المنزل و كانت المجلجلات و **الگمبريات** تمنعنا من النوم طوال الليل.
لم أكن أفهم شيئا من الطقوس المعقدة التي كانت تحدث في الطابق الأرضي. من نافذتنا في الطابق الثاني، كنت أميز بين دخان البخور الأطياف و هي تلوح. كانت تجلجل بآلاتها الغريبة. كنت أسمع **زغاريدا**. كانت الألبسة تكون تارة زرقاء سماوية و تارة حمراء قانية، و في بعض الأحيان صفراء لامعة. كانت الأيام التي تلي تلك الحفلات كئيبة، أكثر حزنا و أكثر مللا من الأيام العادية. كنت أستيقظ باكرا للذهاب إلى **المسيد**، كُتاب قرآني يقع على بعد خطوات من المنزل. كانت أصوات الليل لا تزال تدور في رأسي، كانت رائحة البنزوين و اللبان تسكرني، كان **الجنون** يحومون حولي، الشياطين السوداء المستدعاة من طرف الساحرة و أصدقائها بحماسة تبلغ حد الهذيان. كنت أحس **بالجنون** تلمسني

Scanned by CamScanner

بأصابعها الحارقة؛ كنت أسمع ضحكاتها كما في الليالي العاصفة. واضعا سبابتاي في أذناي، كنت أتلو الآيات المنقوشة على لوحي بنبرة من اليأس.
كانت غرفتا الطابق الأرضي مسكونتين من طرف **الشوافة** المستأجرة الرئيسية. في الطابق الأول، كان يسكن إدريس العاود، زوجته رحمة و ابنتهما الأكبر مني بسنة واحدة. كان اسمها زينب و لم أكن أحبها. كانت هذه الأسرة بأكملها تقيم في غرفة واحدة، كانت رحمة تطبخ في البسطة. كنا نتشارك الطابق الثاني مع فاطمة بزيوية. كانت نافذتانا متقابلتين و تطلان على الفناء، فناء قديم كانت بلاطاته قد فقدت مينا ألوانها منذ وقت طويل كما كان يبدو مبلطا بالآجر. لقد كان يغسل و يفرك كل يوم بالكثير من الماء و بمكنسة **الدوم**. كان **الجنون** يحبون النظافة. كانت زبونات **الشوافة** تحظين بانطباع جيد منذ البداية. انطباع الصفاء و السلام الذي كان يحث على البوح بالعديد من العناصر التي كانت تساعد العرافة على كشف المستقبل بثقة أكبر.
لم تكن هناك زبونات كل يوم. رغم غرابة الأمر، لقد كانت هناك فترة كساد. لم يكن من الممكن التنبؤ بوقتها. بشكل مفاجئ، كانت النساء تتوقفن عن اللجوء لجرع الحب، تصبحن أقل اهتماما بالمستقبل، لا تشتكين من آلام الكلى، الكتف أو البطن، لم يكن أي عفريت يضايقهن.
كانت **الشوافة** تختار هذه الشهور القليلة لتهتم بصحتها الخاصة، كانت تكشف الشرور التي لم يستطع علمها التقليل منها. كانت الشياطين تسبب لها الهلوسة، تصبح متطلبة بخصوص لون **القفاطين**، ساعة ارتدائها، البخور التي يجب حرقها في هذه المناسبة أو تلك. في ظليل حجرتها الكبيرة و المغلفة بقماش الكريتون، كانت **الشوافة** تنتحب، تشتكي، تتعوذ و تختفي وسط سحب البنزوين و اللبان.

ربما كنت في السادسة، كانت ذاكرتي لا تزال شمعا طريا و كانت أصغر الأحداث تنقش فيها على شكل صور لا تمحى. يبقى لدي هذا الألبوم لأسلي به وحدتي، لأثبت لنفسي بأنني لم أمت بعد.
في عمر ست سنوات، كنت وحيدا، ربما تعيسا، لكن لم تكن لدي أية نقطة رجوع تسمح لي بالاتصال بوجودي: الوحدة أو التعاسة.

Scanned by CamScanner

لم أكن سعيدا و لا تعيسا. كنت طفلا وحيدا. هذا كنت أعرفه. حلقة مفقودة منذ البداية. كونت صداقات محتشمة مع أطفال الكتاب القرآني، لكنها كانت قصيرة الأمد. نسكن عوالم مختلفة. كان لدي ميول للحلم. كان العالم يبدو لي مكانا رائعا. مهرجانا كبيرا كانت الساحرات تمارسن فيه تجارة مستمرة مع قوى خفية. كنت أرغب في أن يقبلني اللامرئي. لأشارك في أسراره. كان رفاقي الصغار في الكتاب يكتفون بالمرئي. بالأخص عندما كان هذا المرئي يتجلى في سكاكر زرقاء سماوية أو وردية بلون غروب الشمس. كانوا يحبون القضم، المص، العض بكامل أسنانهم. كانوا يحبون كذلك ألعاب القتال. مهاجمة الحلق كما كان يفعل القتلة، الصراخ لتقليد أصوات آبائهم، التشاتم لتقليد الجيران، القيادة لتقليد معلم الكتاب.
أنا لم أكن أريد تقليد أي شيء، كنت أريد أن أعرف.
حكى لي عبد الله البقال عن إنجازات ملك مدهش كان يعيش في بلد من النور، من الأزهار و من العطور، أبعد من بحور الظلمات، أبعد من سور الصين العظيم، و كنت أريد أن أعقد صفقة مع القوى الخفية التي كانت تطيع الساحرات لكي تأخذني إلى أبعد من بحور الظلمات و أبعد من سور الصين العظيم. للعيش في بلد النور ذاك، بلد العطور و الأزهار.
كان أبي يحدثني عن الجنة، لكن عن البعث فيها، كان لابد من الموت أولا، كان أبي يقول بأن الانتحار إثم كبير، كان إثما يمنع من الدخول إلى تلك المملكة. إذن، لم يكن لدي سوى حل واحد: أن أنتظر! أنتظر حتى أصير رجلا، أنتظر حتى أموت و أبعث بجانب عين **سلسبيل**. أنتظر! هذا ما يعنيه الوجود. لم أكن أشعر بأي خوف تجاه هذه الفكرة. كنت أستيقظ صباحا. أفعل ما كان يطلب مني. في المساء، كانت الشمس تختفي و أعود للنوم لأبدأ الغد من جديد. كنت أعلم بأن كل يوم ينضاف إلى الآخر، أعلم بأن الأيام تكون شهورا، أن الشهور تصبح فصولا، و الفصول تكون السنة. لدي ست سنوات، في السنة القادمة سيكون لدي سبعة ثم ثمانية، تسعة و عشرة. في سن العاشرة، يصبح المرء رجلا تقريبا. في سن العاشرة، نطوف بمفردنا الحي كله، نتكلم مع التجار، نعرف الكتابة، على الأقل اسمنا، نستطيع استشارة عرافة حول المستقبل، تعلم كلمات سحرية، تركيب تعاويذ.

Scanned by CamScanner

في انتظار ذلك، كنت وحيدا وسط حشد من رؤوس صلعاء، أنوف مبللة، في دوار من تراتيل الآيات الكريمة.
كان الكتاب يقع في مدخل **درب النوالة**. **الفقيه**، الشخص الطويل و النحيف ذو اللحية السوداء، الذي كانت عيناه تقذفان بنيران غضب باستمرار. كان يسكن شارع **جياف**. كنت أعرف هذا الشارع. كنت أعلم أنه يقع في آخر زنقة سوداء و مبللة، كان هناك باب منخفض يفتح طوال اليوم ليخرج منه صخب متواصل من أصوات النساء و بكاء الأطفال.
في أول مرة سمعت فيها هذا الصوت، أجهشت بالبكاء لأنني سمعت أصوات الجحيم كما وصفها لي أبي ذات مساء.
هدأتني أمي:
- سأصطحبك لتأخذ حماما، أعدك ببرتقالة و بيضة مسلوقة و ستستطيع النهيق كالحمار!
أجبت و أنا لا أزال أفوق:
- لا أريد الذهاب للجحيم.
رفعت عينيها للسماء و صمتت، مشوشة من هذا القدر من الحماقة.
أظن بأنه لم يسبق لي أن ذهبت لحمام عمومي منذ طفولتي.
كان هناك دائما تخوف غامض و إحساس بعدم الارتياح يمنعانني من دخوله. بعد التفكير جيدا، لا أحب الحمامات العمومية. كان الاختلاط، ذلك المجون و التهاون الذيْن يعتقد الناس بأنهم مضطرون لتصنعها تجعلني أنفر منها. حتى و لو كنت طفلا، كنت أشم في هذا الحشد من الأجسام المبللة، في نصف اليوم المقلق هذا، رائحة الإثم، إحساس غامض جدا، خصوصا في السن الذي كنت فيه لا أزال أستطيع مرافقة أمي إلى الحمام العمومي، الذي كان يثير في نوعا من الاضطراب.
ما إن وصلنا، تسلقنا سدة عريضة مفروشة بحصير. بعد دفع خمس و سبعين سنتيما للصرافة بدأنا تعرينا وسط صخب من الأصوات الحادة، حركة مرور مستمرة لنساء نصف لابسات، مخرجات من صرر ثيابهن الضخمة **قفاطينا** و **منصوريات**، قمصانا و سراويلا، **حوائك** بشرابات ذوات بياض براق. جميع هاته النساء كن يتكلمن بصوت عال، يلوحن بشغف، يطلقن صرخات يصعب شرحها و لا مبرر لها.

Scanned by CamScanner

خلعت ملابسي وبقيت جالسا ببلاهة، يداي على بطني، أمام أمي التي انخرطت في حديث مع صديقة تعرفها. كان هناك أطفال آخرون، و لكن كانوا يبدون مرتاحين، كانوا يجرون بين الأفخاد المبللة و النهود المتدلية، جبال الصرر، فخورين بإظهار بطونهم المنتفخة و مؤخراتهم الصغيرة.
كنت أحس بالوحدة أكثر من أي وقت مضى. كنت أقتنع شيئا فشيئا بأن هذا هو الجحيم. في القاعات الحارة، أهلكني أخيرا جو البخار، شخصيات الكوابيس التي كانت تتحرك فيه و درجة الحرارة، جلست في إحدى الزوايا، مرتجفا من الحمى و الخوف. كنت أتساءل ما الذي كانت تفعله تلك النساء اللواتي كن يتجولن في كل مكان، يجرين في كل الأنحاء، جارات دلاء كبيرة من الماء الفوار. الذي كان يرشني عند مرورهن. ألم يأتين للاستحمام؟ لقد كان هناك بالفعل واحدة أو اثنتان ممن يمشطن شعرهن، جالسات بسيقان ممدودة، محتجات بصوت عال، لكن لم يكن يبدو على الأخريات حتى بأنهن قد انتبهن لوجودهن و كن يتابعن رحلاتهن الأبدية بدلائهن الخشبية التي لا تنتهي. كانت أمي، التي ابتلعتها الدوامة، تظهر من حين لآخر بين كتلة من السيقان و الأذرع، ترمي لي بتوصية أو شتيمة لم أكن أستطيع فهمها ثم تختفي من جديد. كان أمامي، في دلو فارغ، مشط من القرن، غراف نحاسي مصقول جيدا، برتقالات و بيض مسلوق. أخذت برتقالة بخجل، قشرتها، مصصتها لمدة طويلة، بنظرة غير ثابتة، كان شعوري بقلة حياء جسمي قد قل وسط هذا الظليل، كنت أراقبه و هو يتغطى بقطرات كبيرة من العرق و انتهى بي الأمر بنسيان النساء اللواتي كن يتجولن، دلائهن الخشبية و رحلاتهن الغير مفهومة حول الحجرة. انقضت علي أمي، وضعتني داخل دلو ماء، وسكبت على رأسي صلصالا طيب الرائحة و رغم صرخاتي و دموعي أمطرتني بسيل من الشتائم و النار. أخرجتني من الدلو، رمتني في ركن مثل حزمة، اختفت من جديد داخل الدوامة. دام يأسي قليلا، أدخلت يدي في دلو العدة و أخذت بيضة مسلوقة، كنت أحب هذه الوجبة كثيرا. لم أكن قد انتهيت من قضم المح عندما عادت أمي من جديد، سكبت علي ماء فوارا و باردا بشكل متعاقب، غطتني بمنشفة و أخذتني نصف ميت إلى الهواء البارد على الصرر. سمعتها تقول للصرافة:
- لالة فطوم، سأترك لك ابني، لم أحظى بعد بأي قطرة ماء لأستحم.

Scanned by CamScanner

ولي:
- إرتدي ملابسك، يا رأس البصلة! هذه برتقالة لتنشغل بها.
وجدت نفسي وحيدا، يداي متقاطعتان على بطني الملتهب، أكثر بلاهة من أي وقت مضى، وسط كل هؤلاء الغريبات و صررهن الباذخة. ارتديت ملابسي. أتت أمي لبرهة لكي تلف رأسي بإحكام بمنشفة عقدتها تحت الذقن، زودتني بكل أنواع التوصيات ثم تم ابتلاعها إلى داخل القاعات الحارة من طرف ذلك الباب الأسود الذي كان أمامي و الذي كانت تخرج منه جميع أنواع الإشاعات.
انتظرت على السدة حتى المساء. أتت أمي في الأخير، كان يبدو عليها التعب و تشكو من صداع عنيف.
من حسن حظي، كانت حصص الحمام هذه نادرة جدا. لم تكن أمي تريد أن تزعج نفسها بالطفل الأخرق و الأرعن الذي كنت عليه. خلال غيابها، كنت أستسلم لنزواتي. كنت أجري في **الدرب** حافي القدمين، مقلدا خطوات الأحصنة الإيقاعية، أصهل بفخر و أقوم برفسات.
أحيانا، أفرغ ببساطة علبة العجائب خاصتي أرضا و أحصي كنوزي. كان زر بسيط من الخزف الصيني يجعل حواسي ترقص. عندما نظرت إليه مطولا، كنت ألمس المادة بأصابعي باحترام. لكن كان في هذا الشيء عنصر لا يمكن إدراكه لا بالعينين ولا بالأصابع، جمال غامض لا يمكن وصفه. كان يفتنني، كنت أحس بكامل عجزي و أنا أتمتع به بلا تحفظ. كنت أبكي تقريبا من الإحساس حولي بذلك الشيء الغريب الخفي، الغير ملموس، الذي لم أكن أستطيع تذوقه بلساني، و لكن الذي كان له مذاق و قدرة الإسكار. و كان ذلك يتجسد في زر من الخزف الصيني و يعطيه بهذا روح و فضيلة تعويذة.
في علبة العجائب، كان هناك مجموعة من الأشياء متعددة العناصر التي، بالنسبة لي وحدي، كان لها معنى: كرات زجاجية، أزرار مزينة، حلقات نحاسية، قفل صغير بدون مفتاح، مسامير ذات رأس مذهب، محبرات فارغة، أزرار مزينة، أزرار بدون زينة. كانت هناك من هي مصنوعة من مادة شفافة، من معدن أو من صدف. كل واحد من هذه الأشياء كان يحدثني بلغته. كان أولئك هم أصدقائي الوحيدون. بالطبع، كانت لدي علاقات في عالم الأسطورة مع أمراء شجعان جدا و عمالقة بقلب حنون،

Scanned by CamScanner

لكن كانوا يسكنون في الزوايا المخفية من مخيلتي. بالنسبة لكراتي الزجاجية، أزراري و مساميري، كانوا هناك، في كل لحظة، في علبتهم المستطيلة، جاهزين لإنقاذي في ساعات الحزن.

في اليوم التالي للحمام، لم يكن يفوت أمي أن تحكي الحصة لجميع من في المنزل، بتعاليق مفصلة تكثر فيها المواقف و النوادر التي تستحق الإعجاب. كانت تقلد حركات **شريفة** تلك المعروفة في الحي و تصرفات تلك الجارة التي لم تكن تعجبها، كانت تصف ثناء الصرافة أو غضب المدلكات، أولئك السمسارات، أمهات المصائب، اللواتي كن يخدعن الزبونات دون أن يحضرن لهن قطرة ماء واحدة. بطبيعة الحال، كان الحمام العمومي مكانا للغيبة و النميمة. كنا نتعرف على نساء لا يسكن في الحي، بقدر ما كنا نذهب كثيرا لنستحم كنا نذهب للبقاء على اطلاع بما يجري، بما يقال، كان يحدث أحيانا بأن تغني امرأة مقطعا موسيقيا و هكذا ينتشر هذا المقطع في حينا. لقد شهدت أمي مرتين أو ثلاثا معركات نساء حقيقية. كانت مثل تلك المواقف تعطي مجالا لاحتفالات كوميدية.
طوال أسبوع،كانت أمي تظل تمثل أمام نساء المنزل، صديقات الطريق و الجارات، الشجار بمراحله المتعددة. لقد كنا نحظى بتمهيد متبوع بتقديم للشخصيات، كل واحدة بقوامها الخاص، تشوهات جسمها، خصائص صوتها، حركاتها و نظرتها. كنا نرى ولادة الشجار، نشهد تطوره، بلوغه مرحلة الذروة و انتهاءه بالأحضان أو الدموع.
كانت أمي تلقى نجاحا كبيرا لدى الجارات، لم يكن يعجبني كثيرا هذا النوع من العروض. كان إفراط أمي في البهجة بالنسبة لي مرتبطا بعواقب مؤسفة. في الصباح، مفعمة بالنشاط، لم يكن يفوتها، في المساء، أن تجد سببا للخصام أو البكاء.
كان أبي يعود دائما متأخرا، كان نادرا ما يجدنا في مزاج جيد. كان في معظم الأحيان يتحمل قصة حدث كانت أمي تستمتع بطلائه بأدكن الألوان. في بعض الأحيان، كان حدث تافه يتحول إلى كارثة.
هذا ما حدث عندما خطرت لرحمة فكرة الغسيل المشؤومة في يوم الإثنين. لقد كان من المتفق عليه أن هذا اليوم مخصص لأمي وحدها. في الصباح الباكر، كانت تحتل الفناء، تملؤه بمعالف خشبية، بأسقية كانت تستعملها

Scanned by CamScanner

كطشوت، بدلاء للشطف و بحزم من الغسيل المتسخ. بالكاد تلبس **سروال وقفطانا** قديما و ممزقا، كانت تنشغل حول نار مرتجلة، تحرك محتوى السقاء بقصبة طويلة، تثور على الخشب الذي كان يعطي دخانا أكثر من الحرارة، تتهم بانعي الصابون الأسود بغشها و تلقي عليهم كل أنواع اللعنات.

لم يكن الفناء يكفي لنشاطها. كانت تصعد حتى السطح، تمد حبالها، تثبتها بالاستعانة بقصب التوت، تنزل ثانية لتمزج سحبا من الرغوة. في ذلك اليوم، كانت أمي ترسلني إلى الكتاب بقميص عادي تحت **جلبابي** كلباس. كان الغداء بسيطا. كان يجب علي أن أكتفي بربع من الخبز مدهون بزبدة زنخة، مرفوق بثلاثة زيتونات. حتى غرفتنا كانت تفقد مظهرها المعتاد. ترقد الأفرشة هناك بدون أغطية، لم يعد للوسائد أغلفة و كانت النافذة تبدو عارية بدون ستارتها المزينة بزهيرات صغيرة حمراء.

كان المساء مخصصا لطي الملابس. كانت أمي تأخذ قميصا منكمشا جدا و تفوح منه رائحة الشمس، تبسطه على ركبتيها، تنظر إليه بإمعان، تطويه، الأكمام في الداخل، بإطباق، بضغط تقريبا. أحيانا، كانت تقوم بالغزْل. لم تكن تحب الخياطة كثيرا و حتى أنا كنت أفضل مشاهدتها تجر منادفها أو تدير مغزلها. الإبرة، آلة حضرية بشكل خاص، كانت تمثل في عيني رمزا للمهارة. لقد كان تقليدا في عائلتنا أن المهنة النسائية النبيلة بامتياز كانت تتجلى في غزل الصوف. كان استعمال الإبرة يعادل الإلحاد تقريبا. كنا **فاسيين** عن طريق حادث، لكن كنا نبقى أوفياء لأصولنا الجبلية للأسياد الفلاحين.

لم يكن يفوت أمي أبدا أن تذكر أصولها عند الشجار مع الجارات. لقد كانت تتجرأ حتى على أن تؤكد أمام رحمة أننا من أحفاد الرسول الأصليين.

- كانت تقول: توجد أوراق لإثبات ذلك، أوراق محفوظة بعناية من طرف **إمام** مسجد مدينتنا الصغيرة. من تكونين أنتي، زوجة صانع محاريث، بدون حسب، لتجرئي على نشر غسيلك، المليء بالقمل، بجانب غسيلي الحديث التنظيف؟ أعرف من أنت، متسولة من المتسولات، خادمة من الخادمات، بائسة، مجرد متغوطة و مقملة، لاحسة أطباق لا تأكل حتى الشبع أبدا. و زوجك! حدثيني عن هذا الكائن الممسوخ، ذو اللحية التي نخرها العث، الذي تفوح منه رائحة الزريبة و ينهق كالحمار! ماذا تقولين؟

Scanned by CamScanner

سأخبر زوجي؟ هل أنا أخشى زوجك؟ فلياتي! سأريه ما تستطيع امرأة نبيلة الأصول فعله. أما بالنسبة لك، كفي عن الصراخ و اجمعي حبالك. ستشهد جميع الجارات لصالحي. لقد استفزيتني. لست فتاة صغيرة لأتعرض للإهانة من طرف امرأة مثلك.
من نافذتنا في الطابق الثاني، كنت أتابع المشهد و أنا شاحب من الفزع و الخوف، بينما كانت ذاكرتي الطفولية تسجل الجمل العنيفة.
في المساء، و النعاس يثقلني، سمعت أبي يصعد الدرج. دخل كما هي عادته، اتجه نحو فراشه الموضوع مباشرة على الأرض. حضرت أمي العشاء، وضعت الطاولة المستديرة، طبق اليخنة و الخبز.
كنا نحس بأنها تحرد.
بدأ أبي بالأكل دون طرح أسئلة. كانت أمي لا تزال تحرد. ثم رفعت صوتها بشكل مفاجئ و قالت:
- ألا يزعجك هذا، عندما يتم اغتيابنا، شتمنا، شتم أصولنا الشريفة، أجدادنا الذين كانوا يجعلون القبائل ترتجف! ألا يزعجك أن يحاول أناس من طبقة منحَطة تلطيخ، بكلام غير لائق، عائلتنا التي تشمل بين أمواتها رجالا شجعنا، زعماء، قديسين و علماء!
كان أبي يتابع الأكل دون أن ينطق بكلمة واحدة.
أعادت أمي:
- أجل، كل هذا لا يزعجك. أن تتعرض زوجتك لكل الشتائم، لم تتأثر شهيتك و تأكل كما هي عادتك. أنا، أشعر بالكثير من وجع القلب حتى أنني لن آكل مجددا في حياتي.
أطلقت أمي عويلا طويلا و هي تخفي وجهها بيديها ثم أجهشت بالبكاء بدموع حارة. كانت تنتحب، تتأسف، تضرب فخديها بشدة، تغني بإيقاع رتيب و حزين جدا كل المآسي التي أصابتها. كانت تحصي كل الشتائم التي تلقتها، النعوت التي تم وصفها بها. تكرر بدون توقف الثناء على أسلافها الذين تمت الإساءة لهم بنفس المناسبة.
بعد أن شبع أبي، شرب رشفة ماء، مسح فمه، سحب وسادة ليتكئ عليها و سأل:
- مع من تشاجرتي ثانية؟

Scanned by CamScanner

كان للجملة أثر سحري على أمي. توقفت عن البكاء، رفعت رأسها و خاطبت أبي بموجة من السخط:

- لكن مع ساقطة الطابق الأول، زوجة صانع المحاريث! لطخت هذه المخلوقة المقرفة غسيلي بخرقها التي تفوح منها رائحة الزريبة. إنها لا تستحم عادة، ترتدي ملابسها لمدة ثلاثة أشهر، لكن لتفتعل شجارا، اختارت الإثنين، يوم غسيلي، لتخرج خرقها. أنت تعرف صبري، دائما أحاول تبسيط المشاكل، لا أفقد أدبي التقليدي أبدا؛ لقد ورثت هذا عن عائلتي، كلنا مؤدبون، إن الناس الذين يستفزوننا بكلماتهم الفظة يضيعون وقتهم فقط. نعرف كيف نحافظ على هدوئنا و نصون كرامتنا. كان لا بد لهذه المقملة ...

انبثق صوت رحمة في الظلام.

- مقملة! أنا! هل تسمعون، يا أمة المسلمين؟

لم يكفها النهار، إن الرجال موجودون الآن في البيت ويستطيعون أن يشهدوا أمام الله من منا تعدى حسن الجوار.

ما حدث بعد ذلك لا يمكن وصفه بالكلمات، في البدء كانت هناك صرخات حادة و مطولة، صياحات، أصوات متقطعة. كانت كل واحدة من الغريمتين، تطل من نافذتها، تلوح في الفراغ، تقول شتائم لا يفهمها أحد و تنتف شعرها. مسكونتين بشيطان الرقص، كانتا تقومان بالتوائات غريبة. خرج الجيران و الجارات من غرفهم و ضموا أصواتهم إلى أصوات الجنيتين. الرجال، بأصواتهم الخشنة، كانوا يحثونهما على الهدوء، كانوا يصرون على أن تلعنا الشيطان بشدة، لكن هاته النصائح الحكيمة كانت تزيد من غضبهن. أصبح الضجيج لا يحتمل. لقد كانت عاصفة، زلزالا، ثورانا للقوى الخفية، انهيارا للعالم.

لم أكن أستطيع التحمل أكثر. كانت أذناي في عذاب، كان قلبي داخل صدري يلطم بقوة جدران قفصه. خنقني النحيب و انهرت على قدمي أمي، بدون وعي.

Scanned by CamScanner

الفصل 2

الثلاثاء، يوم مشئوم بالنسبة لتلاميذ **المسيد**، يترك في فمي مذاقا من المرارة، كانت كل أيام الثلاثاء لها لون الرماد بالنسبة لي.
كان الجو باردا، كانت ليلتي قد امتلأت بالكوابيس. كانت نساء شعثاوات تهددنني بفقء عيني، كن يمطرنني بأبشع الشتائم. أحيانا، كانت واحدة تلقي بي من النافذة و أسقط في الفراغ ببطء. كنت أصرخ، حطت يد ناعمة جدا على جبيني.
في الصباح، ذهبت إلى **المسيد** كما هي عادتي، كانت **للفقيه** نظرته المألوفة ككل أيام الثلاثاء. لم تكن عيناه نفيذتين لأية شفقة. تناولت لوحي و بدأت بتلاوة الآيتين أو الثلاثة التي كانت مكتوبة فيه.
في سن السادسة، كان لدي وعي مسبق بقساوة العالم و بضعفي، كنت أعرف الخوف، كنت أعرف الألم البدني الذي تسببه عصا السفرجل. كان جسمي الصغير يرتجف داخل ملابسي الخفيفة جدا. كنت أعتبر مسبقا المساء كوقت مخصص للمراجعة. كان يجب علي حسب العادة، أن أتلو بعض الأحزاب من القرآن التي حفظتها منذ بداية الموسم الدراسي. في وقت الغداء، أشار المعلم إلي بالرحيل. علقت لوحي، لبست بلغتي التي كانت تنتظرني عند باب **المسيد** و عبرت الشارع.
استقبلتني أمي ببرودة. كانت تعاني من شقيقة فظيعة. لتسكين الألم، كان صدغاها مغطيين بدوائر من ورق أزرق مطلي بوفرة بصمغ الدقيق. كان الغداء مرتجلا، و بدأ المرجل يصفر بصوت ضعيف على الموقد.
أتت لزيارتنا لالة عيشة، جارة قديمة، استقبلتها أمي و هي تشتكي من آلامها المادية و المعنوية. كانت تتكلم بصوت النقاهة الضعيف، تطيل في وصف ذلك الجزء من الجسم، تمسك بعنف رأسها المحزوم بمنديل بكلتا يديها. تملقتها لالة عيشة بمختلف أنواع النصائح، وصفت لها **فقيها** كانت تعويذاته تحدث المعجزات لكنه كان يقع في منطقة نائية. كنت أجلس في ركني بخجل و صمت.لاحظت الزائرة امتقاع وجهي.
- سألت: ما به ابنك؟
و أجابت أمي:

Scanned by CamScanner

- إن عيون الناس سيئة جدا، أطفأت نظرة الحساد بريق هذا الوجه الذي كان يشبه باقة الورود. هل تذكرين خديه اللذين كانا بلون القرمز؟ و عينيه ذوات الرموش الطويلة السوداء كأجنحة الغراب؟ حسبي الله، سيكون انتقامه رهيبا.

- قالت لالة عيشة: أستطيع أن أعطيك نصيحة، لنذهب ثلاثتنا إلى سيدي علي بوغالب هذا العصر. لن يستطيع هذا الطفل الذهاب إلى **المسيد**؛ إن جعلته يشرب ماء المزار، سيستعيد بهجته و قوته.

كانت أمي لا تزال مترددة، لإقناعها، تكلمت لالة عيشة مطولا عن آلام مفاصلها، عن ساقيها اللتين لم تعودا تستجيبان لها، عن يديها الثقيلتين كالرصاص، عن الصعوبات التي تواجهها عندما تتقلب في فراشها و عن ليالي الأرق التي قضتها و هي تئن مثل **أيوب** على فراشه. بفضل سيدي علي بوغالب، سيد الأطباء و الفقهاء. اختفت أوجاعها.

- لالة زبيدة، إن الله هو الذي أرسلني لأنجدك، لأدلك على طريق الشفاء. أنا أحبك، أنت و ابنك، لن أجد لذة في الطعام، و لا في الشراب، إن أنا تخليت عنك في عذابك.

وعدت أمي بزيارة سيدي علي بوغالب و باصطحابي إليه عصر ذلك اليوم نفسه. تنفست لالة عيشة الصعداء. بقيت المرأتان تتحدثان لمدة طويلة بعد ذلك. صعدت أمي إلى السطح، عادت و معها باقة من النباتات العطرة التي كانت تزرعها في أصص مشقوقة و طناجر من المينا. عطرت شايها بعشبة رعي الحمام و القصعين. اقترحت على لالة عيشة غصنا صغيرا من الأفسنتين لتضعه في كأسها. رفضت بأدب، قالت بأن هذا الشاي كان لذيذا بما فيه الكفاية، وضعت في كأسي كل أنواع الأعشاب العطرة. تركته يتشبع بها لمدة طويلة. أصبح شايي مرا، و لكن كنت أعلم أن هذا المشروب يريح إسهالاتي المتكررة.

نهضت أمي لتستعد. غيرت قميصها و **منصوريتها**، بحثت في قاع الصندوق عن حزام قديم مطرز بلون أخضر باهت، وجدت قطعة قماش بيضاء تستعملها كحجاب، لفت نفسها بشكل لائق **بحايكها** الحديث الغسيل.

لقد كان يوما عظيما في الحقيقة، لبست **جلبابي** الأبيض بدل القديم الذي أرتديه كل يوم، **جلباب** رمادي صعب الوصف، ملطخ ببقع الحبر و دوائر الدسم.

Scanned by CamScanner

عانت لالة عيشة الأمَرّين في النهوض من الفراش الذي كانت ترقد عليه.
بقيت لدي ذكرى حية عن هذه المرأة التي كان لها عرض يفوق طولها، رأس لصيق بجذعها، ذراعان قصيرتان تتحركان باستمرار. كان وجهها الأملس و الدائري يبعث في نوعا من الاشمئزاز. لم أكن أحب أن تُقبّلني. عندما كانت تأتي لزيارتنا، كانت أمي تجبرني على تقبيل يدها لأنها كانت شريفة، ابنة الرسول، لأنها امتلكت الثروة و حافظت على وقارها رغم تقلبات القدر. كانت أمي تتشرف بمعرفة لالة عيشة.
أخيرا، توجه الجميع إلى الدرج، ثم بلغنا الشارع بعد قليل.
كانت المرأتان تمشيان بخطى صغيرة، تقتربان من بعضهما أحيانا لتتهامسا حول انطباعيهما. في المنزل، كانتا تزلزلان الجدران بقول أدنى التفاهات. بقدر ما كانت حبالهما الصوتية تعاني الأمرين في البيت كانتا تصبحان في الشارع صامتتين و لبقتين بلطف.
أحيانا، كنت أتجاوزهما، لكنهما كانتا تلحقان بي كل ثلاثة خطوات لتزوداني بنصائح عن الحذر و توصيات. لم يكن يجب علي أن أحتك بالجدران: كانت الجدران متسخة جدا و كنت أرتدي **جلبابي** الأبيض الرائع، كان يجب علي أن أمسح أنفي دائما بمنديلي الجميل المطرز الذي كان معلقا في عنقي، كان يجب علي الابتعاد عن الحمير كذلك، لا يجب أن أتواجد وراءهم لأنهم يمكن أن يرفسوا ولا أمامهم لأنهم يستمتعون بأكل الأطفال الصغار.
- كانت أمي تقول لي: أعطني يدك.
و بعد خمسة خطوات:
- إمشي أمامي، إن يدك متعرقة جدا.
كنت أستعيد حريتي و لكن لوقت قصير. اقترحت لالة عيشة أن ترشدني في الازدحام. كانت تمشي ببطء و تتخذ مساحة كبيرة. كان الازدحام يتكون سريعا. كان المارة يلقون علينا كل أنواع الملاحظات البغيضة و لكن سرعان ما يهبون لنجدتنا. كانت أذرع مجهولة ترفعني من الأرض، تمررني من فوق الرؤوس و كنت أجد نفسي أخيرا في مساحة فارغة. كنت أنتظر مدة لا بأس بها قبل أن أرى **الحايكين** الناصعين و هما يظهران من بين الحشد. كان هذا المشهد يتكرر عدة مرات خلال هذه الرحلة. عبرنا شوارع بلا اسم ولا شكل خاص. كنت منتبها لنصائح مرشدتيّ،

Scanned by CamScanner

كنت أجتهد لأبتعد عن الحمير، كنت أتعثر بركب المارة باستمرار. كلما كنت أجتنب حاجزا كان يظهر آخر. وصلنا أخيرا إلى المقبرة التي تمتد على مدخل سيدي علي بوغالب. بادرت بخطوة مرح خجولة.
كانت القبور المغطاة بالأذريون تحمر تحت ضوء الشمس. كان الباعة يقفون وراء أهرام البرتقال خاصتهم. كان يسمع صوت دف مغن شعبي و جرس بائع الماء. في مكان ضيق، كان قرويون يبيعون خشبا للغسيل، مجامر من الطين و أطباقا لطهي الحلويات، كانت صينيات بائعي السكاكر تجذب انتباهي. كانت تعرض ديكة و كتاكيت من سكر أصفر مزينة بخطوط وردية، أباريق شاي شفافة، بلاغي صغيرة و منافيخ. كانت هاته الأشياء الرائعة تذكرني بعلبة العجائب خاصتي. لقد أهداني أبي مثلها في بعض الأحيان، لكنها كانت تتفتت قبل الوصول إلى المنزل و تصبح ببساطة رمادية و مغبرة، لا تستحق أن توضع مع كنوزي. كانت تبدو جميلة، هناك، تحت أشعة الشمس، في ضجة الحشد.
كان سقف القرميد الأخضر الذي يغطي الضريح ينبسط في سماء زرقاء كانت تلهو فيها سحب بيضاء و وردية بأشكال متغيرة. على درجات المدخل الرئيسي، كانت هناك نساء تجلسن على الأرض و تتحدثن مع بعضهن البعض، كن يمضغن علكة معطرة وراء حجابهن، ينادين على أطفالهن الذين يلعبون في التراب. كن يتزاحمن ليتركن لنا ممرا ضيقا.
سرعان ما وجدنا أنفسنا في ساحة بدت لي واسعة جدا. كانت توجد في الوسط أربعة خوابي مليئة بالماء. وجدت أمي غرافا و سقتني، سكبت قليلا من السائل في قعر يدها، مررت يدها على وجهي، عيني، مفاصل يداي و كاحلاي. أثناء قيامها بهذا الطقس، كانت تتمتم بصلوات و دعوات غريبة، كانت توصيني بأن أبقى هادئا، كانت تذكر لالة عيشة بهذا الانقلاب أو ذاك خلال رحلتنا. كنت أتحمل كل ذلك بصبري المعتاد، كنت ألوي عنقي لأشاهد حشدا من القطط الذين كانوا يصدرون ضجيجا مزعجا داخل هذا المعبد الغريب. كانت توجد **الزاوية** في آخر تلك الساحة. من كل جانب في غرفة مربعة كان نعش الولي موضوعا فيها، كان هناك بابان يقودان إلى غرف الحجاج ، أناس قدموا من بعيد، ليتخلصوا من شرورهم، كانوا يعيشون هناك مع أطفالهم، منتظرين الشفاء.

Scanned by CamScanner

عند وقوفهما أمام النعش، بدأت أمي و لالة عيشة بالاستنجاد بالولي بأصوات مرتفعة. كانت كل واحدة تتجاهل كلام الأخرى. كانت كل واحدة تحكي له عن مآسيها الصغيرة، تضرب بيد مبسوطة خشب النعش، تئن، تتوسل، تؤنب أعداءها. كانت الأصوات ترتفع و الأيدي تضرب النعش بطاقة و شغف أكبرين، كان هذيان مقدس قد تمكن من المرأتين. كانتا تحصيان كل شرورهما، تظهران ضعفهما، تطلبان الحماية، تطالبان بالانتقام، تعترفان بذنوبهما، تقران برحمة الله و بقوة سيدي علي بوغالب و تلتمسان شفقته. توقفتا أخيرا بعد أن أنهكهما ورعهما. أتت حارسة الضريح لتثني على تقواهما و تضم صلواتها إلى خاصتهما.

- قالت في الختام: أمنياتكما ستتحقق و رغباتكما ستنفذ. إن الله كريم، يسكن الآلام و يضمد جميع الإصابات. تبلغ طيبته جميع المخلوقات. أليست علامة على طيبته إرساله لنا رسلا ليصرفونا عن طريق الشر و يهدونا إلى طريق الجنة؟ إنه نتيجة لكرمه إرساله لنا بوساطة سيدنا محمد (صلى الله عليه و سلم) كلامه الجليل الذي يعلمنا الفضائل الأساسية: الصدقة، بر الوالدين، الإحسان إلى جميع المخلوقات. أولئك الذين قاموا بهذه الفضائل على أكمل وجه يصبحون أولياء الله و يشفعون لنا. يعتبر سيدي علي بوغالب من الوقر. لقد كان يحب جميع الكائنات و بالخصوص القطط. لدينا حاليا أكثر من خمسين واحدة منها. نحضرها مريضة، جرباء و هزيلة. يكفي قليل من الوقت لتستعيد صحتها و فرحها. يجب علينا إطعامها و معالجتها لنسعد الولي.

كانت أمي تبحث في ملابسها. ثم ما لبثت أن أخرجت منديلا به عقدة كبيرة. فكته ببطء بالاستعانة بثنياتها عدة مرات. همست لالة عيشة بجملة غامضة في أذنها، هزت أمي رأسها و أعطت **للمقدمة** قطعتين من فنة فرنك واحد مصحوبتين بهذا التفسير:

- هذا من أجلي و من أجل **الشريفة** التي ترافقني.

فتحت الحارسة كلتا يديها، استلمت الهبة و باشرت ابتهالا طويلا. جاءت نساء لكي تنعمن بهذا السدى الروحي الذي يثلج القلوب.

تسللت خارج حشد النساء هذا ببطء لكي أذهب و أداعب قطا كبيرا ممددا بشكل كلي أمام الحائط. نظر إلي بعينيه الصفراوتين، خرخر ثم أعطاني ضربة مخلب صارمة. تدفق الدم، بدأت يدي تؤلمني بشكل فظيع. أطلقت

Scanned by CamScanner

صرخة. أسرعت أمي، شديدة القلق، دافعة جاراتها، متعثرة **بحايكها** الذي كان يجر في الأرض.
كانت الإصابة تؤلمني و كنت أصرخ باستمرار. كانت النساء تطرحن أسئلة، تتأسفن، تمنحنني برتقالة لمواساتي، تناديننني بوردتهن الصغيرة، باقة الياسمين خاصتهن، جبنتهن الصغيرة البيضاء. دون أن تهدئنني إطلاقا، كانت تلك الدوامة من الوجوه تشعرني بالدوار. كنت أنتحب لتشقق روحي، وضعت يد مبللة على وجهي، جففت فوطة دموعي و سيلان أنفي. أوقفت برودة هذه اليد دموعي. لكن لم أتوقف عن الفواق طوال طريق العودة.
أنامتني أمي إبان وصولنا إلى البيت.

كان أبي دائما أول المستيقظين. لم أكن أرى بوضوح خياله مع أول خيوط الفجر و هو يتحرك ببطء. كان يلف حول الكلى خاصته حبلا من شعر الماعز، طوله عدة أذرع، كان يستعمله كحزام. لهذا كان يدور حول نفسه، يرفع ساقا ليمرر الحبل و يرفع الأخرى بالتناوب، يقوم بحركات واسعة بذراعيه. ثم ينتقل بعد ذلك لتنسيق عمامته، يلبس **جلبابه** و يخرج في هدوء. كانت أمي ما تزال نائمة.
هذا الصباح، سمعت أبي يهمس لها:
- لا ترسليه إلى **المسيد**، يبدو متعبا جدا. وافقت أمي و غطست تحت أغطيتها مجددا.
كان جميع من في المنزل ما يزالون نائمين.
جاء دوريان و حطا على جدار الفناء، كنت أسمعهما يقفزان من مكان لآخر، ضاربين الهواء بأجنحتهما القصيرة، كانا يتكلمان بشغف و كنت أفهم لغتهما. كان حوارا محتدما: قالا هذا بثقة :
- أحب التين المجفف.
- لماذا تحب التين المجفف؟
- يحب الجميع التين المجفف.
- أجل! أجل! أجل!
- يحب الجميع التين المجفف.

Scanned by CamScanner

- التين المجفف!
- التين المجفف!
- التين المجفف!

حفت الأجنحة، رحل الدوريان ليكملا حديثهما على سطوح أخرى.
كنت أفهم لغة الطيور و حيوانات أخرى أيضا، و لكنها لم تكن تعلم بذلك و كانت تفر عند اقترابي منها. كنت أحزن كثيرا لذلك.
خشخشت دلاء مصطدمة في الفناء. كانت **الشوافة** أول من يستيقظ و كان ذلك أفضل! كانت ظلمة الليل لا تزال موجودة في مثل هذا الوقت حول النافورة و البئر، في المراحيض و في المشتل الكبير الذي كان يتناوب عليه الجميع من أجل الاغتسال.
كانت **الشوافة** تعرف الكلمات الفعالة التي تجعل هذه الظلال وديعة. مساء كل خميس، كانت تحرق بخورا، ترش الزوايا بمياه زكية الرائحة و تنطق بتعاويذ طويلة.
صفق باب. زينب، ابنة رحمة، بدأت تئن، كافأتها أمها بصفعة مدوية و أمطرتها بوابل من الشتائم.
- في سنك! ألا تخجلين من تبليل فراشك كل ليلة تقريبا؟ يجب أن أرمي بك في زريبة بدل أن أحضر لكي بطانيتك كل يوم.
قاطعتها **الشوافة**:
- فليكن صباحك سعيدا يا رحمة!
- فليكن يومك مشمسا، لالة.
- كيف حالك هذا الصباح؟
- أشكر الله، لقد فرض علي عقوبة رهيبة في اليوم الذي أعطاني فيه هذه البوالة المشؤومة، أشكره على نعمه التي لا تحصى، أشكره في السراء و الضراء.
- فليبعد عنك جميع الأحزان. كوني صبورة! ستتعافى هاته الفتاة، ستكون سلواك في عالم الشقاء هذا.
- فليسمع منك الله، لالة! فليدر بركاته عليك و على من تعزين بدون حساب.
تقلبت أمي في فراشها، سعلت، تنهدت، ثم جلست في الأخير، نهضت و فتحت النافذة. أصابت الشمس عيناي و آلمتني. سمعت صوت فتح

Scanned by CamScanner

مصراعي نافذة فاطمة بزيوية. بصوت ناعس، بدأت أمي سلسلة تحياتها المألوفة التي تخاطب بها جارتها المقابلة كل صباح. تمنت لها هذه نهارا سعيدا بالطريقة المعتادة. لم تكن أي واحدة تسمع كلام الأخرى، كل واحدة كانت تتلو كلامها المنمق بشكل رتيب يخلو من الحيوية أو الحماسة. كانتا تطرحان أسئلة و لكن تعرفان الأجوبة مسبقا. منذ ثلاثة سنوات و نحن نسكن معا، لقد رددتا نفس الجمل كل صباح. أحيانا كانتا تغيران كلمة واحدة، تلمحان إلى بعض الأحداث الأخيرة، لكن مثل هذه الحالات كانت نادرة جدا.

سألت أمي بلامبالاة:

- كيف حالك هذا الصباح؟ ألا يؤلمك رأسك كثيرا؟ هل نمت جيدا؟

ختمت ب:

- إن الصحة شيء أساسي، يا أختي! لا يمكن لشيء تعويضها.

أضافت في ذلك اليوم:

- إن ابني ليس على ما يرام اليوم. فليبعد الله عنك و عن من تعزين كل سوء، و يفقأ عين كل من يحسدوننا.

سمع صوت **الشوافة** و هو يرتفع من الطابق السفلي:

- لالة زبيدة! فليكن صباحك مباركا! و فليبعد الله عنك كل سوء و ليحفظك أنت و أحبابك في صحة ممتازة!

أجابت أمي:

- فليكن يومك منيرا و مليئا بالبركات! كيف حالك هذا الصباح؟ فليسهر الله على سعادتك أنت و كل من تحبين.

تابعت **الشوافة**:

- لا تقلقي على ابنك، يسهر أولياء الله على صحته. لديه حماة في العالم المرئي و في العالم اللامرئي. أعلم أنه عزيز على القوى المباركة. عندما يصبح رجلا، سيكون سيفا بين السيوف، محاربا لا يقهر، خلية نحل مطلوبة لمذاقها و لعبيرها.

- قالت أمي و هي متحمسة: لالة، يقطر من فمك السمن و العسل و تعطر رائحة الجنة نفسك.

و أضافت أمي تغمرها البهجة و هي تنظر إلى السماء:

Scanned by CamScanner

- يا إلاهي، يا من يسمعني من أعلى السماوات، أنشر كنوزك التي لا تنضب، يا سيد كل الكنوز، على هذه المرأة الطيبة؛ فلتكن مهابة كما تستحق في هذا العالم و لتنعم بجودك في الآخر. فلتتوج حياتها بأداء فريضة الحج في الأماكن العزيزة علينا، لنا نحن، عبادك، الذين هديتنا إلى الحق بوساطة رسولك (صلى الله عليه، و على آله و صحبه الصلاة و السلام!) آمين، يا رب العالمين!

- أجابت النساء في وقت واحد: آمين!

خلال هذه المراسيم، كنت قد نهضت و لبست **جلبابي**. كانت أذناي تطنان قليلا، لكن لم أكن أشعر بتاتا بتعب أكثر من المألوف. كانت فكرة البقاء في المنزل طوال اليوم، بعيدا عن **الفقيه** و عن عصا السفرجل، تجعلني سعيدا للغاية. كان يوم أربعاء، كان اليوم التالي يوم عطلة في العادة و في يوم الجمعة كان الكتاب لا يفتح إلا بعد صلاة الجمعة. كان لدي يومان و نصف، يومان و نصف لأعيش كالأمير.

ساعدتني أمي لأتوضأ و انشغلت بإشعال النار في الركن الذي كانت تستعمله كمطبخ.

كان المنزل كله يدوي بصوت المنافيخ. كانت الشمس ساطعة. وضعت الطاولة عما قريب. كان هناك بيض مقلي بزيت الزيتون و خبز طازج. بدأنا نأكل. علال، زوج فاطمة بزيوية، حرفته البستنة، صاح في مدخل المنزل.

- ألا يوجد أحد؟ هل أستطيع الدخول؟ أجابت رحمة:

- لا يوجد أحد. أدخل!

دوى صوت خطواته في الدرج. كنا ننتهي من الأكل عندما دخلت زوجته غرفتنا. كانت تحمل طبقا به فطيرتا **سفنج**. كنت أحبه كثيرا.

نهضت أمي لتستقبل الزائرة، بوجه منزعج، و فم مقروص، بدأت التعابير التي يتطلبها الاحترام في مثل هذه المناسبات.

- فاطمة! لماذا أزعجت نفسك؟ لا أستطيع أن أقبل! لدينا، و الحمد لله، ما يشبعنا بشكل كاف! فطيرتان! هذا كثير جدا! بالله عليك لا أستطيع أن أقبل.

حاولت جارتنا أن تربح هذه المقاومة. أمسكت بيد أمي و اعترضت بحرارة.

Scanned by CamScanner

- لا تستطيعين أن تخجليني هكذا. أعطيها لسيدي محمد؛ فليعطه الله الصحة! لا تستطيعين الرفض؛ إن هذا شيء بسيط!
أخيرا شكرتها أمي.
- فليغمرك الله بأفضاله، و ليذقك من أطعمة الجنة التي يخصصها للمختارين خاصته.
- سيفتح الله لنا جميع أبواب كنوزه.
ذهبت فاطمة لتلتحق بزوجها و دفعت أمي الصحن إلى جانبي بكلتا الفطيرتين.
- قالت لي: كلها، أنت الذي تحبها، لا تحتمل معدتي الفطائر.
تلذذت.
طرق أحد متعلمي أبي، الذي كان الجميع ينادونه بادريس الفظ، باب الدخول. طلب قفة ليقوم بالتسوق لنا. أوصته أمي بصوت مرتفع أن يختار لحما ليس فيه الكثير من العظام، و فولا أخضر لينا. كانت وضعية أبي مزدهرة جدا. كنا نستطيع تناول اللحم من ثلاثة إلى أربعة مرات في الأسبوع.
أبي، من أصل جبلي مثل أمي، بعد تركه لقريته التي تقع على بعد خمسين كيلومتر من المدينة الكبيرة، عانى في البداية من صعوبات في كسب رزقه هو و زوجته الشابة. في بلاده، كان الناس نهابين و فلاحين. في فاس، كان لا بد من القيام بصناعة حضرية أو إنشاء تجارة صغيرة. في عائلتنا، لطالما اعتبر البيع و الشراء من أحقر الأعمال.
كان أبي يتذكر بأنه كان يعمل كحائك للأغطية في فترة من شبابه داخل ورشة لأحد أخواله، كان يقوم بعمله بشرف، يحسن إنتاجه من يوم لآخر. عما قريب، انتشرت صناعته بشكل جيد و تمتعت الأسرة ببعض الرفاهية، كان هناك عامل قديم يمارس نفس المهنة مع أبي؛ كان إدريس الفظ يلف البكرات و يقوم بالتسوق.
كان إدريس يأتي مرتين إلى المنزل: في الصباح لشراء المخزون و في منتصف النهار ليحضر غداء رئيسه. كان أبي يأكل في الورشة. كان لا يعود حتى المساء بعد صلاة العشاء. باستثناء يوم الجمعة. كان يبقى أبي في العمل حتى قرابة الظهر؛ كان يدفع لموظفيه، يذهب إلى المسجد ليؤدي صلاة الجمعة و نتغدى كعائلة.

Scanned by CamScanner

عاد إدريس و هو يحمل سلته الثقيلة. قامت أمي بالجرد. لم يكن الفظ قد نسي شيئا. كان للحم مظهر جيد و كانت خضرة قشور الفول تسيل لعابنا بكثرة. كانت القفة تحتوي كذلك على ثوم، بقدونس و كمية من رزم البهارات. كان لدينا زيت، فحم و دقيق للشهر كله.
عندما كانت أمي تتكلم عن "عين الحساد"، كانت تفكر في هذه الثروات حتما. كانت الجارات الأقل حظا تغرن منا قليلا. لم تكن تتجاهلن أي تفصيل من حياتنا المنزلية. كانت أمي بدورها تعرف صعوبات الجميع، الحالة المالية لكل أسرة، الديون التي كانت تأخذها، مصاريفها اليومية و مستواها الاعتيادي.
تم إفراغ الفول في سلة كبيرة من الحلفاء على شكل طبق.
- قالت لي أمي: ستساعدني على تقشيرها، وافقت و شرعت في العمل فورا، مللت من هذا العمل سريعا، ذهبت لألقي نظرة على غرفة بزيوية. كانت تفتل الكسكس. في إحدى الزوايا، كانت هناك كومة من الخضر: لفت، جزر، يقطين و بصل. كانت جارتنا تحبني كثيرا. توقفت للحظة عن فتل الكسكس و طفقت تبحث في سلة. مدت لي، بابتسامة عريضة، فجلة حمراء كالياقوت طولها شبر. ابتسمت لها لأشكرها و غرزت أسناني في الجسم الوردي لهذه الوجبة. كان طعمها قويا لدرجة أن دموعي خرجت من عيناي. لم أقل شيئا، رحلت متراجعا إلى الخلف، صعدت الدرجات التي تؤدي إلى السطح و رميت الفجلة الجميلة من فوق الجدار الذي كان يفصلنا عن المنزل الآخر.
كانت الشمس مشرقة و حارة. كان هناك قط أبيض و أسود يرتاح على الحائط و يراقب حركاتي بعينيه النصف مغلقتين. لم أقترب منه. لقد علمتني ضربة مخالب القط المقيم في سيدي علي بوغالب أن أحترس من القطط التي تخرخر تحت أشعة الشمس.
كانت أمي قد بدأت تقلق من غيابي، نادت علي بصوت مرتفع، توجهت للدرج لأنزل ثانية. كان هناك شخص يصعد الدرج بأقدام حافية. كانت الخطوات المتراخية و خشخشة الثياب تقترب. ظهرت رحمة. لم تعد أمي تحدثها منذ شجارهما. كانت المرأتان تتجنبان اللقاء، أما أنا فكنت لا أعلم إن كان يجب أن أبتسم لها أو أهرب. تراجعت للحائط و تركت الأحداث تتخذ القرار بدلا مني، بوصولها إلى ارتفاعي، توقفت رحمة، داعبت خدي

Scanned by CamScanner

و دست شيئا ما في يدي، كان شيئا ناعما و باردا، لكن ملمسه أغرقني في حمام من السرور.

- همست لي جارتنا: هذا من أجلك.

لم أرد بشيء، و جريت لألتحق بأمي التي كان صبرها ينفذ، كان الشيء لا يزال في باطن يدي و كان يطلق برودة ماء العين.

جالسا في ركن من الغرفة، تجرأت أخيرا على رؤيته، لقد كان حجرا كريما من الزجاج متعدد الأوجه مرصع بالماس، حلية مذهلة و بربرية، قادمة بدون شك من بعض القصور الموجودة تحت الأرض و التي تسكن فيها قوى الخفاء. هل كان رسالة من هذه الممالك البعيدة؟ هل كان تعويذة؟ هل كان حجرا ملعونا أعطي لي من طرف عدوتنا ليثير علينا غضب الشياطين؟ ليجلب لي غضب جميع شياطين الأرض!

كنت أمسك في يدي شيئا ذا قيمة لا توصف. سيكون له مكان في علبة العجائب خاصتي و سأطلع على كل خواصه.

وجدتني أمي في زاويتي، ألقت علي نظرة خاطفة و قالت:

قطعة زجاج أخرى! احذر من أن تؤذي نفسك.

Scanned by CamScanner

الفصل 3

مر هذان اليومان و نصف من الراحة بسرعة، في يوم الجمعة بعد الغداء، وجدت نفسي في الكتاب صائحا بالآيات القرآنية و مجودا كلمات لوحي باللكمات.
كانت هناك خصلة شعر تزين الجانب الأيمن من رأسي. كانت تدور في جميع الاتجاهات بينما كنت أتعلم درسي بانفعال. كانت أصابعي تؤلمني من فرط ضربي للوحي الخشبي. كان كل تلميذ يمارس هذه اللعبة بشغف.
كان المعلم يوسن، ممسكا عصاه الطويلة في يده. كان الضجيج و الضربات المتكررة على الألواح تسكرني. كنت أشعر بالحر في خدي.
كان صدغاي ينزان. كانت لا تزال هناك بقعة شمس ذات صفرة باهتة على الجدار المقابل. استيقظ المعلم، وزع بعض ضربات العصا بشكل عشوائي ثم عاد إلى النوم.
كانت بقعة الشمس تتضاءل.
كانت أصوات الأطفال قد تحولت إلى سيل، إلى شلال و إلى صوت رشق.
اختفت بقعة الشمس.
فتح المعلم عينيه، تثاءب، ميز من بين كل تلك الأصوات، تلك التي كانت تحرف آية كريمة، صحح الكلمة الخاطئة و بحث عن وضعية مريحة ليستأنف قيلولته. لكنه لاحظ بأن الشمس كانت قد اختفت. دعك عينيه، أشرق وجهه و أشارت العصا إلينا بالاقتراب. توقف الضجيج بشكل مباغت. و نحن جالسون كلنا قبالة منبر **الفقيه**، رتلنا أول سور القرآن.
كان يعرفها الصغار كما الكبار. لم نكن نخرج من الكتاب قبل ترتيلها. في أيام الجمعة كنا نتبعها ببعض أبيات ابن عاشر المخصصة لفرائض الوضوء و دعاء أو اثنين لمناشدة رحمة الله لصالح والدينا و أوليائنا الموتى و الأحياء.
كنا نفرح عندما تبدأ تلك الابتهالات. كانت تعني نهاية معاناتنا، العودة إلى المنزل، الركض في الأزقة المبللة. أخيرا، أخرجنا المعلم واحدا تلو الآخر.
قبل الرحيل، كنا نتوجه إلى المنبر لتحيته مرة أخيرة و تقبيل يده.
أخذ كل واحد بلغته من على رف موجود في مدخل قاعة الكتاب و رحل.
عندما وصلت إلى المنزل كان الظلام قد حل.

Scanned by CamScanner

في انتظار عودة أبي، أكلت قطعة خبز حاف. أخرجت علبة العجائب خاصتي و غرقت في تأمل كنوزي. كان الحجر الزجاجي لا يزال يفتنني: لم أتوقف عن لمسه و ضمه بحنان إلى خدي.
أشعلت أمي شمعة كبيرة مغروزة في شمعدان نحاسي.
هذا المساء، كانت غرفة فاطمة بزيوية تلمع بشكل غير مألوف. لاحظت أمي ذلك. دون أن تترك مكانها، نادت جارتنا:
- فاطمة، أ تقيمين زفافا؟ لماذا أشعلت عدة شموع؟ ... ماذا تقولين؟ قنديل! انتظري أنا قادمة.
نهضت أمي، اتجهت إلى الغرفة المقابلة. لحقت بها.
أوه! يال الروعة! كان هناك قنديل زيت معلق في وسط الحائط. كانت شعلة بيضاء و هادئة ترقص بشكل خفيف داخل زجاج على شكل يراعة. كانت هناك نافذة في الخلف تزيد شدة الضوء. لقد كنت أنا و أمي مبهورين بالكامل. قالت أمي في الأخير:
- يضيء قنديلك جيدا. لكن ألا يوجد خطر انفجار؟ مخاطر حريق؟ يقال أيضا بأن رائحة الزيت كريهة.
أجابت بزيوية بخجل:
- لا أظن بأن هناك أي خطر. يستعمل العديد من الناس هذه القناديل حاليا. إنها تبدو جيدة جدا. يجب أن تشتري واحدة، إنها تجعل الغرفة أكثر إشراقا و بهجة.
- أجابت أمي و هي تمدد شفتيها: أجل، بالطبع، القنديل يضيء أفضل من الشمعة لكنه أقل جمالا من شمعدان نحاسي.
اختفى فضولها، أمسكت يدي، أعادتني إلى غرفتنا. لم تقل شيئا حتى عودة أبي. حضرت العشاء كما هي العادة، وضعت الطاولة المستديرة الصغيرة، وضعت طقم الشاي في متناول يدها.
عندما عبر أبي عتبة الغرفة، أسرعت لأستقبله، أشرق وجهه، انحنى، أمسكني من تحت إبطي و رفعني إلى علو وجهه.
- لقد أصبح ثقيلا، هذا الخائن! قريبا سيصير رجلا!
- قلت له: لا، سأصبح رجلا عندما تصير لدي لحية جميلة. في موسم البطيخ، عبثا فركت خدي بعصيرها، لا تنمو لي أية زغبة.

Scanned by CamScanner

- قال لي أبي: حاول الموسم القادم، ربما تحصل على نتيجة ما؟ ستكون لديك إذن لحية سوداء جميلة.
- أنت يا أبي لديك زغبتان بيضاوان في لحيتك. أرى بأنك تشيخ.
- قال لي أبي: لا، لا، إنه مجرد حسد. من الأفضل الحصول على نقطة حليب في زغب اللحية بدل تينة أو عنقود عنب في طرف الأنف.
أغرقتني هذه الملاحظة في موجة من الضحك.
كان العشاء لذيذا، وجبة أفضلها على الجميع: أرجل خروف بالحمص. أكلنا كثيرا. أخليت الطاولة، قدمت لنا أمي الشاي بالنعناع و تحدثت عن أحداث النهار التافهة. كان أبي يرتشف شايه و نادرا ما يجيب، قل الضوء للحظة، قلمت أمي الشمعة بمقص صدئ، استغلت ذلك لتعلن بأن الشموع أصبحت قليلة الجودة، بأنه لا بد من شراء واحدة كل ثلاثة أيام و بأن الحجرة كانت تبدو مغمة بكل هذه الظلال التي تتراكم في الزوايا.
- قالت في الختام: كل الناس "الجيدين" يستضيئون بالزيت.
تركت هذه العبارات أبي في لا مبالاة تامة، كانت عيناي تلمعان من الفضول. كنت أنتظر قراره و أعجب في داخلي بمهارة أمي. لكن خاب ظني، استعد أبي للنوم دون أي تعليق. ذهبت لفراشي. حلمت في تلك الليلة بشعلة بيضاء جميلة استطعت أن أحبسها في الحجر الزجاجي المرصع بالماس.
في اليوم الموالي، بعد عودتي من **المسيد** من أجل الغداء، قفزت فرحا من هول المفاجئة عندما رأيت قنديل زيت معلقا في وسط حائط غرفتنا يشبه الخاص بجارتنا.
في الصباح، عندما قدم إدريس الفظ لأخذ قفة المخزون، مدها لأمي. كان قد اشترى قمعا و قنينة زيت بالإضافة إلى مخزون الشهر الاعتيادي.
صعدت **الشوافة** التي كانت تنادى ب "خالتي كنزة" لترى مشترانا الجديد. تمنت لنا جميع أنواع الرفاهية. كانت أمي تشرق من السعادة. لعلها كانت ترى بأن الحياة تستحق العيش و بأن العالم تسكنه كائنات ذات طيبة لا نهاية لها. كانت تدندن، توبخ بحنان قطا أعجفا غريبا عن المنزل، تضحك بدون سبب.

Scanned by CamScanner

بالنسبة لأمي، كانت مثل تلك الأفراح قريبة جدا من الدموع. في ذلك اليوم، لم يمضي وقت طويل حتى حانت الفرصة؛ كما كانت تقول: استطاعت أن تشفي غليلها.
رحمة، زوجة صانع المحاريث، التي كانت قد خرجت هذا الصباح برفقة ابنتها زينب، بنية الذهاب إلى حي كالكليين لحضور سبوع، عادت و هي تبكي. بدأت تنتحب منذ مدخل المنزل، تصفع خديها بشكل مدو.
- مصيبة! أصابتني مصيبة! أنا أتعس الأمهات؛ لن أنجو من هذا الوجع. لا أحد سيخفف ألمي.
انهمرت الأسئلة من كل النوافذ. كانت النساء قد أوقفن أعمالهن ، كن يتوسلن إليها لتخبرهن عن الكارثة التي أصابتها. نسيت أمي بأن رحمة كانت مجرد مقملة، متسولة من بين المتسولات. متأثرة جدا، أسرعت للطابق الأول و هي تصرخ:
- أختي! أختي المسكينة! ماذا أصابك؟ ربما نستطيع مساعدتك.كفي عن البكاء، أنت تكسرين قلوبنا.
أحاطت جميع النساء برحمة المسكينة. تمكنت أخيرا من إخبارهم: كانت زينب قد اختفت، تائهة وسط الحشد. حاولت أمها البحث عنها في الشوارع الصغيرة الجانبية لكن دون جدوى، كانت زينب قد تبخرت، ابتلعتها الأرض و لم يبقى لها أي أثر.
انتشر خبر هذا الاختفاء في الحي على الفور. عبرت نساء غريبات السطح ليأخذن جزء من ألم رحمة و يحثثنها على الصبر. بدأ الجميع بالبكاء بصخب. كانت كل واحدة من الحاضرات تئن، تنتحب، تتذكر لحظات حياتها الأكثر حزنا، تشفق على حالها الخاص.
التحقت بمجموعة الباكيات و أجهشت بالبكاء. لم يهتم بي أحد. لم أكن أحب زينب، كان اختفاؤها يسرني بالأحرى، كنت أبكي لأسباب أخرى. أولا، كنت أبكي لأفعل كما يفعل الجميع، كان يبدو لي بأن حسن السلوك يتطلب ذلك؛ كنت أبكي كذلك لأن أمي كانت تبكي و رحمة، التي أهدتني حجرا زجاجيا جميلا، كانت تشعر بالكآبة؛ لكن ربما كان السبب العميق هو ذاك الذي أجبت به أمي لما تعبت و كفت عن البكاء. توقفت جميع النساء، مسحن وجوههن، منهن من فعلت ذلك بمنديل و منهن من استعملت أسفل

Scanned by CamScanner

قميصها. تابعت إصدار صراخ مطول. حاولن مواساتي. قالت لي أمي:
- توقف! سيدي محمد، سنجد زينب، توقف! ستؤذي عينيك بكل هذه الدموع.

أجبتها و أنا أفوق:
- لا يهمني إن لم نجد زينب، أنا أبكي لأنني جائع!
أمسكتني أمي من معصمي و جرتني، مغتاظة.

تغديت وحيدا و ذهبت إلى الكتاب. مر العصر بالنسبة لي مثل العصور الأخرى: رتلت الآيات الكريمة، ضربت لوحي. في المساء، بعد تلاوة درسي، أعدت سلوك طريق المنزل، كنت أتوقع أن أجده رأسا على عقب. لم يكن الأمر كذلك. كانت النساء تنفخن على نيرانهن و هن ساكتات، تحركن يخناتهن، تسحقن توابلهن داخل مهاريس نحاسية. لم أتجرأ على سؤال أمي عن مغامرات زينب.
كما هي العادة، عاد أبي بعد صلاة **العشاء**. مر العشاء ببساطة، لكن عند وقت الشاي تكلمت أمي عن أحداث النهار بدأت قائلة:
- لقد قضت رحمة المسكينة يوما مليئا بالرعب. لقد شعرنا كلنا بالضيق.
- سأل أبي: ماذا حدث؟
استأنفت أمي:
- تعرف علال الفران الذي يسكن في كالكليين؟ بلى، بلى، لا بد من أنك تعرفه. إنه متزوج بخديجة، أخت جارتنا رحمة. منذ سنة مضت، لقد أتوا ليمضوا أسبوعا هنا عند آبائهم، إنهم أناس شرفاء، تقاة و حسنوا التربية، متزوجان منذ ثلاث سنوات، كانا يرغبان بشدة في إنجاب طفل. لقد استشارت خديجة المسكينة المعالجين، **الفقهاء**، السحرة و **الشوافات** بدون نتيجة. منذ سنة، ذهبا في زيارة تبركية إلى سيدي علي بوسرغين. سبحت

Scanned by CamScanner

خديجة في العين، وعدت الولي بالتضحية بحمل إن حقق الله أمنيتها. أنجبت طفلا. إن الأسرة في فرحة عارمة منذ ستة أيام. ستكون تضحية الاسم يوم غد.

تجرأ أبي على الإشارة إلى أنه لم يكن يرى في هذا الحدث أي داع للجزع. لكن أمي قاطعته و أعلنت بأنه كان عاجزا عن الإنصات حتى نهاية القصة.

- قالت: انتظر! انتظر! لقد بدأت للتو، أنت تقاطعني طوال الوقت.

كانت رحمة إذن مدعوة إلى السبوع و حفل الاسم. اشترى لها زوجها لباسا جميلا مزركشا بأزهار متعددة الألوان. أخرجت منديل زفافها، ذلك المنديل الأحمر الجميل بزينة الطيور، ألبست ابنتها زينب ملابس جديدة و خرجتا باكرا هذا الصباح. مرتا من مشاطين، مقارين، الوادين...

- قال أبي ببساطة: لن تذكري كل شوارع فاس.

قهقهت، استقرت علي أعين حادة للحظة و استأنفت أمي:

- وصلتا إلى رسيف .كان الناس يقطعون الطريق، كان هناك تاجر يبيع السمك الطازج، بفرنك و خمس و سبعين للرطل، (في الجوطية، يباع السمك بفرنكين و خمس و عشرين) .كان الناس يتقاتلون ليشتروا .علقت رحمة و ابنتها في دوامة الازدحام .بمجرد خروجها، أصلحت رحمة **حايكها** و لاحظت اختفاء زينب! نادت، صاحت، استغاثت بالحشد .أوقف البائع تجارته، أتى الناس لنجدة الأم المفجوعة، لكن لم يتم إيجاد الفتاة.

عادت رحمة و هي تبكي، بذلنا كل ما في وسعنا لمواساتها، أسرع علال البستاني بإخبار زوج رحمة. جاب مناديان عموميان جميع أنحاء المدينة، أعطيا أوصاف الفتاة، واعدين بمكافئة لمن يعيدها لوالديها.

خلال هذا الوقت، نحن، نساء ضعيفات، لم نكن نستطيع إلا البكاء، إبداء تعاطفنا مع الأم المسكينة.

كان قلبي حزينا. ذهبت أنا و فاطمة بزيوية إلى مولاي إدريس. في ظروف مشابهة، يجب طرق باب الله و أوليائه دائما ما يفتح هذا الباب في وجه المفجوعين. لاحظت امرأة عجوز ألمنا، سألتنا عن السبب. أخبرناها عن الحدث المحزن. أمسكتنا من أيدينا و أخذتنا إلى دار قيطون، منزل

Scanned by CamScanner

الإدريسيين، مكان لجوء جميع المتخلى عنهم. هناك، وجدنا زينب. كانت **المقدمة** قد استقبلتها و أطعمتها في سبيل الله. حظيت **بريال** كمكافئة و شكرناها لحسن ضيافتها. استعادت رحمة كل بهجتها عندما استعادت ابنتها.

- ختم أبي: الحمد لله ثم أضاف: حضري فراش هذا الطفل، إنه نعسان جدا.

تحت أغطيتي و بعينين مفتوحتين، كنت أتخيل في نعاس خفيف منزل الإدريسيين. كنت أتصور بيتا واسعا بفسيفساء باهت، يئز مثل قفير بأصوات نساء في دعوى طلاق، فتيات تعيسات و أطفال تائهون.

أنا كذلك، كنت تائها في مدينة مهجورة، كنت أبحث عن مكان لجوء بدون جدوى. أحسست بأن وحدتي أصبحت تضيق علي الخناق. صرخت. جاءت كلمة طيبة من بعيد لتخفف حماي و سقطت في الظلام، مطمئنا، مسترخيا، أتنفس بهدوء.

في الخميس التالي ولتشكر الله لإعادته ابنتها لها، نظمت رحمة وجبة للمحتاجين. ساعدتها جميع نساء المنزل. غسلت لالة كنزة، **الشوافة** بمساعدة فطومة أكثر تلميذاتها تفانيا و إخلاصا، غسلن الطابق الأرضي جيدا، فرشن الأرض بحصائر و زرابي بالية. كانت فاطمة بزيوية، رحمة و أمي تتحركن حول البرام و الكساكس. كن يطبخن في الهواء الطلق على السطح، على نيران من الخشب. كانت واحدة منهن تحضر الماء و أخرى تقشر الخضر أما الثالثة فكانت تحمل مغرفة كبيرة و تحرك بها الصلصات التي كانت تغلي في أوعيتها النحاسية.

أنا و زينب، مستسلمين لنزواتنا، كنا نجري من غرفة لأخرى، نصعد الدرج و نحن نلهث، نتلقى سحب دخان في عيوننا، مرفوقة بتوبيخات، ننزل ثانية لنلتجئ إلى البسطة، لا نعرف ماذا نفعل بحريتنا. كنا ننتظر وقت الغداء و حضور المتسولين بفارغ الصبر.

عندما ملئت أطباق الخزف الكبيرة التي استأجرتها رحمة بالكسكس المسقي جيدا بالمرق و الذي يعلوه هرم من اللحم و الخضر، ذهب إدريس العاود إلى مولاي إدريس و إلى منزل العميان الذي يقع في شارع رياض جحا، ليحضر ضيوفه. بعد قليل، سمعنا في رواق المدخل، صخبا مجودا

Scanned by CamScanner

بضربات عكاز و صياحات. كان إدريس أول الداخلين إلى الفناء. تبعه رجل أعمى بلحية بيضاء يرشده غلام ذو عشر سنوات. بعد ذلك، انتشر سيل من المتسولين رجال و نساء في الساحة. كان العجوز الأول يمارس سلطة حقيقية على هذا الحشد ذي الثياب الرثة. كان الجميع يطيعونه. كانوا يظهرون الكثير من الاحترام لهذا الزعيم.

علمت فيما بعد بأن منزل العميان الذي يقع في شارع رياض جحا كان له زعيم يتم اختياره و قانون داخلي كان أعضاء هذه المؤسسة يخضعون له.

كان إذن أمام عيني زعيم المتسولين وسط جماعته.

جلس الجميع على الحصائر و الزرابي البالية. قبل تقديم الطعام لهم، استهلوا أنشودة كانت تتحدث عن النعم التي تنتظر المؤمنين كرماء القلب، أولئك الذين يطعمون المساكين و يكرمون ضيف الله. انتهت القصيدة بأدعية لإنزال البركة على منزلنا و على كل ساكنيه. ضم الرجال، النساء و الأطفال أيديهم، كانت الكفوف مفتوحة نحو السماء. تلوا أول سور القرآن. كنت أعرف هذه السورة جيدا و تلوتها بورع:

الحمد لله

رب العالمين

مررنا أيدينا على أوجهنا. قدم الكسكس. حول الأطباق التي كانت موضوعة على الحصير، جلس المتسولون ليأكلوا. كانت زبديات من الطين، مزينة بالقطران، تقدم مليئة بالماء. كان المتسولون يأكلون و يشربون بكرامة، بدون استعجال، بدون اضطراب. بعد أن شبعوا، لعقوا أصابعهم بعناية، تنشفوا بفوط كانت موضوعة تحت تصرفهم.

عند إشارة زعيمهم، بدأوا تجويد حزب من الكتاب المبين. كانت جدران منزلنا التي لطالما أصدرت صوت المجلجلات و **الكانكا** العزيزين على **الشوافة** تهتز مقدسة بفعل الآيات الكريمة. كان الحزب المختار طويلا للغاية. تم تجويده بإيقاع مليء بالعظمة. كان العميان في خرقهم يتلون كلام الله بإيمان و يكتسبون نبلا و عظمة تفوق الخيال.

بعد دعاء أخير تلاه زعيم العميان و ختم بكلمة **آمين** التي نطقها الحضور بصوت واحد، نهض الجماعة، رنت العكاكيز على فسيفسائنا الباهت.

رحل المتسولون و هم يضاعفون الشكر و عبارات المباركة.

Scanned by CamScanner

دعت رحمة المشرقة الجارات و بعض النساء القادمات من المنازل المجاورة، جمعتهن في غرفتها، قدمت لهن وجبة ممتازة من اللحم بالخرشوف، كسكس بالحمص، سلطات برتقال بالسكر و القرفة. حضرت أمي الشاي بالنعناع. جميعهن كن تصرخن، تقهقهن، تداعبن بعضهن بالتبادل، تطلقن زغاريدا.

قبل أن يجتمعن من أجل الطعام، كانت أمي و الجارات الأخريات قد غيرن ثيابهن، أخرجن من صناديقهن **قفاطينا** بألوان براقة، **دفينات** مزينة بأزهار و لبسن مناديل حريرية زاهية لتزيين رؤوسهن. دامت الحفلة حتي غروب الشمس. انتهت على السطح بزغاريد أخرى، أمنيات أخرى و وعد باللقاء ثانية.

خلال كل هذا الوقت، لم يهتم بي أحد، كنت قد أكلت مع زينب في طبق صغير كان يخصني و هدية من أبي في ليلة عيد الأضحى. كنا قد نجحنا في الحصول على الشاي الذي سكبناه في براد من التنك، لعبة لزينب و في الأخير تشاجرنا.

في الليل، عاد للمنزل هدوءه. أحسست بالحزن، أخرجت علبتي، أفرغتها على جزء من البطانية، نظرت إلى أشيائي واحدا بواحد. لم يكونوا يحدثونني هذا المساء. كانوا ينامون جامدين، متجهمين و عدائيين نوعا ما. كانوا قد فقدوا قوتهم السحرية و أصبحوا حذرين و كتومين. أعدتهم إلى علبتهم. ما إن أغلق الغطاء حتى استيقظوا في الظلام ليقوموا بدون علمي بألعاب فخمة و فاخرة. لقد كانوا يجهلون أن جدران علبة العجائب خاصتي لم تكن تستطيع أن تفلت من تأملي. كبر حجري الزجاجي البريء، تمدد، بلغ حجم قصر للأحلام، تزين بالضوء و بقماش نفيس. ولجت المسامير، أزرار الخزف الصيني، الدبابيس و الجواهر المتحولة إلى أميرات، عبدات و مراهقات إلى هذا القصر، عزفوا ألحانا عذبة، تناولوا أكلات فاخرة، نظموا حصصا للأرجوحة، تسلقوا الأشجار لقضم الفواكه، اختفوا في السماء على جناح الريح بحثا عن مغامرات.

فتحت العلبة بحذر بالغ لأستمتع بالعرض بشدة أكبر. اختفى السحر، وجدت بكل بساطة حجرا زجاجيا، مسامير بدون روح و بدون غموض. كان هذا المنظر قاسيا. أجهشت بالبكاء، أتت أمي، تكلمت عن التعب، أخذتني للنوم.

Scanned by CamScanner

الفصل 4

في الأيام الأولى لفصل الربيع، ذهبت أنا و أمي لزيارة لالة عيشة. كنا مدعوين لقضاء اليوم كله. قبل بضعة أيام، حضرت أمي حلوى منزلية من السميد الناعم، فطائر باليانسون و السكر، **سللو**، دقيق محمص ممزوج بالزبدة و عدة توابل.
حملنا كل هذه الحلويات. تركنا المنزل في الصباح؛ أتى إدريس الفظ للقائنا في بيت صديقة أمي محملا بقفة المخزون خاصته و دجاجة بمظهر جيد جدا. أحضر إدريس كذلك قالب سكر، علبة شاي و باقة نعناع.
اعترضت لالة عيشة، لامت أمي على هذه المصاريف الباهظة. كانت تنتظر زيارتنا و لهذا فقد قامت بالتسوق.
كانت لالة عيشة تسكن في زقاق زنقة حجامة، منزل ذو باب منخفض. كان هذا المنزل يشبه، بطريقة ما، لالة عيشة نفسها. كانت الإثنتان معا قد عاشتا أفضل الأوقات، كانت الاثنتان تحافظان على سلوك مصطنع، لباقة بائتة.
كانت لالة عيشة تسكن غرفتين صغيرتين، في الطابق الثاني. كانت شرفة تطل على الفناء مزودة بدرابزين من الحديد المطرق تؤدي إلى الغرفة الرئيسية. كانت الغرفة الأخرى تطل مباشرة على الدرج و تستعمل بالخصوص كمستودع لمخزون الشتاء. كانت لالة عيشة تطبخ فيها كذلك.
كان للحجرة الكبيرة نافذتان، كانت إحداهما تطل على فناء المنزل، و الأخرى على سطوح المنازل المجاورة و سطح مسجد صغير في الحي.
كانت هذه الغرفة التي كان طولها يضاعف عرضها نظيفة جدا. كانت أقمشة الكريتون المليئة بالتشاحير تغطي التخوت، كانت وسائد ضخمة مطرزة بنقط صغيرة و مغلفة بنسيج حريري شفاف تتراكم هنا و هناك.
كان الجدار مزينا برفوف مطلية، تحمل زبديات من الخزف الأوربي، أطباقا مزينة بورود كبيرة، كؤوسا على شكل غراريف. كانت ساعة حائطية من الخشب الداكن، غنية بالنقوش، القبيبات الجرسية و القلائد تحتل مركز الشرف. كانت الأرض مفروشة بحصير من الأسل. تم بسط سجادة ذات ألوان حية فوق الحصير.

Scanned by CamScanner

كان مجموع هذه الأشياء يغمر في جو من اليسر و الهدوء. بالطبع لم يكن الترف بل الراحة، عش ناعم في مأمن من الريح.
بمجرد وصولنا، قدمت لنا لالة عيشة بعض الحلوى و الشاي بالنعناع. تكلمت بعد ذلك عن آلام مفاصلها التي عادت تضيقها، عن وجع أسنان كان قد أفقدها صوابها في الأسبوع الماضي، عن شهيتها المسدودة. طرحت العديد من الأسئلة على أمي التي كانت تجيب بلباقة، تتوقف عند نقطة ما، تبدأ استطرادا طويلا، تمثل مشهدا بالحركات. بطبيعة الحال، كان جيراننا هم موضوع الحديث. لم تكن أمي تتحدث عنهم بسوء و لكن بحرية كبيرة في التعبير. كانت تقارن زوج رحمة بحمار ينهق دون توقف، و الخاص بفاطمة بزيوية بجرذ قلق. لم يكن أبي الذي كانت تدعوه ب « الرجل » يفلت من ضربات مخالبها. كانت قامته الطويلة، قوته و سكوته تصبح محط سخرية. أنا كنت أحب أبي. كان يبدو لي وسيما. بشرته بيضاء محمرة قليلا، لحيته سوداء، شفتاه حمراء مرجانية، عيناه سوداوان و صافيتان، كان كل شيء فيه يعجبني. صحيح أن أبي لم يكن يتكلم إلا قليلا و كان يصلي كثيرا، لكن أمي كانت تتكلم كثيرا و لا تصلي كفاية. كانت بالطبع أكثر تسلية و مرحا. كانت عيناها المتحركتان تعكسان روح طفلة. رغم لون بشرتها العاجي، فمها الغليظ، أنفها الصغير و المتقن، لم تكن تبدي أية أناقة. كانت تبذل جهدها لتبدو أكبر من سنها. في سن الثانية و العشرين، كانت تتصرف مثل قابلة عظيمة الخبرة.
تحدثت لنا لالة عيشة بدورها عن جيرانها. كانت تصيح بفضائلهم المتعددة، كانت إحداهن متواضعة و جميلة، و أخرى نظيفة، مقتصدة و طباخة ماهرة، كما كانت هناك أخرى تقية و شريفة؛ من يسمعها يصدق أنهن كلهن تضاهين قداسة ملائكة الجنة. لكنها أخفضت صوتها لتهمس لأمي في باطن أذنها برأيها الحقيقي. أنهت حديثها بهذه الكلمات:
- لقد باركني الله عندما ألهمني بفكرة السكنى في هذا المنزل الذي تعيش فيه كل النساء مثل الأخوات.
صعدت أصوات من الطابق السفلي، خرجت من جميع الغرف لشكر لالة عيشة على كلماتها الطيبة. وزعت أمي و لالة عيشة بصوت واحد المزيد من الثناء.

Scanned by CamScanner

جاء أطفال المنزل ليدعوني للعب. كانوا يكونون مجموعة صغيرة تتكون من أربعة أولاد و ثلاثة بنات. لم أكن أعرف أسماءهم. وضعتني البنت الكبرى ذات التسع سنوات تحت حمايتها. صعدنا إلى السطح. قمنا بسرعة بتأثيث صالة استقبال باستعمال أغطية قديمة و جلود أكباش. لعبت علبة مصبرات صدئة موضوعة فوق ثلاثة أحجار دور السماور؛ قامت أحجار أخرى موضوعة على قرص ورقي مقام كؤوس الشاي. ارتشفنا بوقار شايا افتراضيا لكن لذيذا للغاية، أكلنا حلويات متخيلة، وزعنا مدائح للفتاة الكبرى، مضيفتنا.

بعد ذلك، قررنا لعب العروس. اختيرت أصغر الفتيات لتمثل دور العروس. اكتفت الكبرى بشخصية **النكافة**، واحدة من تلك النساء المتخصصات في تنظيم مثل هذه الحفلات. نزلت لتحضر قطعة منديل، أحمرا للخدين، كحلا مسحوقا جيدا لتكحيل العينين. جلست العروس على وسادة، قامت **النكافة** حسب العادة بوضع التبرج و إلباس المخطوبة الشابة وسط ضجة من الزغاريد و الأغاني المرتجلة. ألبستها غطاء عوضا عن فستان، سرحت شعرها، زينتها بأوراق مفرغة، مصطنعة حليا ببذاءة، ابتعدت لتتأمل عملها.

أحد الأولاد، محركا من طرف غريزة الشر خاصته، جمع حفنة تراب و رمى بها وجه عروسنا. عمت الفوضى، بدأت العروس و مدعووها بالصراخ، بالقتال، بالجري في جميع الاتجاهات، بوجه ملطخ بالدموع و المخاط. كنت أصرخ مثل الجميع دون أن أعرف لماذا. كنت أحاول الإفلات من ذراعي البنت الكبيرة التي كانت تبذل جهدها سدى لتهدئني.

صعدت إحدى النساء، وزعت بعض الصفعات و الشتائم، وصفت الأبرياء و المذنبين بالشياطين و أنزلتني تحت ذراعها مثل الحزمة لتعيدني لأمي.

تلقيت المزيد من التوبيخ الظالم. هددتني أمي بأنها لن تأخذني ثانية لأي مكان.

عادت أمي و صديقتها للحديث عن رحمة، زوجة صانع المحاريث، عن فاطمة بزيوية و عن خالتي كنزة العرافة.

حكت أمي عن صلحها مع جارتها في الطابق الأول، هرب زينب، صدقة المساكين. كانت تمدح رحمة. تتأسف على لحظة تعكر المزاج التي سببت الشجار. كانت رحمة تصبح امرأة شابة فاتنة، صريحة جدا! نزيهة جدا!...

Scanned by CamScanner

- قالت أمي: ثم إنها جميلة جدا! دائما مبتسمة، دائما نشيطة. يجب على زوجها أن يشكر الله لأنه أهداه سمراء لذيذة جدا. ألا تحبين هذه البشرة السفعاء بحبات صغيرة جدا، هاتان العينان الكبيرتان اللتان تضحكان؟ ألا تملك فما جميلا بشفتين مسدودتين و مقطبتين قليلا؟

كانت لالة عيشة توافق، تومئ برأسها، تتنهد من الرضى.

لكن كانت أمي تتابع مسبقا:

- فاطمة، جارتي المقابلة، هي الأخرى لم ينسها الخالق. عينان جميلتان مليئتان باللطف! حاجبان بانحناء مثالي! بشرة صهباء! لكني لا أحب وشم ذقنها.

- أضافت الصديقة: لديها كذلك نضارة الشباب.

كنت أسمع ساكنا في مكاني. كنت أتعجب من سماع أمي و هي تعترف بجمال جارتينا. كنت أحس بهذا الجمال، لكن لم أكن أستطيع التعبير عنه بعبارات محددة.

كنت ممتنا لأمي لتعبيرها، بعبارات دقيقة، عما كان يطفو داخل مخيلتي على شكل صور غير واضحة، مشوشة، غير مكتملة.

بخصوص خالتي كنزة اكتفت المرأتان بهز رأسيهما دلالة على التفاهم.

كانت خالتي كنزة، **الشوافة** تنتمي بالنسبة لي لعرق آخر. كانت ملكية. كان بنو آوى يحسون بأنهم بنو آوى بجانب هذه اللبوءة. إن جمال الملكات غريب! كلا، ليس ملكات مملكات عابرة يقضي عليها الجوع، الشبق أو الشراهة، لكن ملكات عذراوات تحملن على جنوبهن إلاه الإنصاف.

كانت عيناها الكبيرتان، في وجهها الشبيه ببرشمان ناعم، تفتن الزبائن و تفرض الاحترام على أولئك اللواتي كن لا يحببنها. في الحقيقة، كنت أخاف منها بشكل غير واضح. كنت أربطها في أحلامي بالقوى المظلمة، بأسياد الخفاء الذين كانت تمارس معهم تجارة مستمرة. كنت أظن بأنها كانت تتمتع بقدرات لا محدودة و كنت أعتبر السكن مع شخص بهذه الأهمية كامتياز.

وصل مولاي لعربي، زوج لالة عيشة، بشكل مفاجئ. سمعناه يقول الجملة المخصصة عند المدخل:

- ألا يوجد أحد؟ هل أستطيع الدخول؟ أجابته ثلاث أصوات نسائية في الوقت نفسه:

Scanned by CamScanner

- أدخل! أدخل! أدخل!
سمع وقع خطواته في الدرج.
دخل مباشرة إلى الغرفة الصغيرة. لقد كان يعلم بزيارتنا و لم يكن مسموحا له أن يرى أمي. أسرعت زوجته بموافاته. كان هناك تهامس مشوش ينز في الغرفة الصغيرة و يتخلله سكوت. دام طويلا، كنت أنا و أمي جالسين ساكنين. لم نكن نعرف كيف نشغل أنفسنا. حكيت لأمي عن ألعابنا على السطح و سبب الفوضى التي تبعتها. أنصتت إلي بشرود، أجابتني بجمل غير واضحة، نصائح ذات طابع عام حول التصرف السليم بين الناس.
نهضت لتنظر من النافذة، واجهت عيني جارة تنحني هي الأخرى على الدرابزين، تتأمل الفناء الفارغ. حيت المرأتان بعضهما، تحدثتا عن فصل الربيع الذي كانت بداياته دائما متعبة. استغلت الغريبة الفرصة لتتحدث عن إحدى **النزاهات**، رحلة في الهواء الطلق كانت قد شاركت فيها، لقد مضت عليها سنوات. كانت البادية المزينة مثل باقة برائحة العسل. كانت الطيور تنتشر من دغل إلى غصن. النساء تجرين حافيات القدمين على العشب، تتخبطن في الجدول، تغنين أهازيج تشرح القلب. عند منتصف العصر، ضربت عاصفة خفيفة الطبيعة. جمعت السجادات و الأغطية بسرعة. تكلف كل واحد بجزء من الأمتعة: أطباق فارغة، طقم الشاي، نعارات للماء. كان الفريق يتكون من رجلين و خمس نساء، كلهم آباء. اعتبر البعض المطر كبركة أما البعض الأخر فاعتبرها كارثة.
- كنا في حالة مزرية، عند عودتنا، كانت فساتيني الجميلة قد لحقها الوحل. قفطان مشمشي من ذلك الذي لم يعد يصنع في زمننا هذا. فوق هذا، كنت ألبس جلبابا مطرزا بأزهار خبازية و...
عادت لالة عيشة لتلاقينا، بوجه مرتبك. أشارت إلى أمي لتتبعها إلى ركن الغرفة الأكثر ظلمة. بقيت في النافذة. بقيت المرأة التي كانت تحكي أفضل ذكرياتها تنتظر عودة أمي للحظة. عندما رأت بأنها لم تعد و باعتباري صغيرا جدا لأقدر بهاء ملابسها، تركت جملتها غير مكتملة، تنهدت، رفعت عينيها إلى السماء لتشهده على عدم فهم الجنس البشري، أدخلت رأسها، اختفت في الظل الناعم لشقتها.
كانت أمي تتكلم بصوت خافت مع صديقتها. لم أتجرأ على الاقتراب. سمعت كلمة « باشا » عدة مرات خلال حوارهما الغامض. كانت هذه

Scanned by CamScanner

الكلمة تدهشني. تضايقني. الباشا؟ ألم يكن ذلك الشخص القاسي الذي يجعل الناس يتقاتلون فيما بينهم حسب نزوته؟ يضعهم في زنزانة سوداء بخبزة شعير و قلة ماء؟ يدعهم يلتهمون من طرف الجرذان؟ كلمة « باشا » كانت تجعل الناس الضعاف يرتجفون. كان يرتبط في ذاكرتهم بمشاكل لا تحصى، بآلام صاخبة، بصرخات و انتحابات. كانوا يستدينون ليدفعوا لرجال الباشا، يتحملون جميع أنواع الإحراج في المحاكم و يرون دائما ما كانوا يعتبرونها حقوقهم تتحول بحيلة خبيثة إلى حجج ضدهم. لم تكن كل هذه الاعتبارات تمنعهم من افتعال شجارات من أجل أشياء تافهة. كانوا يسرعون بالذهاب إلى « الباشا » ليعرضوا عليه مشاكلهم الصغيرة. كانوا يعودون من هناك دائما مستاءين، بعد تلقيهم لرفض قاس.

بدأت لالة عيشة بالبكاء بصمت. كانت تخفي وجهها بفستانها و تنخر، أشفقت عليها أمي، أحاطت كتفيها بذراعها، تحدثت إليها كما لو كانت تتكلم مع بنت صغيرة.

كان المشهد يسليني. كانت لالة عيشة الأكبر من أمي تتلقى المواساة، تصبح الأخت الصغرى بين ذراعي الكبرى. كنت أرغب في الضحك، لكن كنت أعلم أن ذلك تصرف غير لائق. أجبرتني سخافة الموقف على الهرب إلى الدرج لكي لا أبدو قليل التهذيب. تمنيت اللقاء بالغريبة الصغيرة التي كانت تحسن لعب دور **النكافة**. كنا سنعيش معا بعض المغامرات المثيرة، في بلد سحري. للأسف! كنت أعاني من الوحدة مسبقا.

جلست على إحدى الدرجات و دندنت بلحن مرتجل كلمات خالية من المعنى:

الباشا!
أكل لالة عيشة
يا ليل! يا ليل!
يا عيني!
تبكي في الوحدة.

نادتني أمي من آخر الغرفة. سألتني إن كنت أنوي النهيق لمدة أطول. سكت، استندت على الحائط و سرعان ما نمت.

سمعت شخصا يوقظني. جرتني يد قاسية إلى غرفة لالة عيشة حيث كانت الطاولة معدة. كنت نعسانا جدا. أجبرتني أمي على الأكل، لكن لم أستطيع

Scanned by CamScanner

ابتلاع شيء. كان مذاق الدجاج بالجزر يشبه التبن. لطخت **جلبابي** ببقعة دهن كبيرة و تلقيت توبيخا صارما. في الأخير، وضعوني على فراش استطعت أن أشخر فيه على راحتي.
عندما استيقظت، كانت الشمس قد اختفت، كانت الشموع تومض صانعة ظلالا رائعة على الجدار.
جاء أبي لإحضارنا. نزلت الدرج متعثرا عند كل درجة. كانت الشوارع قليلة الإنارة. كان أبي يحمل فانوسا من التنك تم تزيينه بزجاج ملون يزيده تألقا. كانت أطياف تبرز في الظلام، تتخذ شكلا بشريا، تختفي بعد لحظة من خلفنا مبتلعة من طرف الليل. لم أكن أعرف أي شارع. كنت أسمع وقع خطوات في البعيد. كانت تقترب ثم تختفي. نبح كلب. نشب شجار قطط على قمة أحد السطوح. كان العدوان يتحديان بعضهما، كان كل واحد يصيح بإقدامه و شجاعته، ينفثان نفخات غضب. ابتعدت أصواتهما. كانت خطواتنا و حفيف ملابسنا فقط من تنعش هذه المدينة الميتة.
وصلنا إلى بيتنا، أنامتني أمي. غططت في النوم.
في اليوم الموالي، الجمعة، عاد أبي للبيت لتناول الغداء كما هي عادته. كان يرتدي **جلبابا** من الصوف ناصع البياض به أزرار و عمامة جديدة، صلبة جدا بفعل الشد.
قدمت أمي الطعام، كان طبقا متقنا للغاية، أكلنا لحم الخروف بالخرشوف البري، كسكسا بالسكر و القرفة و في الختام سلطة لذيذة من البرتقال و زيت الزيتون.
ارتشفنا عدة كؤوس من الشاي بالنعناع. في وسط الصينية، كانت وردتا أصفهان تتفتحان داخل فنجان قديم من الخزف الصيني.
تنهدت أمي و خاطبت أبي:
- إن القدر يكون قاسيا جدا أحيانا. كل من الفقراء و الأغنياء، الأخيار و الأشرار يقعون تحت رحمة تقلباته. أشعر بالكآبة! كلما فكرت في لالة عيشة ينزف قلبي. لم أرد إزعاجك مساء البارحة بالأحداث المحزنة التي حدثت في النهار.
أصغى أبي باهتمام:
تابعت:

Scanned by CamScanner

- مولاي العربي، زوج لالة عيشة، تشاجر مع شريكه، شخص يدعى عبد الحق ابن لا أعرف من...

رفعت عينيها إلى السقف لتدعو:

- فليبعد الله عن طريقنا، عن أطفالنا و عن أطفال أطفالنا، كل أولاد الحرام الذين يأتون بالابتسامة على الشفتين و الصدر مليء بالظلمات. كن حامينا و وكيلنا: آمين! عبد القادر هذا، ابن الحرام هذا، لم يكن تابع الشيطان هذا يملك حتى قميصا نظيفا عندما وظفه مولاي العربي كعامل لديه في ورشته التي توجد في مشاطين. كان يحسن معاملته، يقرضه المال، يدعوه دائما للغداء أو العشاء. كان عبد القادر مؤدبا و متملقا حتى. كان يمدح مولاي العربي، يثني على كرمه، طبعه الجيد و نبل أحاسيسه. كان كلاهما يعملان كثيرا. كانت البلغات المطرزة تلقى نجاحا كبيرا لدى نساء فاس. كان لإنتاج مولاي العربي و عامله سمعة جيدة. فكر عبد القادر في الزواج. شجعه مولاي العربي على هذا القرار و وجدت له لالة عيشة شابة تستحق المديح. لازالت الأعراس تكلف الكثير. رغم الليالي التي سهرها، لم يتمكن عبد القادر من الادخار. لقد كان محرجا عندما تطلب الأمر دفع مهر لخطيبته. لجأ لرئيسه. تمكن مولاي العربي من جمع ثمانين **ريال**. أودعها له بنية صافية. لقد ارتكب خطأ تسبيق هذه النقود له دون كتابة وثيقة الاعتراف بالدين. ليساعد عبد القادر على ربح المزيد جعله شريكا له في عمله.

- هل تعرف كيف شكره ابن الحرام هذا على أفضاله؟

لم يكن أبي يعرف.

على أية حال، لم تدع له أمي الوقت للإجابة. تابعت بهذه الكلمات:

- لا! لن تخمن أبدا! الناس عديمو الحياء، البائسون سيئو النوايا، أولئك الذين يغضبون الله و رسوله بأفعالهم الوضيعة سيلقون جزاء أفعالهم السيئة في يوم الحساب. أنكر عبد القادر، لم يكتفي بالإنكار فقط، بل ادعى بأنه دفع نصف رأس مال عمل مولاي العربي لشراء العدة، الجلد و الخيوط الذهبية. لم يكن الباشا مطلعا على جميع تفاصيل القصة. لم يقبل أية رواية من كلا الطرفين. كان أحد حراس الباشا مكلفا بإجراء التحقيق، لكنه اكتفى بالحديث مع الخصمين. لقد طلب منهما مبلغا خياليا من أجل الوقت الذي ضيعه، يقول: للصلح بينهما. رضخا للأمر. تم عرض القضية على قاضي

Scanned by CamScanner

التجار. أرسل هو الآخر معهما أحد حراسه الذي طلب منهما أن يعرضا عليه الأحداث، لكنهما رفضا. قالا: « يمكن فقط لمتخصصي المجلس أن يفهموا موضوع النزاع »، اجتمع المتخصصون، تحدثوا حتى المساء. في آخر المطاف، حكموا لصالح عبد القادر. يالله من زمن! لم تعد هناك عدالة! ستقول لي: ليس خطأ هؤلاء القضاة إطلاقا، من الصعب معرفة جذور و نتائج قضية كهذه. كيف للمرء أن يحكم على قضية لا يعرف كل معطياتها؟ أعرف، إن العالم هكذا، يلزم قضاة و نصابون ليوفروا لهم العمل. إن الناس الشرفاء هم الضحايا دائما.

تدخل أبي:

- ليس دائما! يرتكب القضاة الأخطاء أحيانا. حتى و إن كانوا قضاة، فهم يظلون بشرا، يعني أنهم معرضون للخطأ. الله وحده من لا يخطئ أبدا.

- قالت أمي: لا حول و لا قوة إلا بالله، وحده، لا شريك له، ثم أضافت:

- لقد ضايقنا كل هذا في الأخير. لقد بكت لالة عيشة، في المساء، كانت تعاني من صداع عنيف.

تبع صمت هذه الخاتمة.

كنت أسمع حبات المسبحة التي كان أبي يضغطها بأصابعه الطويلة. كانت رحمة تضرب فوق خبزها لترى إن كان قد تخمر. كانت زينب تلعب مع القط، قط أسود، زَمِنٌ، كانت الأسرة قد تبنته لترضي نزوة ابنتها. كنت أسمع ما تحكيه له. كان الأمر يتعلق بإطعامه عسلا و زبدة، حلويات محشوة، لوزا و أفخاد دجاج؛ كان الرضيع الكبير سيحظى بسلهام مخملي و يلبس عمامة من الحرير.

خرقاء كبيرة! منذ متى كانت القطط مولعة بالعسل؟ سيكون قط بعمامة من الحرير أسخف شيء في العالم. لم تكن بنت بمثل غباء زينب لتجد شيئا أكثر تسلية في رأسها الفارغ. لم تكن تعرف اللعب في نظري. كانت إذن مسكينة للغاية و محتقرة. أنا، كان لدي كنوز مخبأة في علبة العجائب خاصتي. كنت الوحيد الذي يعرفها. كنت أستطيع الهرب من عالم الإكراهات هذا الذي يعج بالباشوات، بقضاة التجار، بالحراس المستأجرين و ألتجأ إلى مملكتي التي كان كل شيء فيها في وئام، أناشيد و موسيقى. كان رفاقي عبارة عن أبطال و أمراء عادلين. لسماع آخر إنجازاتهم، كنت أنوي الذهاب للإنصات لعبد الله، البقال، عدا عن ذلك، لم يسبق لي أن

Scanned by CamScanner

رأيت عبد الله، لكنه كان يحتل مكانا مهما في عالمي. كل القصص الرائعة التي كانت لي فرصة سماعها، كنت أنسبها له. لكن عبد الله كان له وجود. خصص أبي، الذي لم يكن يتكلم كثيرا، أمسية كاملة ليحدث أمي عن عبد الله و عن قصصه. أثارت قصة أبي خيالي، أسرتني طيلة طفولتي.
كان فصل الشتاء، كان الريح يصفق باب السطح و يصفر في الدرج. كنت أضع رأسي على ركبتي أبي. كنت أسمع. كان يتكلم ببطء، بصوته الخشن، هاهي قصته:
" يعرف عبد الله العديد من القصص. نادرا ما تكون القصص التي يحكي ممتعة. تنتهي بشكل مفاجئ، دون البحث عن مؤثرات و لا نهاية واضحة. يشبه عبد الله قصصه بشكل غريب، إن بداخله شعرا و غموضا. لديه متجر في حفارين، في ذلك الزقاق البارد جدا في الصيف و الخالي في جميع فصول السنة.
" يبيع عبد الله جميع أنواع الأشياء المغبرة، الباهتة، معلقة بالمقلوب على رفوف ليست أقل اغبرارا، ليست أقل بهتا. لديه قليل من الزبائن، لكن كثير من الأصدقاء. من الصباح إلى المساء، يأرجح عبد الله منشته، متربعا على جلد خروف أكله العث.
إنه يسكن في الحي منذ زمن بعيد. كان رأسماله يتمثل في عسوين، عشرة وسائد من ثلاثة أحجام مختلفة، حزمة خيوط و بعض علب التنك التي يفترض أن بها توابلا.
منذ ذلك الحين، ابيضت لحيته و تقلص حجم العسوان، لايزال هناك ثلثا الوسائد، أما بخصوص الخيط و التوابل، فلم تسنح أي فرصة باستعمالها.
لقد حكى قصصا، منذ وصوله! لا يكرر عبد الله نفس القصة و يبدو كأنه يعرف عددا لا يحصى. يحكي منها للأطفال، للناس الكبار، للحضريين و للقرويين، للذين يعرفونه كما لزوار يوم واحد.
أحيانا، تدوم قصص عبد الله ربع ساعة و أحيانا أخرى صبيحة كاملة. يحكيها بدون ابتسامة، بإيقاع منشته الاحتفالي. يروي بدون توقف، دون أن يشرب أو يتنحنح، دون تحريك يديه، أو شغل أصابعه.
لم تكن أي واحدة من عبارات البركة الغالية على القصاصين العرب تزين قصته. يحكي معارك غريبة، قصص حب بريء مذهلة، أسفارا مشوقة في

Scanned by CamScanner

بلدان خرافية أو بكل بساطة شجار حانوتي مع جاره، ليلة بائس في العراء، طعام متسول.
« البعض يحبونه، البعض الآخر يكرهونه لكن لا يخبرونه بذلك، لكن الجميع يستمعون له و هم مفتونون.
« يبدو عبد الله لا مباليا؛ لم يكن حب البعض، و لا كره الآخرين يخرجه عن لا مبالاته. يقول الأصدقاء، عبد الله الحكيم، عبد الله الشاعر و أيضا عبد الله العراف. يصفه أعداؤه بالكاذب، بالمنافق و أحيانا بالساحر. ماذا يكون إذن؟
« إنه بقال يحكي قصصا.
« طلب أحد الوجهاء سيئي النوايا من زعيم الحي أن يذهب لسماع قصص عبد الله لأنه اكتشف فيها تلميحات و انتقادات تمس المخزن المحترم.
على العكس، أكد واحد آخر بأن المخزن يدفع لهذا البقال عديم البقالة ليخبل الشعب و يمنعه من التدخل في شؤون الحكومة.
« كان عبد الله يرد على كل هذا بقصص. أصبح زعيم الحي من مستمعيه المواظبين و كان يقدر علمه أو ما كان يدعوه بهذا؛ يدعي عبد الله بأنه لا يعلم شيئا، لأنه يقول: لا يجب على العلماء الحقيقيين أن يحكوا القصص، بل أن يقولوا الحقيقة، أن يقولوها و يكتبوها.
« في يوم من الأيام، أخذ أحد العلماء الذين كرسوا حياتهم لعمل بالغ الأهمية جميع أوراق كتبه و وضعها على سقف الكعبة، بيت الله. بعد مرور عام، كانت الأوراق لاتزال في مكانها، دون أثر مطر، دون مس من عوامل خارجية، كان الحبر يمتد طريا على الورق الأبيض. لم يطبع كتابه إلا بعد هذه التجربة العظيمة. لقد كان معه حق ألف مرة: لا يمكن لشيء أن يدمر، يمسح أو يتلف الحقيقة.
« و كان عبد الله يضيف:
« - لست عالما، تدخل قصصي من أذن و تخرج من أخرى.
« هل هذا صحيح تماما؟ هل كان بدون استثناء على وجه الخصوص؟ بالتأكيد لا.
« كانت قصص عبد الله تلقى مصير كل القصص التي يتناقلها البشر على مر العصور. يضحك عليها هؤلاء، و يبكي عليها أولئك؛ إن هؤلاء حساسون تجاه شكلهم الخارجي، و أولئك يعرفون تأويل الإشارات.

Scanned by CamScanner

يحكي عبد الله قصة للأطفال. قال له أحدهم:
« - لقد قرأت أجمل منها في كتاب القراءة خاصتي.
« - أجاب عبد الله: هذا ممكن جدا، إلا أن القصة التي قرأتها توجد في كتاب. جميع أصدقائك يملكون هذا الكتاب، و يستطيعون قراءتها. لكن تلك التي حكيتها لك لا توجد إلا في كتاب واحد، إنه هذا... و أشار إلى قلبه.
« يغلق عبد الله دكانه كل مساء و يذهب بخطى صغيرة. يجهل جميع سكان الحي محل إقامته. لكن هناك سي عبد النبي، أحد النمامين، الذي يؤكد بأنه رآه يدخل إلى **فندوق** حقير.
« على العكس، يحكي الحبيب، الذي تبعه، مغامرته الغريبة بهذه الكلمات:
« - إن سيدنا عبد الله هو من أولياء الله. لقد تبعته، فليسامحني الله، إلى غاية صفاح، على الضفة الأخرى لواد فاس. في أحد الأزقة، كان يوجد باب إحدى **الزاويات بزليج** أخضر. دخل إليها و، بعد دقيقة، تبعته إليها. بحثت عنه دون جدوى. كانت **الزاوية** مهجورة، أطلقت **تكبيرا** طويلا ثم أغمي علي. لم أعد أستمع لما يقوله الجهلة الآن، لأنني أعلم، أجل، أعلم بأن أولياء الله لديهم مساكن خفية.
« ربما كان الحبيب على صواب. أجاب عبد النبي الذي كان حاضرا:
« - لقد أفرط الحبيب في الاستماع لقصص عبد الله، و قد أثر هذا على عقله. إن الله هو العالم الوحيد: إن أفعال عبد الله لا تشبه ما يقوم به مسلم حقيقي. هل سبق و أن رأيتموه يصلي؟ هل يترك محله في أوقات الطعام؟ هل يحترم يوم الجمعة؟ هل يقول أي كلمة تقية؟ إنه مفسد، شيطان بعمامة، عفريت بلحية بيضاء يعيش في الأكاذيب مثل الخنزير في الوحل.
« احمر الحبيب، الذي كان ذا طبيعة هادئة في العادة، من السخط و هتف:
« - يجب عليه إذن أن يشبهك ليستحق لقب المسلم؟ أنت تصلي، نحن نشهد على ذلك، تترك محلك في أوقات الطعام؛ تحترم يوم الجمعة و أحاديثك تزينها الاستشهادات القرآنية و **الحديث**. نحن نشهد على كل هذا. لكن يقطر من فمك دائما سم النميمة، نتانات الافتراء، رائحة الموت و براعم دمار أخرى. لست الشيطان حتى لأنه لا واحدة من أعمالك تحمل بصمة عظمة ما. أنت جرذ مجاري على الأكثر، لكنه تدحرج جيدا في الدقيق الأبيض الجيد. يعتقد بأن الدقيق سيجعله نقيا بينما يكفي أن يلمسه ليصبح متسخا.

Scanned by CamScanner

قفز عبد النبي ليضربه؛ أمسكه الحبيب، الذي يعمل حدادا، من معصميه و تابع وعظه دون أن يتأثر:

« - أرأيت؟ دائما ما يلجأ الضعفاء إلى العنف، إن ذراعاي تمارسان الحديد و لا تخشيان النار؛ زيادة على هذا، لن أستعملهما لسحق الصراصير من أمثالك. أنا لا أدافع عن عبد الله البقال، أحاول فقط أن أنير جهلك، أنت، من تدعي بأنك تعرف الكثير! لكن لديك جمجمة كبيرة و روح محنطة. أنت جثة و لا أحب لمس الجيفة.

ألقى الحبيب بعبد النبي في اتجاه الحائط و رحل. صام أكثر من أسبوع ليتطهر من غضبه.

« تم إخبار عبد الله بما حدث، في البداية بقي صامتا، مأرجحا منشته بحركة احتفالية، ثم حكى قصة. »

Scanned by CamScanner

الفصل 5

لم يسبق لي أن رأيت معلم **المسيد** سعيدا مثل هذا الأربعاء. لم يتلقى أي تلميذ ضربات العصا. كانت عصا السفرجل تصير أداة نزوات، واحدة من تلك الأشياء عديمة الفائدة التي يُمسَك بها لشغل الأصابع.

كنت أتلو درسي كما هي العادة. هنأني المعلم:

- قال لي: هذا جيد، يا بني، ستكون، إن شاء الله **طالبا** ساعيا في طلب العلم. فليفتح لك الله أبواب العلم!

قبل الذهاب للغداء، أشار لنا **الفقيه** بالسكوت. في الصمت التام، تكلم لنا عن عاشوراء، حفل رأس السنة. كان يجب علينا الاحتفال بها بشكل لائق كما العادة. سيكون **مسيدنا** مُنارا ابتداء من منتصف الليل. سيأتي كل التلاميذ لافتتاح السنة الجديدة بالفرح و الاجتهاد. كان أمامنا خمسة عشر يوما لتحضير الحفل. كان يجب على كل واحد إحضار سعة زبدية من زيت الزيتون لإشعال القناديل، سيتم تبييض المدرسة بالجير، تغيير الحصائر القديمة بأخرى جديدة. نصحنا **الفقيه** بإخبار والدينا عن هذه الترتيبات. كان يعتمد على كرمهم.

في الأخير، بفرح كبير، حصلنا على إجازة لبقية اليوم. يا للسعادة! جريت إلى البيت لأخبر أمي بالأمر. أخبرتني فاطمة بزيوية بأنها لم تكن موجودة. لقد أتت صديقتها لالة عيشة لاصطحابها منذ ساعة تقريبا. تحولت فرحتي إلى تخوف، و سرعان ما صارت قلقا. كان لهذه الخرجة علاقة ما بقضية مولاي العربي زوج لالة عيشة من دون شك. ربما نشب نزاع جديد بينه و بين هذا الشيطان عبد القادر، ابن لا أعرف من؟ ألم يحبس في سجن مظلم؟ كان يبدو أن للباشا، القاضي و رجالهم علاقة بالأمر.

كانت أمي قد تركت المفتاح على باب الغرفة. دخلت، لم تعد الأشياء تعرفني، كانت تبدي لي وجها عدائيا. تسلّت بإرعابي، كانت تتحول لوحوش، ثم تعود أشياء مألوفة من جديد، تستعير أقنعة جديدة من وحوش الكتاب المقدس. كنت جالسا على فراش، فزعا، بحلق جاف، منتظرا عودة أمي، الشخص الوحيد القادر على تحريري من هذه الأسحار. كنت جامدا خوفا من إثارة عداوة الكائنات التي كانت تراقبني خلف كل شيء. مرت قرون. سمعت خطوات أمي البطيئة من الطابق السفلي. سمعتها تسعل.

Scanned by CamScanner

استعادت الحجرة مظهرها اليومي. أضاء شعاع شمس فسيفساءنا الباهت الألوان.
توقفت أمي اللهثانة في البسطة، أسرعت للقائها. كانت فاطمة بزيوية تقشر أسماكا صغيرة منحوتة كالحلي. وضعت سكينها، رفعت يديها على نحو غامض، تنشفت بفوطة كانت تلبسها عوضا عن مئزر و دون أن تطرح أية أسئلة انتظرت من أمي أن تكشف لها عن سبب غيابها.
بشكل غامض، جعلتها أمي تعدها بالسرية التامة. بعدها، بدأت تهمس خطابا طويلا من الفم إلى الأذن، مصحوبا بإيمائات، حركات كبيرة بالذراعين، مرفوقة بتنهدات، ممثلة بهزات رأس.
كانت فاطمة تنصت بجسم يشمله التوتر، كانت عيناها تتابعان كل حركة، كانت أصابعها تطلق حركات قصيرة لاشعوريا. كانت ترد على تنهدات أمي بتنهدات، على هزات الرأس بهزات رأس. توقفت القصة للحظة. كانت فاطمة و هي تضع يدها اليمنى على خدها و يدها اليسرى على قلبها تردد:
- الله! الله! الله!
- كانت أمي تقول: أجل، كل هذا يفطر القلب و لا يمكن أن يدع روح مسلم حنونة بدون مبالاة. ما حصل للالة عيشة لا يمكن للمرء تمنيه لعدوه اللدود، لكن يجب على المؤمن أن يحمد الله، حتى في الشقاء.
أدركت وجودي أخيرا. دعتني لألحق بها. تخلصت من **حايكها**، نزعت أحذيتها المصنوعة من جلد الخروف الأسود.
- قالت لي: سأقدم لك الطعام، لا بد من أنك تتضور جوعا.
أخرجت من مستودع المؤونة جرة مورنشة بسمرة حمراء، أدخلت فيها مرفقها بأكمله و انتهت بإخراج قدة لحم محفوظة. كنت أحب اللحم المحفوظ. قدمت لي في طبق قطعا كبيرة بحجم الإبهام تسبح في مرق لذيذ كانت قد سخنته بعناية. كان الخبز طريا و معطرا باليانسون. أكلت لوحدي. اختفت أمي. كنت أعرف بأنها في مكان ما تهمس لرحمة، مستأجرة الطابق الأول، بالقصة الجديدة للالة عيشة بعد أن تعدها بحفظ السر. كنت أعلم كذلك بأنه ما علي إلا الانتظار. سألتقط كلمة هنا و أخرى هناك ثم سأعرف ما الأمر. أنهيت طعامي في عجلة. ذهبت لألتحق بأمي على السطح الذي كانت رحمة فيه بالفعل جالسة في الظل على جلد

Scanned by CamScanner

خروف و تمشط شعرها. كانت قد أوقفت ذلك العمل للاستماع. كان شعرها الأسود المدهون بزيت الزيتون ينسدل على كتفيها. كانت أمي تقول:

- لقد باعت المرأة المسكينة كل شيء. حتى الجرذان لم تجد ما تسد به رمقها.

- سألت رحمة: و النقود؟

سارعت أمي بإخبارها.

- ستستعمل النقود لشراء العدة لمولاي العربي و لتأمين المصاريف الأولى لتجهيز ورشته الجديدة.

هزت رحمة رأسها لتبين بأنها قد فهمت بشكل تام. كانت توافق:

- هذا جيد جدا! جيد جدا!

لإحساسها بالتشجيع، كانت أمي تشرح:

- لم تكن لالة عيشة، **شريفة** من الدار الكبيرة، لتسمح بانحدار زوجها في عيون مجلس بائعي البُلغات و يتحول من رئيس إلى موظف بسيط. يواجه المؤمن العديد من العقبات في هذا العالم، المهم بالنسبة له هو تخطي جميع الصعوبات دون التمرد على خالقه. إن مولاي العربي رجل كريم و يستحق أن تتخلى امرأة بمشاعر نبيلة عن مجوهراتها و عقارها لكي لا يفقد ماء وجهه أمام أقرانه. تقوم لالة عيشة بعمل حسن. سيعيده الله لها أضعافا مضاعفة، يوم لا ينفع الابن أباه، يوم لا يقدر الأب على تخليص أطفاله من حساب القاضي الأعلى. ستوزن فقط أفعالنا الحسنة و السيئة في الميزان. ضعيفات و هزيلات كما نحن، لا نستطيع الاعتماد إلا على رحمة الله القدير.

رددت رحمة بعدها:

- تبارك و تعالى! لا إلاه إلا هو.

عم الصمت. تابعت رحمة مشط شعرها بمشط القرن. وقفت أمي، أطلقت تنهدا طويلا، قالت في الأخير:

- بذلت وسعي لمساعدة لالة عيشة في مساعيها، أحس الآن بأنني حزينة و متعبة.

توجهت أنا و أمي إلى الدرج.

Scanned by CamScanner

مزقت أصوات و صرخات الجو. اشتدت عاصفة البكاء و الصياح. كان الصوت قادما من المنزل المجاور. أعدنا الصعود جريا. بعد المفاجئة، انهمرت الأسئلة من كل مكان:

- من الذي مات؟ من الذي مات؟

كانت مجموعات من النساء قد تشكلت فوق الجدران التي تشرف على سطحنا و على السطح الذي جاءت منه أصوات اليأس. كن يثرثرن، يشرحن، يلوحن، يمددن أعناقهن لسماع أصوات جديدة. كان يسمع وسط الضجة صوت أكثر حدة ينتحب. كانت النساء تأتين من السطوح البعيدة، تقفزن من فوق جدران الفصل، تقمن بألعاب بهلوانية باستعمال سلم قصير. كانت بعضهن تجلسن مفرشخات على الجدار و أخريات يتركن سيقانهن تتدلى. كانت زنجية عجوز لم أكن أرى إلا رأسها و ذراعيها المكشوفين و اللذين كان لهما لون أسود براق، تحرك يديها اللتين كان لونهما الوردي يفتنني؛ أجبرت النساء على الصمت.

- رددت العبدة العجوز عدة مرات: أعرف من مات، سيدي محمد بن الطاهر، الحلاق. كان مريضا منذ شهرين.

- سألت امرأة شابة كانت تلبس منديلا أصفر على رأسها: بماذا مات؟

- أجابت الزنجية: الله وحده يعلم، لكن إن سيدي محمد بن الطاهر، الحلاق، هو من مات حقا.

بقيت النساء صامتات. اختفى رأس الزنجية. توقفت الأيدي للحظة على حافة الحائط، ثم اختفت بدورها.

كان جميع من في الحي يعرفون سيدي محمد بن الطاهر، الحلاق. كان يلبس الأبيض، كانت لديه لحية خفيفة و تعلو شفتيه ابتسامة دائمة. كان يتسوق بنفسه و سبق و أن التقيت به عدة مرات في زقاقنا و هو يحمل قفة من الحلفاء؛ كانت تبرز منها خضر الفصل، أحيانا قطعة لحم وردية، بصل أو ثوم.

كانت الصرخات قد هدأت، كانت الضجة قد تحولت إلى نحيب متواصل بنبرة خفيضة، ما يشبه غناء مستسلما لإيقاع ساذج.

نزلت أمي إلى الغرفة، صعدت ثانية، برأس ملفوف بغطاء خفيف. قالت لرحمة:

- سأمر من فوق الجدار، سيفيدني الذهاب للبكاء قليلا.

Scanned by CamScanner

- قلت لها: **مي**، خذيني معك، أنا كذلك أريد البكاء قليلا.
- قالت أمي بحزم: لا، لازلت صغيرا ثم إنك ولد. بعد قليل، سيأتي مقرئو القرآن ليجودوا و ستستطيع الالتحاق بهم.
- أصريت: أريد البكاء! أريد البكاء!
- خذ و ابك بجدية.
كانت هذه الجملة مصحوبة بصفعة قوية.
بدأت بالبكاء، تدخلت رحمة لصالحي. انتهت بإقناع أمي باصطحابي. ساعدتني المرأتان على تخطي الجدار المشترك. كنت قد توقفت عن البكاء. كنت أقفز الدرجات أربعة بأربعة لألتحق بالباكيات في الطابق السفلي.
لقد كن عشرين واحدة تعبرن عن ألمهن بصخب. على الأرض، كان هناك فرش و حصائر. كانت باكيات أخريات تأتين، تطلقن أصوات حادة منذ المدخل. كانت أولئك اللواتي كن في البيت مسبقا يُجِبْنَهن بصرخات أخرى. كانت زوجة الحلاق تنتحب بصوت مبحوح وتهوي بضربات قوية بيد مبسوطة على خديها و فخديها. كان المنظر يفتنني لدرجة أنني نسيت هدف زيارتي. كنت قد أتيت للبكاء و لم أكن أبكي. كنت أحاول أن أفهم ما كانت تقوله امرأة عجوز شعثاء. كانت تخفض رأسها حتى الأرض، تعيد رفعه، تغني و هي تمدد النهايات:

لقد كنت عماد المنزل
لقد كنت شمسيتي و درعي
لقد كنت الفارس الشجاع
سيصير المنزل مظلما بدونك
بدونك، ستصبح الشمس باردة،
بدونك، لم يعد لدي عينان لأرى بهما.
لن تستطيع عيناي التوقف عن البكاء بعد الآن
ستبكي عيناي دموع دم.
ستجف عيناي و سأضيع في الظلمات.

بقيت امرأة شابة غريبة عن البيت مغلفة **بحايكها**. كانت تردد بجميع النبرات:

يا أمي! يا أمي المسكينة

Scanned by CamScanner

يا أمي! كنت أحبك أكثر من أي شيء في العالم،
كانت بعضهن تفقن دون قول شيء و أخريات تدعين الأولياء، تخاطبن الله و رسوله بأدعية ورعة. في ركن ما، كان هناك أطفال يبكون. اقتربت منهم.
وجدت زينب هناك، كانت تحاول عبثا أن تفعل مثل الآخرين، تفرك عينيها، لكن لم تكن أي دمعة تسيل. كانتا دائما جافتين و لامعتين هكذا عندما كانت تتسبب لي ببعض المتاعب. نظرت إليها للحظة وبحركة سريعة و غير متوقعة، باغتها بلكمة على الأنف. غلب صراخها على الجلبة. هربت إلى السطح.
كانت أمي قد غابت عن ناظري. كنت أعلم بأنها تنتحب و تصرخ براحتها، دون الاكتراث بجاراتها.
قدّم المقرئون أنفسهم عند باب البيت. لجأت النساء إلى الطابق الأول. كن يتابعن البكاء بصمت بينما كان المجودون يباشرون حزبا طويلا.
أخيرا، صعدت أمي من جديد، أخذتني من يدي و ساعدتني لأتجاوز جدار الفصل.
ذهبنا إلى غرفتنا.
أتت فاطمة بزيوية لتسأل عن حال زوجة الحلاق. من كانت النساء اللواتي كن يبكين؟ هل كانت أم الحلاق ما تزال حية؟
تكلمت أمي عن ألم زوجة الحلاق، ذكرت أسماء بعض الحاضرات، اعترفت بأنها كانت تجهل إن كانت أم الحلاق ما تزال حية.
اشتركت لالة كنزة، **الشوافة**، من طابقها الأرضي، في الحديث. خرج الجميع من هذا الحادث بهذا الاستنتاج الفلسفي للغاية: كل الكائنات فانية؛ عاجلا أم آجلا سيأتي دورنا.
كان طنين المقرئين يصلنا عبر الجدران. من وقت لآخر، كانت نساء الحلاق تُطْلِقن صرخة طويلة. كانت كل واحدة من هذه الصرخات تنتزع تنهدا قويا من أمي. لم أكن أجرؤ على اللعب. هل كان من اللائق أن أخرج تحفي في اليوم الذي كان فيه سيدي محمد بن الطاهر الحلاق، شخصية مهمة في زقاقنا، يفارق والديه، أصدقاءه و زبائنه إلى الأبد؟
بعد قليل، بعد الغسل الاعتيادي، سيتم تلبيسه بالأبيض لآخر مرة. سيحمله رجال على رؤوسهم في نقالة مريحة من خشب الأرز و سيذهبون لطمره

Scanned by CamScanner

في الأرض المبللة. ستقفل الأرض إلى الأبد على سيدي محمد بن الطاهر، الحلاق، كنت أحلم بكل هذا، متكئا على درابزين نافذتنا. غمرني حزن كبير. تمكن التعب من أعضائي. طلبت من أمي الإذن للتمدد على السرير الكبير. وافقت. ارتميت عليه و تابعت التفكير في دفن الحلاق. كنت أراه، ملفوفا بدقة في قماشه القطني الأبيض، صلبا على نقالته المغطاة بسقف، يسافر على بحر من الرؤوس المعممة، وسط احتفال من الابتهالات و الأدعية. سبق و أن رأيت مواكب دفن تمر في الشارع. أحيانا، كان الرجال يمشون ببطء و وقار و يرددون تراتيل بأصوات عميقة مثل الهاوية، أحيانا، يكونون قليلين جدا و يحثون الخطى. كانوا يكتفون بترديد كلمة التوحيد بنشاز: **الشهادة** (لا إلاه إلا الله و محمد رسول الله). لقد رأيت موتى مكشوفين حتى، موضوعين على النقالة ببساطة دون شخص لمرافقتهم إلى مثواهم الأخير. لقد بدا لي ذلك محزنا للغاية.

وجد أبي، الذي أخبرته بانطباعي، هذه القصة لمواساتي:

في سوق يتردد عليه الناس كثيرا، كان سيدي... (لقد نسيت اسمه) يملك دكانا، كان رجلا تقيا، شريفا و مؤدبا مع الجميع. في كل مرة يعبر موكب دفن السوق، كان هذا الشخص الطاهر يتناول بلغته، يلبسها سريعا، و يرافق الميت حتى المقبرة. ذات يوم، حدث و أن مر دافنان حاملين نقالة كان يرقد فيها متسول لم يكن يرافقه أحد. نهض الرجل، تناول بلغته من أعلى الرف الذي كان يضعها فيه كل يوم، لكنه بقي واقفا دون أن يلبسها. انتهى بإعادتها إلى مكانها. قال أصحاب الدكاكين بأن تصرفه لم يكن إنسانيا.

- قالوا: لا يرافق إلا مواكب دفن الأغنياء.

أعلن سيدي... الذي سمع تهامسهم:

- هل أنتم مؤمنون؟ إذن، اسمعوا لماذا لم أرافق ذلك الأخ إلى غاية قبره. عندما تناولت بلغتي، كنت أنوي فعل ذلك، لكنني رأيت وراء النقالة حشدا كبيرا من كائنات فائقة الجمال. لقد كانت ملائكة الجنة. أنا، مجرد آثم، لم أتجرأ مطلقا على الاختلاط بمخلوقات النور هذه. كان عبد لله ينتقل إلى رحمة خالقه. كنت سعيدا لمعرفة ذلك و جلست ثانية بين توابلي.

في كل مرة كنت أرى فيها دافنين حاملين جثة وحيدة، كنت أردد معهما:

إن الله معك، يا أيها الغريب، على هذه الأرض!

Scanned by CamScanner

كنت أضيف كذلك في ذهني: « هو كذلك يلتحق بقبره برفقة حشد من الملائكة فائقة الجمال. » كنت سعيدا جدا لذلك.
عادت الأصوات و الصرخات بشدة متزايدة. كانوا يخترقون الجدار، يتكسرون مثل صوت الأمواج أو هيجان العاصفة.
تركت نساء البيت أعمالها. بدأن بالبكاء، بالنحيب إلى جانب مواقدهن و طناجرهن.
لقد كان الجسم يغادر البيت على الأرجح. كانت لحظة مؤسفة. كنت لا أزال أسمع ضجة المجودين. اختبأت الشمس وراء سحابة، عصف ألم كبير بالأرض. انفجرت بالبكاء. نسيت أمي الحلاق و دفنه و أسرعت و هي مرعوبة لتسألني عن سبب بكائي. كانت تستجوبني و هي قلقة.
- ما الذي يؤلمك؟ هل لسعتك حشرة؟ هل تشعر بمغص؟
كنت أتنفس جيدا، لم أكن أجيب. دامت النوبة مدة طويلة. امتنعت عن الأكل. كانت أمي قد طبخت عدسا بالطماطم و البصل. كنت أحبها عادة، لكن لم أكن أريد أن آكلها. بقيت ممددا على السرير. غطتني أمي بغطاء من الصوف الحريري مزين في أطرافه بشرائط حمر.
غفوت حتى عودة أبي، في وقت متأخر من المساء. وافقت على شرب كأس حليب و غطست ثانية تحت الغطاء.
لقد بدا أبي مشغول البال بشأني. لمس صدغَيَّ عدة مرات، أمسك يدي، رتب غطائي بحركات ضبط. كنت أرى شفتيه تتحركان. كنت أعلم أنه يتلو بعض الأدعية أو الآيات ذات القدرة الشفائية.
كنت أفكر: « ربما سأموت، أنا أيضا، ربما سيكون وراء تابوتي ملائكة جميلون مثل ضوء النهار!
كنت أتخيل الموكب: بعض الأشخاص من الحي، **فقيه** الكتاب القرآني، أبي، أكثر جدية من أي وقت و ملائكة، آلاف الملائكة يلبسون حريرا أبيضا. في البيت، كانت أمي لتطلق صرخات تمزق الحلق، كانت لتبكي ليلا و نهارا. كانت لتنتظر أبي لوحدها في المساء.
لا! لم أكن أريد الموت!
- كنت أصرخ جالسا في سريري: لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموت!
رميت الغطاء و وقفت، صحت بهذه الجملة بكامل قوة رئتي. أعادني أبي للنوم بدد مخاوفي بكلمات مطمئنة. كانت أمي تردد بعينين منتفختين:

Scanned by CamScanner

- صغيري! صغيري!
هدأت. بدأت أذناي بالصفير. كنت أسمع ، خلال خرير الماء هذا، أمي و هي تروي أحداث النهار. موت سيدي محمد بن الطاهر، الحلاق، متاعب لالة عيشة، بيع مجوهراتها و عقارها. كانت تقول بأن سيدي العربي العلوي سيجهز ورشة جديدة و يستأنف العمل. كانت تمدح كرم و شجاعة لالة عيشة، تلعن المنافقين، النصابين، الناس بدون دين و لا ملة مثل عبد القادر هذا، ابن لا أعلم من.
خلال هذا الوقت، بين أهداب رموشي، كنت أرى ملائكة جملاء تنزل من السقف، أميز ريش أجنحتهم بلون الفضة. وضع أحدهم علبة العجائب خاصتي على سريري. كبرت بشكل مبالغ فيه، اتخذت شكل تابوت. دخلت إليها بفرح. أغلق الغطاء. كانت تسود في العلبة برودة ورود و أزهار أشجار البرتقال. حملت العلبة إلى ما وراء السحب و قصور الزمرد. كانت جميع الطيور تغرد. وجدت الدوريين اللذين كانا يوقظانني كل صباح؟ كانا يتحدثان مثل العادة:

- أحب التين المجفف.
- لماذا تحب التين المجفف؟
- يحب الجميع التين المجفف.
- أجل! أجل! أجل!
- يحب الجميع التين المجفف.
- التين المجفف!
- التين المجفف!
- التين المجفف!

أجبرني شعور بالاحتراق في جفني على فتح عيني. كان هناك شعاع شمس يدخل من النافذة. كان ينزل مباشرة على وجهي. كان الدوريان يتكلمان عن مزايا التين المجفف.
- قالت لي أمي بابتسامة عريضة: فليكن صباحك مباركا يا صغيري، هل تحسنت الآن؛ كنت تعاني البارحة من بعض الحمى. عدني اليوم بأن تكون عاقلا جدا. لن تذهب إلى الكُتاب.
- قلت لها: أنا لست مريضا.

Scanned by CamScanner

- أعرف! أعرف! إلعب بهدوء في ركنك. كل هذه الفطيرة، إنها ساخنة جدا.
أخذت الفطيرة.
نادى إدريس الفظ من الطابق الأرضي. لقد جاء محضرا مؤونة اليوم.
نزلت أمي لإحضارها. سمعت فاطمة بزيوية تقول:
- الخبازى منذ الآن! إنها طرية جدا.
أجابت أمي بجملة لم أفهمها. دخلت إلى مطبخها، خشخشت دلاء، حركت منفخها، دقت توابلها داخل مهرسها النحاسي.
في الطابق الأول، كانت رحمة تنشغل في البسطة. كانت تشعل النار كذلك و تدق توابلا. كان هناك من يدندن. سمع صوت منفخنا القديم من جديد. لقد كان متعبا و لم يكن يعرف ما يقول إلا هذه الكلمات:
ذباب!
ذباب!
ذباب!
كان الخاص برحمة يُنَوِّعُ سجله. كان يستمتع أحيانا بترديد:
أشعر بالحر!
أشعر بالحر!
أشعر بالحر!
أو ربما:
إنني أتألم!
إنني أتألم!
إنني أتألم!
توقفت عن الاستماع إلى المنافيخ. قدمت أصوات جديدة لتسليني. كانت انفجارات شرارات تتدحرج مثل البلي التي كانت تنتشر على أرض الفسيفساء. كانت فاطمة بزيوية تندف صوفها. كانت جمل محموسة تصعد من الطابق الأرضي، كانت لالة كنزة تتحدث إلى زبونة. عكَّرت موجة من الضحك الجو. كانت قصيرة و بدون نتائج. هدلت حمامة على السطح. كانت تقول كلمات جميلة جدا لدرجة أنني ابتسمت للملائكة. رأيت على عارضة خشبية ذبابتين تلاحقان بعضهما، تتوقفان بدون سبب ثم تتابعن سباقهما نحو المغامرة. كان هناك من دق المقرعة عند باب المنزل.

Scanned by CamScanner

- سألت عدة أصوات: من هناك؟
أيا كان، لم تكن لدي أدنى رغبة في أن أعرف.
كان هناك صوت ضعيف يصلني من السماء، غناء رفيع و ضعيف مثل خيط العنكبوت. كان **المودن** يؤذن للصلاة. كانت عبارة: الله أكبر! تصلني بموجات عريضة من صومعة بعيدة.
كان الصوت يموت، يذوب في زرقة السماء، يعود من جديد، يظهر بقوة معينة، يختفي من جديد في جو الربيع.
سقطة طنانة كبيرة ذات سواد معدني عبر الفتحة التي كانت تغلب على الفناء، صفقت الجدار و ارتمت بعنف عبر نافذة غرفتنا على زجاج قنديل الزيت. رن الزجاج لكنه قاوم الصدمة. خرجت الحشرة بنفس العجلة التي دخلت بها. فتنتني هذه الزيارة. بدأت بالضحك و التصفيق.
راقبت أصوات المنزل لمزيد من الوقت، لكنني مللت من هذه اللعبة. عادت أمي لرؤيتي، ابتسمت لي و لكونها راضية بدون شك عن حالتي الصحية و عن هدوئي، عادت ثانية لتقلقل داخل دلاءها و تدق توابلها.
لأشغل نفسي، تلوت آيات القرآن القليلة التي كنت أعرف، في البداية بصوت منخفض، ثم بكامل قوة حبالي الصوتية. كنت أرتل كلمات المصحف الكريم بشغف. جفت ذاكرتي. ترددت للحظة قبل أن أستأنف تجويدي بورع أكثر. كنت أخترع قرآني الخاص. كانت كلمات بدون تتمة و بدون معنى تُقلِع، تدور في جو الغرفة، تتدفق نحو السماء مثل سرب من الفراشات ملونة بغنى.
أتت أمي لرؤيتي ثانية. نصحتني بأن أقلل من حيويتي في التجويد. ربما أصاب بنوبة حمى. أخرجت من فستانها سلسلة نحاسية نخرها الزنجار و مدتها لي:
- قالت لي: أضف هذه إلى عجائبك،
امتصت السلسلة المصممة بدقة إعجابي. تأملتها لمدة طويلة. قررت تنظيفها. كنت أعرف تحويل النحاس، هذه المادة الحقيرة، إلى ذهب خالص. خرجت إلى البسطة. داخل علبة مصبرات محدبة، وجدت رملا دقيقا كان يستعمل لتنظيف الموائد المستديرة و صينيات الشاي. انهمكت في العمل بحيوية. كانت أصابعي تؤلمني عندما ظهرت النتيجة المنتظرة

Scanned by CamScanner

أمام عيني. قمت بعدة شطفات داخل دلو مسْوَدٍّ كانت مكنسة **دوم** صغيرة تسبح فيه.
تحولت سلسلتي إلى حلية ذهبية. لففتها حول معصمي لأعاين النتيجة: كنت أمسكها من كلا الطرفين، أضعها على صدري، على جبهتي، كنت أجعلها سوارا. أخرجت علبتي. نشرت كل كنوزي على غطاء.
تحولت أكثر أزراري و مساميري تواضعا، بعملية سحرية كنت وحدي من يعرف سرها، إلى جواهر.
غارقا في تأمل كنوزي، لم أكن قد رأيت قط زينب عند دخوله. ماء بشدة تجاهي. لم أكن أخشاه. قررت أن أشْرِكَه في فرحي و أفتح له أبواب عالمي. اهتم كثيرا بخطاباتي، مد قائمته ليلمس حجري الكريم من الزجاج المرصع، نظر إلى سلسلتي الذهبية بدهشة. صنعت له منها عقدا. بدا فخورا في البداية. ثم حاول نزعه بعد ذلك. لم يستسلم لضربات مخالبه. استشاط غضبا، ذعر و رحل كالسهم، بذيل منفوش، بعينين متمددتين من القلق. ركضت خلفه لأستعيد ممتلكي. لم يجب القط اللعين على نداءاتي. لم يكن يريد أن تكون له أي صلة بي، كان يتسلق درجات الدرج، يطلق تهديدات.
نبهت أمي، طلبت النجدة من فاطمة بزيوية، من رحمة و حتى من عدوتي زينب، صاحبة هذا العفريت رباعي الأرجل. أسرع الجميع إلى السطح لكن القط، لجهله سبب ملاحقتنا له، كان يكشط مخالبه ليتسلق طول جدار ذو ارتفاع شاهق. كنت حانقا من القط. كانت النساء تحاولن مواساتي.
- سيعود هذا المساء، ستعيد لك زينب سلسلتك.
زينب! زينب! كانت هي من حرضه ليأتي و يحتك بي، يستغل طيبتي و يسرق مني أجمل حُلِيي. كنت أختنق من الغضب و السخط. اشتعل غيظي؛ انقضضت على زينب. غرزت أظافري في خديها، نتفت شعرها بخصل، سددت لها ركلات رائعة على البطن. دافعت عن نفسها، المتوحشة، بعنف، شدت أذناي، أوقعتني أرضا، داست على صدري. كانت النساء تصرخن، تحاولن تفريقنا و تتلقين لكمات و ضربات رأس من كلا الخصمين.
تمكنت أمي أخيرا من السيطرة علي. أدخلتني إلى الغرفة، أدخلت رأسي في دلو من الماء، نشفت وجهي بفوطة و أصدرت لي أمرا بالنوم.
كان صدري لايزال يهتز بالبكاء، نمت على الفور تقريبا.

Scanned by CamScanner

الفصل 6

كنا نلج إلى صالة الكتاب عبر أربعة درجات. **المسيد**، حجرة طويلة ريفية نوعا ما، كانت بها غرفة علوية واسعة. وضع فيها المعلم جرتين من الخزف المورنش، لاحتواء زيت الزيتون التي كان يحضرها التلاميذ في قنينات و زبديات. كان الكبار مسؤولين عن ذلك.
لشراء حصائر جديدة، شارك كل واحد حسب إمكانياته. كان أب أحد التلاميذ يعمل كسخان لغلاية الماء. وهب للمدرسة بحِمْل حمار من الجير. في يوم الإثنين، قبل ثمانية أيام من حفل عاشوراء، تم وضع الحصائر القديمة في الغرفة العلوية. شَكّل المعلم فرقا و عين زعماء عليها. استعرنا دلاء و مكنسات صغيرة من **الدوم**.
بدأ العمل. وسط ضجة من الشتائم، الانفعالات، البكاء و موجات الضحك، فصل البعض رؤوس الذئب، المعلقة بعظمة على أبواص، لقد بذلوا جهدهم لمدة طويلة بهدف تنظيف السقف و الجدران من نسائج العناكب.
تم تحضير دلوي كبيرين من حليب الجير. باشر عشرة تلاميذ يحملون مكانس صغيرة، تجيير الجدران.
كانوا يمسكون مكانسهم بجرأة، يلطخون في طريقهم أطفالا يصرخون. كانوا يتلقون الجير الحار في أعينهم، يبدأون بالصياح، تاركين أشغالهم. كانوا آخرون يحلون محلهم، مفعمين بالحيوية. كانت تنشب شجارات. كان الجميع يصرخون في الوقت نفسه. أحيانا، فوق هذه الجماعة، كان صوت المعلم يدوي. كانت الضجة تتوقف للحظة، ثم تستأنف أكثر هيجانا و حِدّة.
تمكنت من الحصول على مكنسة صغيرة، غمرتها في حليب الجير و كلي فرح، انقضضت على الجدار لأري لهذه اليرقات كيف نُجَير بجدية. اصطدمت بحائط من الأذرع الوردية، الأفواه المفتوحة، الأعين الجاحظة من الغضب.
تمسكت أيد بمكنستي الصغيرة. قاومت بكل قواي، لكن تبين بأن قتال كان غير متكافئ. أفلت الأداة القيمة و وجدت نفسي جالسا في بركة ماء كانت تجمد مؤخرتي. لم أكن أفكر في البكاء، نهضت، مصمما على استرجاع ممتلكي. ارتميت في العراك، لكن صوت المعلم سيطر على الضجة.

Scanned by CamScanner

توقفنا، منتفضين من الغضب. مادين أذرعنا و أيدينا، بأصابع متباعدة، بدأنا جميعنا بشرح موضوع سوء التفاهم؛ كنا جميعنا نطالب بالعدالة؛ كان صوت كل واحد فينا يحاول أن يغلب على أصوات الآخرين.
أمرنا المعلم بالصمت، سحب منا وظائفنا و لرؤيته لمظهرنا البائس، نصحنا بانتظار أن يكون في حاجة إلينا، انتظرنا في أحد الأركان. أعلن **الفقيه** بأن الكبار فقط هم من كان مسموحا لهم بطلاء الجدران بحليب الجير. انتظرنا حتى المساء أن يكلفنا المعلم بأدنى عمل. لم يفعل ذلك.
تم تبييض الجدران. في اليوم التالي، تم تكوين مجموعات من جديد، كان لكل مجموعة اختصاصها. أصبحت شخصية مهمة. عُيّنت كزعيم للفاركين. قمنا بغسل الأرض. كان عشرون تلميذا يحملون دلاء كبيرة يقومون بسخرة الماء. كانوا يذهبون لإحضاره من نافورة **زاوية** تقع على بعد خمسين خطوة من كُتّابنا.
تم غمر الأرض بالماء. حملت عملي على محمل الجد و، لأعطي المثال، كنت أستعمل مكنستي الصغيرة بنشاط. لقد آلمني هذا في كبدي. من وقت لآخر، كنت أقف محْمَرّا. كانت عضلات الذراعين تؤلمني. كنت أحس بأنها ترتجف عندما أرتاح. في الماء حتى الكاحلين، حافي القدمين، يدفعني هذا و يشتمني ذاك، كنت سعيدا! وداعا للدروس، التلاوات الجماعية، الألواح الصلبة، البغيضة، القاسية! لنفرك الأرض الترابية المغطاة بالغبار و القذارة، مزينة بنجوم كبيرة من الجير، التي كانت تصمد أمام فركنا الحيوي.
- آخ! لقد أعطيتني ضربة كوع في عيني.
- احترس! لقد بللتني حتى الحزام.
- أنظر! لقد سقط إدريس في الدلو.
- ها! ها! سيغرق! سيغرق!
- أفركوا أيها الكسالى.
- أنت هو الكسول، إن ركننا أنظف من خاصتك.
نشفنا كل مكان بخرق من الجوت.
في المساء، عدت إلى البيت ميتا من التعب، لكن فخورا جدا بنهاري.

Scanned by CamScanner

كنت أتباهى بإنجازاتي العديدة أمام والدي. نجحت في إقناعهم بأنه لولاي لما كان هناك أي عمل متقن. هنأني والدي. قال لأمي بأنني بدأت أصبح رجلا حقا. ذهبت للنوم.
خلال نعاسي، حدث و أن جلست في سريري، ألقي أوامرا، أوزع شتائما. كانت أمي تعيدني للنوم بحركات رقيقة، جُمَل حنونة.
في الصباح، استعددت للذهاب للكُتاب، منعتني أمي. قالت بأنها كانت في حاجة إلي لأرافقها إلى القيسارية، سوق الأقمشة. كان الأوان قد آن للتفكير في ملابس العيد خاصتي. صفقت بحماسة.
- هل سأحصل على قميص جديد؟
- ستحصل على قميص جديد.
- هل سأرتدي صدارا بشرائط؟
- سترتدي صدارا بشرائط.
- هل سألبس **جلبابي** الأبيض الذي وضعته في الصندوق؟
- ستلبس **جلبابك** الأبيض، البلغة الجديدة التي سيصنعها لك مولاي العربي، زوج لالة عيشة و حقيبة مطرزة.
وقفت منتصب القامة، دفعت صدري؛ ابتدأت بعض خطوات رقصة بربرية حتى. لم أكن أستسلم إلى مثل تلك النزوات إلا تحت ظروف استثنائية. كنت سأبلغ حد إصدار صرخة أو اثنتين عندما ذكرتني أمي بأن أحفظ كرامتي.
كانت فاطمة بزيوية تضحك ملء شدقيها. لم يكن ضحكها يفاجئني. هذا الصباح، كنت أحس بأنني قادر على إبداء طيبة، حِلم، كنت أبدي كرما لا حدود له. كنت أسامح زينب من أعماق قلبي، كل المتاعب التي سببتها لي؛ كنت أسامح قطها الذي عاد بعد أن تخلص من عقده، سلسلتي الذهبية الجميلة، كنت أسامح أيام الثلاثاء لكونها أياما طويلة جدا، عصا السفرجل لعضها الدائم للحم أذني الضعيف، كنت أسامح أيام الغسيل لكونها باردة و حزينة للغاية، كنت أسامح كل شيء في العالم أو على الأقل ما كنت أعرفه من العالم.
تركت أمي تتفرغ لأشغالها المتعددة قبل أن أجهز نفسي للخروج و صعدت إلى السطح الذي لم يكن أحد يستطيع أن يراني فيه و أنا أفرغ فرط السعادة التي كنت أشعر بأنني مفعم بها. كنت أجري. أغني، أضرب الجدران

Scanned by CamScanner

بعنف بواسطة عصا وجدتها هناك و يا لمحاسن الصدف. كانت العصا تصبح سيفا. كنت أستعمله بمهارة. أقطع رؤوس الباشوات، قضاة التجار و رجالهم. كانت العصا تصبح حصانا و أتبختر، أهز مؤخرتي، مرسلا رفسات. كنت الفارس الشجاع، اللابس **لجلباب** ناصع و صدار بشرائط. كانت حقيبتي المطرزة تجر كتفي نظرا لأن مخزوني من الخراطيش كان ثقيلا. رميت عصاي، نزلت الدرج بسرعة لأجيب نداء أمي.
عندما سمعتها، كانت قد بدأت بنعتي باليهودي، بالكلب الأجرب و بأسماء أخرى ليست مستحسنة. لم يكن ذالك نداءها الأول. لا بد من أنها، كما العادة، أغوتني بكلمات لطيفة، كلمات مثل:
- هل لعب شريفي بما فيه الكفاية؟
- ألا يريد شريفي أن يجيب أمه؟
- إنزل بسرعة، يا شريفي!
- ما الذي تنتظره لتنزل أيها العنيد؟
- ألا تسمعني، يا حمارا وجهه كالزفت؟
- ما الذي حصل لك، أيها الكلب الأجرب؟
- انتظر لأصعد لك، أيها اليهودي عديم الكرامة.
في خضم شغف اللعبة و نشوة الركب، لم أكن قد سمعت كل هذا الابتهال. فقط الكلمات الشاتمة يهودي و كلب أجرب هي من رماني في العالم الحقيقي.
التحقت بأمي مذلولا و رافعا كوعي لأتفادى أية محاولة عنف.
اكتفت أمي، مع لومي بشدة على سلوكي، بإمساكي من كتفي و توبيخي.
كانت جاهزة للخروج، ملفوفة في **حايكها** الأبيض، ببلغة سوداء في قدميها، أسرعت بتغطية وجهها بقماش قطني أبيض بإحكام و ذهبنا.
رجتها رحمة أن تستعلم لها عن الأثمنة الحالية للقماش، لاسيما ثمن ذلك الموصلين المسمى « بقدونس » و ذلك الساتان الرائج، الذي كان يحمل اسم « باقة السلطان ».
كنا قد قطعنا مسافة معينة و كدنا نبلغ منعطف الزقاق، عندما نادتنا لالة كنزة، **الشوافة**.
لم تكن أمي تستحسن فكرة أن نعود أدراجنا. سألتها من بعيد عن ما تريده. من البيت، عبرت المستأجرة الرئيسية عن رغبتها في تغيير مخزون

Scanned by CamScanner

فساتين أخوياتها. كان يلزمها عدد كبير من الأذرع من الساتين الأسود لتهدئ مزاج العفريت الكبير النافع، الملك بلحمر. مؤخرا، كانت تحس بشر ماكر، بسبب أفعال لالة ميرا. لتوقف الشر، كان لا بد من فستان أصفر كاللهب. كان يجب إرضاء سيدي موسى كذلك، كان لونه المفضل هو الأزرق الملكي، لكن فستان السنة الماضية لازال صالحا للاستعمال.

- أعطي النقود لابني.

دفعتني أمي في اتجاه المنزل.

- أستطيع بالفعل أن أجنبك كل هذه المشتريات.

أعطتني **الشوافة** النقود. لم تعد تريد فقط شراء الساتين الأسود. في الأخير، سرعان ما وصلنا إلى الشارع.

قرب سيدي أحمد التيجاني، هذا المسجد ذي الأبواب المزينة بغنى، اندفعت امرأة نحو أمي، كان الفرح يملأها، كانت تشكر الله لأنها التقت بنا. انحنت علي و ألصقت حجابها الخشن على خدي لتقبيلي. لقد كانت جارة للالة عيشة، صديقة أمي. استندتا على جدار المسجد و استهلتا حديثا طويلا عن قضية مولاي العربي التي انتهت نهاية سعيدة بفضل إخلاص لالة عيشة. على أية حال، كان مولاي العربي يستحق تضحية كهذه. ما إن تزدهر ورشته، لن يفوته أن يشتري لزوجته مجوهرات، عقارات و أغطية. لم يكن رجلا ناكرا للجميل.

إلا أن الجارة أضافت هذه الجملة الخادعة قبل أن ترحل:

- لكن من يستطيع أن يثق بالرجال؟ لقد تزوجت ثلاثة مرات، في كل مرة، كان زوجي لا يفكر إلا في تجريدي من الممتلكات القليلة التي كنت أملك. فلنأمل بأن لالة عيشة لم تصادف جاحدا و مدعيا بغيضا.

قالت أمي بحكمة:

- وحده الله يعلم.

تركنا الجارة الثرثارة. كانت حشود الحضريين و القرويين تحث الخطى في شارع البقالين، ساحة كتاب العدل، سوق الفواكه الجافة. كان سائقو حمير يدفعون حيوانات نحيفة مُحَمَّلة بكثرة بأكياس من السكر، صناديق الشموع، رزم من النسيج القطني، أوان من الخزف و الألعاب.

كان ازدحام معقد يتشكل عند كل مفترق طرق. كنا دائما نتمكن من التسلل بين مجموعات المتسكعين. لأمر بسهولة، كنت قد نزعت بلغتي، وضعتها

Scanned by CamScanner

في قلنسوتي. عند كل خطوة، كانت أمي توصيني بتوخي الحذر. كان من الممكن أن أفقدها خلال التدافع أو تسرق مني. كنت أطمئنها. كنت أحس بها تضرب ظهري بشكل خفيف.
رأيت أول دكاكين القماش. كانت تلوح من بعيد. كان التجار، ليجذبوا الزبناء، يعلقون على عرشهم رايات من الحرير، كنزات ذات ألوان باهتة، مناديل مطرزة «بالطارة».
كانت **القيسارية**، ملتقى كل أنيقات المدينة، تبدو لي و كأنها تحتوي على كنوز سليمان ابن داوود الشهيرة. قفاطين من جوخ أرجواني، صدارات مزينة بعناية بالقيطان و أزرار الحرير، جلابيب من الفوال الصوفي، برانس فاخرة تجاورها أنسجة تل متقزحة مثل نسج العناكب تحت الندى، أنسجة التفتة، الساتان المُمَوَّج و الكريتون بألوان الطبيعة.
كانت أصوات النساء تعطي لهذا المكان جوا من الألفة. كان التجار لا يشبهون غيرهم في باقي الأسواق. كان أغلبهم شبابا، أبهياء الطلعة، حِسَان الهندام، لبقون في حديثهم. لم يكونوا يغضبون أبدا، كانوا يبدون صبرا بلا حدود، يزعجون أنفسهم ليُرُوا لزبونة قماشا معلقا في أعلى الرفوف، يبسطون القطعة، يعيدون طيها لإعادتها إلى مكانها، لكون الزبونة وجدت تحت كومة من الحرير، قماشا أعجبها أكثر.
زرنا خمسة أو ستة دكاكين قبل شراء ثلاثة أذرع من القماش القطني الأبيض. كانت ستستعمل لتفصيل قميص لي. كان قماشا قطنيا من نوعية جيدة، نوعية « السمكة ». لم تكن أمي تريد أي ماركة أخرى. أرانا البائع سمكة بكامل حراشفها مطبوعة بالأزرق على طول لا بأس به من القطعة. دامت مراسم المساومة أقل بكثير من وقت شراء الصدار الأحمر بشرائط.
توقفنا أمام عشرة دكاكين، كان التجار يسرعون و يعرضون علينا أكواما من الصدارات على مقاسي، كانت جميع درجات اللون الأحمر تتعاقب أمام أعيننا؛ لم تكن أية واحدة تطابق الدَّرجة التي كانت تريدها أمي. في الأخير ثبت اختيارها على صدار كرزي اللون، مزين بكثرة بشرائط لولبية و زهيرات من القيطان، أغمق قليلا من القماش.
نزعت عني **جلبابي**، جعلتني أجرب الصدار، زَرَّرته لي حتى العنق، ابتعدت لترى كيف يبدو، أشارت لي بالاستدارة يمينا، ثم يسارا، استغرقت

Scanned by CamScanner

وقتا طويلا لتفك الأزرار، صنعت منه كرة دستها بعنف بين يدي التاجر.
استعلم صاحب الدكان:
- هل أعجبتك هذه البضاعة؟
- أجابت أمي: الثمن هو من سيقرر.
- إذن، هل أجهز العلبة؛ دائما أقدم تخفيضا لزبنائي الجادين. يباع هذا الصدار بخمسة ريالات بيسر، سأتركه لكي بأربعة فقط.
- لنقصر الحديث، سأعطيك ريالين.
- أنت لا تعطينني ثمنه بالجملة، أقسم بهذا! لن أبيعه بهذا الثمن، هل سأتسول لأطعم أطفالي هذا المساء.
كان التاجر قد انتهى من طي الصدار بعناية و يبحث عن ورق ليلفه به.
- قالت أمي: إسمع، أنا أم لأسرة، أتكفل ببيتي، ليس لدي أي وقت للمساومة. هل تريد أن تدع لي هذا الصدار بريالين و ربع؟ أقوم بهذه التضحية من أجل ابني الذي يتمنى بشدة أن يرتدي هذا اللباس في يوم **عاشوراء**.
هذا الولد يعجبني، سأبذل مجهودا من أجله، أعطيني ثلاثة ريالات و نصف.
مد التاجر يده، كان ينتظر استلام النقود. أدارت له أمي ظهرها، أمسكتني من رسغي و مشت بي بضع خطوات.
- قالت لي: تعال! الصدارات تملأ **القيسارية**. لا بد من أن نجد حانوتيا جادا يعرف كيف يتكلم بشكل معقول.
بدأ التاجر بندائنا بنبرة مستعجلة.
- عودي يا لالة! فلتعودي إذن. إن الصدار يعجب هذا الطفل. سأمنحه لك بدل من أن أحرمه من متعة ارتدائه. صحيح أن الصدارات تملأ **القيسارية**، لكن هل ستستطيعين حقا إيجاد واحد بهذه الجودة؟ تأملي الإتقان الذي صممت به جميع الدروز. أنظري إلى تنفيذ الأزرار... خذي هذا الصدار؛ إدفعي لي الثمن الذي يبدو لك معقولا. تبدين لي **شريفة** مليئة بالبركة، سأطلب منك أن لا تنسيني خلال صلواتك لكي يشفع لي الرسول يوم القيامة.
كانت أمي تفقد صوابها عندما يناديها شخص ما **بالشريفة** مصادفة. بحثت في جيوبها، أخرجت خرقة معقودة عدة مرات، اجتهدت مدة طويلة لتفك

Scanned by CamScanner

العقد. أخذت ريالين و نصف أعطتها للتاجر دون قول شيء. لم تأخذ وقتا لتستمع للحانوتي الذي كان يطلب إضافة. أخذت الحزمة و سحبتني.

تسكعنا لمزيد من الوقت في السوق. استعلمت أمي عن ثمن الأقمشة، ميولات الموضة، معنى هذا الرسم أو ذاك.

تركنا جو الفخامة هذا لنذهب إلى حي التوابل. كنا قريبين من **مدرسة** عطارين، هذا المنزل الجميل الذي يسكن فيه الطلاب، عندما ذَكَّرتْ أمي بِسَاتين لالة كنزة **الشوافة**. هنأتني أمي لامتلاكي ذاكرة جيدة. عادت أدراجها. طوال الشارع، كانت تلعن كل **شوافات** الأرض، هؤلاء النساء الفاجعات اللواتي لم يكُنَّ يضيعن أية فرصة ليُسَمِّمن لك حياتك. كانت تتسائل عما كانت قد فعلته حقا بنقود هذه الساحرة اللعينة كنزة التي كانت تستطيع أن تتسوق بنفسها لو أرادت ذلك. وقفت في زاوية أحد الدكاكين، بدأت تبحث بدقة، انفعلت، تحركت، ألقت بلعنات جديدة على **الشوافات** وأعوانها، انتهت بإيجاد النقود في قاع أحد جيوب قفطانها.

سرعان ما وجدنا بائع ساتين. طلبت أمي عددا معينا من الأذرع دون مناقشة الثمن، دفعت ثمنه و رحلنا أخيرا.

كان مزاج أمي الجيد قد اختفى. لم تتوقف عن توبيخي بدون سبب حتى وصولنا إلى البيت. أعطت للالة كنزة ساتينها الأسود، أعادت لها باقي المبلغ و صعدت الدرج، متأوهة و متنهدة عند كل درجة.

خرجت رحمة إلى البسطة. دعتنا إلى غرفتها. طلبت من أمي أن تُرِيَها ما اقتنته.

كانت غرفة رحمة بنفس أبعاد غرفتنا. كان هناك حاجز خشبي مهترئ بفعل الزمن يقسمها إلى ثلاثة أرباع. وراء هذا الحاجز، كانت رحمة تكدس مؤنها الشتوية. كانت تتمثل بالخصوص في خبز ملح ذي لون وردي ملطخ بالرمادي و عناقيد البصل. كانت الغرفة المؤثثة بفقر بأفرشة محدبة و حصير من الأسل، تحتوي، كترف وحيد، على رف طويل ملطخ بالألوان. كان هذا الرف يحمل عشرة زبديات خزفية بزهور، صحنين مزينين بديكة رائعة و خمسة كؤوس على شكل غراريف.

كانت زينب تلعب في ركن مع قطها. كانت تقدم له مرآة صغيرة. كان الحيوان يرى عينا دائرية تنظر إليه بإمعان. كان يمد قائمته قلقا، لكن كانت مخالبه تكشط السطح الأملس للزجاج. كرر مكيدته مرتين أو ثلاثة، نظر

Scanned by CamScanner

خلف المرآة؛ لكنه لم يفهم شيئا. أحس بنوع من الحيلة، غضب، تفوه ببعض البذءات بلغته، رحل كالسهم بذيل منفوش. كانت زينب تقهقه.
منذ مدة طويلة، كنت أرغب في مرآة صغيرة كخاصتها. لم أكن أجرؤ أن أطلب من أمي شراء واحدة لي. كانت ستتظن بأنني أريدها لأنظر بها إلى نفسي و لن يفوتها أن تنعتني بالصبي المخنث.
كانت رحمة تمدح أمي على مشترياتها و تتأمل صداري. كانت الغرفة مظلمة. كان اللون الأحمر للصدار الذي يكتسب درجات مخمل قرمزي يسكرني لكونه لونا جميلا و عميقا، رصينا و ملكيا في الوقت نفسه. كنت أشعر بأنني مفعم بفخر نبيل. كان هذا اللباس لي. في يوم عاشوراء، كنت سأبهر أصدقاءنا و معارفنا. كان تلاميذ **المسيد** سيتحدثون معي بإجلال. يخاطب الصغار و الكبار أمراء الأسطورة باحترام.
ألن أكون أمير أسطورة بهذا الصدار الفاخر، قميصي المستقبلي من نوعية « السمكة » و زوج البلغات الذي كان مولاي العربي، أفضل صانع بلغات في المدينة كلها، سيصنعها لي؟
كانت أمي تهمس لجارتنا و هي منحنية عليها ملامسة خدها. لم يكن ذلك يعنيني. لم يكن ما تهمسه النساء بغموض في غرفة مظلمة يهم الأطفال الصغار الذين يحلمون بأن يصبحوا أمراء أسطورة يلبسون جوخا أرجوانيا.
كشرت لي زينب بشكل رهيب، أبديت لها واحدة أكثر فظاعة. بدأت بالصراخ و تحريض الجميع ضدي.
- أمي! أمي! سيدي محمد يكشر لي. حاولت الدفاع عن نفسي.
- إنها من بدأ! إنها هي!
لم يكن أحد يصدقني. أجهشت بالبكاء. أمسكتني أمي من ذراعي و هي غاضبة و جَرَّتني إلى غرفتنا. كانت تتذمر بصوت مرتفع من قدرها السيء، من قساوة الحال، من حياة الجحيم التي كانت تعيشها بسببي.
كنت أتساءل بصراحة عن الأمر السيء الذي كنت أفعله لأجعلها تعيسة جدا. تركتني في أحد الأركان، أنخر كما أشاء، بقلب حزين، بشفتين عابستين و أقفلت على نفسها في مطبخها.
شعرت بالجوع لكثرة البكاء بصمت. على أية حال، كان وقت الغداء قد مضى منذ وقت طويل. استلقيت على ظهري و بدأت أشكل قائمة طعام

Scanned by CamScanner

فاخرة لليوم الذي سأكون فيه أميرا محترما و محبوبا و سيكون علي استقبال شخصيات من مقامي. فكرت قليلا ثم قلت لنفسي: « يأكل الأمراء بكرم في منازلهم. لن أدعُوَهم. سيكون ضيوفي هم جميع المساكين، المتسولين و المُجوّدين الذين نادرا ما يأكلون وجبة سخية. سأوزع عليهم ملابس جميلة: صدارات حمراء مزينة بكثرة، جلابيب بيضاء كالحليب، بلغات صفراء يصرف جلدها عند كل خطوة. لن أنسى أن أمنحهم عمامات من الموصلين. أنا، سألبس الأبيض. على رأسي، سأضع طرطورا بلون أحمر أرجواني، كان امتياز من ناس الساحة و العبيد السود سيقدمون لنا في أطباق من الخزف الصيني بعض ال...

- هلا اعتدلت في جلستك لتأكل.

اعتدلت. كانت أمي قد وضعت الطاولة المستديرة على قوائمها. لحم باللفت! لم أكن أحب اللفت! كنت أفكر في رفض هذا الطعام. كانت أمي تعيسة بما فيه الكفاية هكذا. كنت سأحدث نوبة جديدة، لم أمتلك الشجاعة. أكلت الطعام بشهية. حَوَّل الجوع الذي كان يلتهمني مذاق اللفت إلى نكهة شهية.

بدأ شخص بالغناء على السطح. كانت مقاطع من أغنية شعبية تأرجحها باسترخاء نفحة نسيم الربيع الجديد تصل حتى غرفتنا. توقفت أمي عن المضغ، أرهفت أذنها. ابتعد الصوت، بعد لحظة، انتصبت واقفة مثل شرارة ضوء، ساخنة، مُسْكِرة و حزينة مثل نفحة لبان.

ذهبت أمي لتطل من النافذة. نادت:

- فاطمة بزيوية، هل تعرفين من يغني هكذا؟

- لالة خديجة، زوجة العم عثمان.

- لا أفهم لماذا هي سعيدة لهذه الدرجة في حين أنها تزوجت بعجوز في عمر أبيها.

- إنها ليت تعيسة! ينفذ العم عثمان كل طلباتها. يعاملها كابنته.

- و هي؟ كيف تعامله؟

ضحك جيراننا كثيرا.

- قالت رحمة: أنا أعرف كيف تعامله، حكت لي العجوز مباركة، العبدة القديمة للعم عثمان، قصة ممتعة جدا. لن أكررها لأنها طويلة للغاية.

- قالت جميع النساء بصوت واحد: إحكيها لنا! إحكيها لنا!

Scanned by CamScanner

تم رجاء رحمة بعض الوقت، ثم بدأت:
- تعرفون العم عثمان، رجل عاش أوقات رائعة. ترك له والداه ثروة كبيرة عند موتهما. عاش شبابا طائشا و خسر الربح و رأس المال. لم يبق لديه سوى البيت الصغير المجاور لخاصتنا. مباركة الوفية تقاسمت الثروة الجيدة و السيئة. سي عثمان تزوج عدة مرات، لكن لا واحدة من زوجاته السابقات استطاعت أن تأسر قلبه إلا لالة عيشة لأنها كانت الوحيدة التي استطاعت ترويضه و جعله يأكل من باطن يدها مثل الحَمَل. صحيح أن خديجة، إن لم تكن تملك ثروة، تملك على الأقل الشباب و الحسن. إنتظروا، سأصل إلى قصتي.
ذهبت لأطل من النافذة إلى جانب أمي. كانت جميع النساء قد تركن أشغالهن و يتكئن على الأسيجة و درابزين شرفاتهن. أخرجت لالة كنزة سجادة قديمة و جلست في الفناء لتستمع.
تابعت رحمة، التي لم نكن نرى إلا صدرها، تسلسل الأحداث.
كنا جميعنا متشوقين لمعرفة التتمة.
- خرج سي عثمان الجمعة الماضية باكرا ليتسوق. كان يؤرجح جلته بفرح، يحيي البعض واضعا يده على قلبه، و يبدي ابتسامة عريضة لآخرين. لأنه يعرف جميع سكان الحي. وصل إلى الجوطية. كان بائع لحم واحد فقط هو الذي فتح دكانه. لا داعي لأقول لكم بأن الناس كانوا كثيرين حول دكانه. لقد كان سالم الزنجي. كان يحمل تارة فأسا مذهلة و تارة أخرى ساطورا كبيرا. كان يقطع قطعا كبيرة من لحم الغنم كانت تختفي في قفف و جلل الزبائن. أقول لكم بأنه كان هناك حشد. كان الناس يدوسون على أقدامهم بفرح، يتبادلون تربيتات و كلاما ساما. لكي يثير انتباه سالم الزنجي، قام سي عثمان بتحريك ذراعيه، رسم على وجهه ابتسامة عريضة، صرخ بمجموعة من الكلمات التي كان يمكن أن تعني: « ابتلع ساطورك » أو، « تستحق الضرب بالعصا » أو، بكل بساطة، « أعطني فخدا ». هدده الزنجي غاضبا بفأسه من بعيد و تابع عمله.
ضحك الجميع حتى خرجت دموعهم. كانت رحمة تحسن السرد.
تابعت و هي فرحة بنجاحها:
- عاود سي عثمان فعلته بعد لحظة. أظهر سالم أسنانه، رفع فأسه عاليا، تردد بين أن يضرب بها رأس هذا الزبون البغيض و واجبه في أن يتابع

Scanned by CamScanner

خدمة الناس. من حسن حظ سي عثمان، الواجب هو من ربح. جاء كلب مثل أولئك الذين يكونون دائما بجانب دكاكين الجزارين و بدأ يشتَمُّ عقبي سي عثمان. فقد هذا الأخير صبره و ضربه بركلة عنيفة. طارت بلغته. أخذها الكلب، أمسكها بين أنيابه و هرب. تبعه سي عثمان و هو يعرج.
أخذتنا من جديد نوبة من الضحك و اضطرت رحمة للتوقف قليلا قبل المتابعة.

- تمكن من استعادة بلغته في نواحي جسر بين لمدون. عند عودته إلى الجوطية، لاحظ بأنه لم يبقى أحد أمام دكان الجزار. كان الزنجي يغفو واضعا شاشيته في أذنه و منشته بين أصابعه. على شناكل الدكان، كان يعلق قطعا كبيرة من رئة الذبيحة للقطط. لاحظ كذلك بأن تجار الخضر كانوا ينامون وسط زنابيل فارغة أو وراء بضاعتهم التي كانت تصفرُّ فيها ثلاثة حزم من الفجل. لم يكن سي أحمد يريد أن يعود خالي الوفاض. وحده الله يعلم كيف كانت لالة خديجة لتستقبله. في أحد الكاروانسرا، رأى مشهدا غريبا. كان أناس يدوسون أقدام بعضهم البعض بصفاء. كان شابل يخرج من هذه الدوامة، يطفو قليلا فوق الرؤوس ثم يختفي. انتظر سي أحمد طويلا، مليئا بحسن الإرادة، أن تحدث معجزة. بما أن المعجزة تأخرت، أصبحت حكة أنفه لا تحتمل. ترك السوق ليذهب إلى أقرب بائع للتبغ.
كان يأمل أن يستنشق نفحة جيدة في أنفه. ربما تأخر قليلا لدى بائع التبغ. عند عودته، لم يتبقى سمك و لا مشترون.
كانت النساء تصرخن من الفرح. أنا كنت أتململ من الحماسة. كنت أطالب بالتتمة.

- كانت أمي تقول: أكملي! أكملي!

تابعت رحمة.

- غضب سي عثمان، رآه بعض الأشخاص يصيح شاتما. كان يرفع قبضتيه و يقول: « العجوز اللعين! هل كنت في حاجة لسماع قصة زواجه، هذا الزوج المخدوع؟ لماذا حكى لي عن موت أخته و ما دخلي بخطوبة ابنته! » في النهاية. عاد سي عثمان أدراجه. عند بائع النعناع الذي يقع في مفترق الطرق الصغير لشارع ساغا، نسي نفسه أمام وردة رائعة. ظن بأنه إن أهداها للالة خديجة، كانت ستسامحه لعدم إحضاره لأي شيء يؤكل. كنت في الشارع عندما عاد إلى منزله، فخورا بوردته

Scanned by CamScanner

الجميلة التي كانت تعطر الجو و شاهدت الخاتمة بأم عيني. دخل، ثم فُتِح الباب من جديد على الفور تقريبا، سقطت الوردة عند قَدمِي، ثم تبعتها عمامة سي عثمان يليها سي عثمان باهت وشاحب. التقط غطاء رأسه، أخذ الوردة التي شمها مطولا و، عندما رآني هناك و أنا أحدق إليه، أنعم علي بابتسامة عريضة.

ضحكنا حتى تلوَّينا.

أنهت رحمة قصتها هكذا:

- حيرتني الوردة، العمامة و سلوك سي عثمان و سألت مباركة عما حصل، و هكذا عرفت كيف كانت لالة خديجة تعامل زوجها العجوز.

مدح الجميع رحمة على طريقتها في تلوين الأحداث الأكثر تفاهة. كان كلامها « به ملح ».

تملكتني قصة رحمة طوال السهرة، في الليل، حلمت بها مجددا.

Scanned by CamScanner

الفصل 7

اشترت كل نساء المنزل « طعارجا »، **بناديرا** و دفوفا. كانت كل واحدة من هذه الآلات لها شكلها، لغتها الخاصة، كانت منها الطويلة من الخزف الأزرق، بقاعدة مغطاة بالجلد، و المنتفخة من الخزف الشبه ريفي، إطارات دائرية بسيطة و مشدودة بجلد الماعز المسموط بعناية.
اشترت أمي أحد تلك الطبول أو **البنادير**. جربته. تكلمت ضربات خفيضة و ضربات جافة منسقة فنيا بلهجة خشنة، خليط من الشمس و الريح من الجبال العالية.
بقي يومان فقط على عاشوراء، اليوم العظيم الذي ترتفع فيه إيقاعات و أغان من كل سطح عند كل عصر.
الآن، كل واحدة من جاراتنا تقوم بسلم موسيقي، تعزف لنفسها جوا من الرقص، مرفقا بنغمات و كلمات مهموسة بصوت خافت. كانت زينب تضرب كالصماء على « طعريجة » صغيرة تافهة. في اليوم السابق، كان أبي قد أعطاني بوقا خشنا جدا من التنك مطليا بكل الألوان. كنت أطلق منه من حين لآخر أنينا أنفيا ينتهي بصوت أجش مثل وحش غاضب. على أية حال، كنت أنوي اللعب بألعاب أخرى في يوم **عاشوراء**.
كنت أريد « دربوكة مزدوجة » و شخشيخة مزينة بأزهار. كنت أكتفي في الوقت الراهن ببوقي. كان يدوي بين كل أصوات المنزل كصوت الإنذار، أحيانا كبكاء شخص يحتضر.
رجتني أمي أن أصعد إلى السطح و أعزف كما أشاء.
في المدينة كلها، كانت النساء تجربن « طعارجهن ». كان طنين مكتوم يغطي المكان.
نفخت خدي بالهواء ثم نفخت بكامل قواي في بوقي الطويل؛ اختنق الصوت و شعرت كأنني أسمع رضيعا يبرز أسنانه الأولى. كان قط زينب ينام تحت الشمس. قام بقفزة رعب، كاد يفقد توازنه و يسقط من أعلى الجدار، بيته المفضل. ترك لي السطح و اندفع داخل مزراب.
ظهر وجه قلق من أعلى جدار مجاور ثم اختفى. كانت أمي قد بدأت تناديني. نزلت لألتحق بها.

Scanned by CamScanner

- قالت لي أمي: لقد أرسل المعلم واحدا من زملائك، إنه ينتظرك في الفناء. خذ بلغتك و اذهب إليه؛ إن **الفقيه** في حاجة إليك.
تركت بوقي بأسف و نزلت الدرج بسرعة لألتحق بصديق دراستي. لقد كان حموصة، حمص، أقصر تلاميذ الكتاب قامة. كان اسمه الحقيقي عزوز برادة. أوصاني بالإسراع.
كان تركيب الثريات من أجل ليلة عاشوراء يتطلب تعاون جميع الأيدي. كان من الواجب المجيء و العمل مثل الآخرين بدل اللعب بالبوق. وصلنا إلى **المسيد**. قبّلت يد المعلم و جلست وسط مجموعة مكلفة بقص فتائل صغيرة في مربع من قماش أبيض قديم، رث إلى درجة التآكل. كان تلاميذ آخرون يأخذون الفتائل المفتولة بعناية، يشبكونها من الوسط بشفرة من التنك. كان الطرف الحر من الشفرة يُكوِّن شنكلا و كان يجب وضعه على طرف كأس ممتلئ نصفه بالماء و نصفه الآخر بزيت الزيتون.
كان الكبار، و هم يقفون على سلم متخلخل، يعلقون ثريات من التنك في عرش النوافذ و سقف قاعة الكتاب. كانت هذه الثريات ذات تصميم بسيط للغاية و تتكون من واحد أو عدة أحواق مرتبطة فيما بينها بسيقان صلبة. كانت أقراص ضيقة، توضع عليها اللمبات الصغيرة، تأتي لتلتصق بهذه الأحواق: زجاجات عادية بها فتيلة تسبح في زيت الزيتون.
للحصول على منظر جيد، كان التلاميذ يخلطون بالماء لمبات مسحوقة بألوان مختلفة.
عندما وصلت، كانت الثريات لم تكتمل بعد. كانت الزجاجات مكومة في دلو. كانت مساحيق الألوان موضوعة على شكل حزم صغيرة في بُلغة **الفقيه** و كانت شفرات التنك تنتشر في كل مكان على الحصير. عمِلنا بنشاط.
جرح حموصة إبهامه بشفرة و ذهب ليتعالج في بيته و هو يبكي قليلا.
كان أغلب التلاميذ يعملون بحيوية؛ كان خمسة أو ستة فقط، من بين أكثر المشاغبين، يذهبون من مجموعة لأخرى، يتحركون في كل الأنحاء، يقتعلون بعض الشجارات هنا و هناك.
انتهى عملنا مع غروب الشمس. قبل الخروج من الكتاب، أنشدنا بعض التراتيل التي تمدح الرسول، تلونا بعض آيات القرآن بصوت واحد. ألقى المعلم أدعية بورع لينزل البركة علينا، و على والدينا و على كافة الأمة

Scanned by CamScanner

الإسلامية. لم ينسى، في أدعيته، السلطان الأمير، أطال الله عمره و أعانه على حمل ثقل المملكة.
بقينا صامتين في انتظار أن يشير لنا المعلم بالرحيل. جاء دوري بسرعة. قبّلت يد المعلم، لبست بُلغتي و خرجت.
في البيت، وجدت أمي منزعجة جدا. كان زيت القنديل قد نفذ. كانت أمي قد نسيت شراءه. اقترحت عليها أن أشتريه. رفضت. عاد إدريس العاود. نزلت أمي إلى الطابق الأول. سمعتها تهمس في بسطة رحمة. سمع صوت خطوات ادريس العاود في الدرج من جديد. كان قد قبل أن يسدي إلى أمي الخدمة.
بلغني من الشارع صوت حاد لبائع شموع. كان يصرخ: « شموع و أعواد ثقاب ». كنا قد توقفنا عن استعمال الشموع. كان ذلك يهم الناس الفقراء، بدون نقود، أولئك الذين لم يكونوا قادرين على شراء قنديل جميل مزود بزجاجة تعكس الضوء، كان ذلك يهم أيضا الناس المتخلفين الذين يخشون الانفجارات، الدخان و الرائحة الكريهة، العديد من السلبيات التي لا توجد إلي في مخيلتهم.
حل الظلام بشكل مفاجئ. كنا ننتظر عودة جارنا بفارغ الصبر لنضيء الغرفة. سعل أحدهم عند باب دخول المنزل. سأل إدريس العاود إن لم يكون هناك أحد في طريقه. أسرعت أمي إلى بيت رحمة، أعادت قنينتها مليئة بالزيت. بضوء قطعة شمع، فكت الفوهة، ملأت القنديل، نظفت الفتيلة من كربونها و أشعلت.
- قلت لها: سهرة مباركة.
- أجابتني أمي: فلتكن سهرتك مباركة.
- نادت لالة كنزة من الطابق الأرضي: لالة زبيدة، فلتكن سهرتك مباركة، هلا أعطيتني قليلا من النعناع؟
- سيحضره لك سيدي محمد.
أعطتني أمي بعض أغصان النعناع المعطرة جدا. ذهبت لأعطيها **للشوافة** بفخر. وجدتها في الفناء. كانت رائحة البنزوين و اللبان و بخور أخرى تُثْقل الجو. كنت مقتنعا بأن مجموعة من الشياطين، منجذبة بكل هذه الروائح، كانت في الظليل.

Scanned by CamScanner

وضعت لالة كنزة في باطن يدي حفنة من حبوب السمسم لشكري. فكرت في أن تلك كانت حصة من طعام غامض يعطى للجن من طرف الساحرة. تذوقته بطرف لساني. لم يكن بمذاق السمسم أي شيء مريب. أكلت. كانت الحبوب تلتصق حول شفتي و على طرف أنفي. كان لساني يزيح ما استطاع بلوغه. نفضت الباقي بأصابعي.
كان الدرج مظلما لكن هذا لم يكن يخيفني. الفراغ الذي كان أمامي لم يكن فارغا إلا ظاهريا. كانت أرواح خرساء تتنحى لتدعني أمر. عندما سأبلغ السن اللازم. ستكشف كل هذه الأرواح نفسها أمام عيني الساحر خاصتي.
سمعت أمي تلفظ بوقار:
- الله أكبر.
سأل أحدهم:
- هل ما أسمعه هو المؤذن الذي ينادي لصلاة العشاء؟
- أجابت أمي: أجل.
في الظلام، كنت أحبس أنفاسي، أرهف السمع. لم أكن أسمع المؤذن. يقال بأن للنساء سمعا حادا أكثر من الرجال.
لم يتأخر أبي في الوصول. جرى العشاء كما العادة.
قبل أن ننام، أخبرني أبي بأنه ينوي اصطحابي معه في اليوم التالي، في الصباح، للتنزه في الأسواق و اختيار ألعابي. كنا سنذهب كذلك إلى باب مولاي إدريس لشراء شمعة دينية. سأهبها لمعلم الكتاب في ليلة عاشوراء.
كنت سعيدا. كان شيء واحد يزعجني. كنت أعلم بأنه من المستحيل لي أن أفلت من حصة الحلاق. لم يكن ليفوت أبي أن يأخذني إلى شماين في الدكان الضيق لسي عبد الرحمان الحلاق.
لم أكن أحب لا سي عبد الرحمان، ولا دكانه.
نمت، لكن النعاس كان قد ترك جفوني. حلمت طويلا بشموع دينية ضخمة، مزينة بتخريمات من الورق المفرغ بدقة من طرف يد صبورة، شفرات براقة، « دربوكات مزدوجة »، ثريات من الحديد المطرق محملة بفناجين بلورية.
لم يكن أبي يعرف شيئا عن الفن العظيم للبيع و الشراء. كان يجهل حذاقات المساومة و نشوة الحصول على شيء ما، بفلس أقل مما دفعه الجار. اصطحبني بعد الفطور للقيام بجولة حول بائعي الألعاب. كان صوت «

Scanned by CamScanner

الطعارج » يدوي في كل شارع، جلاجل شخشيخات التنك، لحن الشبابات. كان تجار « الطعارج » يجدون صعوبة في التحرك داخل دكاكينهم الصغيرة التي أصبحت ضيقة لكثرة أكوام البضاعة. كانت « طعارج »، **بنادير**، دفوف، أبواق و مزامير تتدلى على شكل عناقيد، تتجمع على شكل أكوام متعددة الألوان، تملأ الرفوف. حشد من النساء، الرجال الناضجين، البنات و الأولاد يتحلقون حول كل دكان. كان البعض يجربون آلة و الأخرون يرافقونهم بالتصفيق، يصرخون، يطلبون، يتحدثون مع البائع الذي لم يعد يعرف من أين يبدأ.

كانت مجموعة من القرويين، القادمين من قراهم البعيدة، يشترون مخزونهم من السكر، التوابل، الأقمشة و الآلات الموسيقية. كانوا يسدون الطريق برزمهم.

كنت أمسك بيد أبي الذي كان مشغولا بإبعاد الناس ليشق لنا طريقا. حصلت على « دربوكتي المزدوجة »، عربة صغيرة غريبة من الخشب و بوق جديد.

كان أبي يدعني أختار، يدفع دون نقاش. كنت ألقي عليه خطابات طويلة، أطرح عليه آلاف الأسئلة التي نادرا ما كان يجيب عليها. كان يبتسم لرؤيتي سعيدا جدا. أنهينا تسوقنا بشراء شمعة دينية، وزنها رطل. كان شارع باب مولاي إدريس يؤدي إلى حي صانعي الأحزمة المطرزة و بائعي الفواكه الجافة.

كان دكان سي عبد الرحمان الحلاق يقع قرب قدم دالية عتيقة. كان المعلم بنو عاشر يشغل الدكان المقابل. كان لكل واحد زبائنه. كان كلا الحلاقان يجهلان المنافسة.

كان أبي يأتي ليحلق شعره في دكان سي عبد الرحمان منذ استقراره في فاس.

كان الحلاقون يشاركون في عدة احتفالات عائلية. كان أبي قرويا يسكن في المدينة الكبيرة و مع ذلك عند ولادتي كان يريد الاحتفال بمجيئي إلى العالم كما ينبغي. كان سي عبد الرحمان أفضل عون له. جاء، حسب العادة، و معه اثنان من متعلميه ليُجلس المدعوين و يقوم بتقديم الطعام.

عند أول حلاقة لي، استعان أبي بخدماته و كانت كذلك فرصة مناسبة ليأخذ برأيه و نصائحه.

Scanned by CamScanner

لم أكن أحب سي عبد الرحمان. كنت أعلم بأنه من سيقوم بختاني. كنت أخشى هذا اليوم. كنت أحس بقشعريرة تسري في بدني عندما أراه يستعمل الموسى أو المقص.
وجدناه مشغولا بالقيام بحجامة. كان المريض يبدي رقبته الحليقة. كان سي عبد الرحمان ينحني على عنق المريض. صرفت عيني عن هذا المشهد.
أدخل سي عبد الرحمان محجمين من التنك خلف رأس الغريب و تمنى لنا نهارا سعيدا بعبارات مؤدبة.
- قال: أرى بأن هذا الشاب دلل كثيرا: طبل، بوق، عربة مذهلة و شمعة دينية. صحيح بأن الشمعة الدينية ستعطى **للفقيه**. يجب التعامل جيدا مع المعلم، و إلا فاحترس من عصا السفرجل.
بدأ الجميع بالضحك. كنت أحمرّ من الغضب. لا يوجد ما يضحك في عصا السفرجل. لم يسبق لهؤلاء آلسادة أن تلقوها على أخمص قدمهم إلى حد العجز عن الوقوف. كانوا يستطيعون الضحك. تثير عصا السفرجل في أولئك الذين يعرفونها إحساسا بالخشية و الاحترام.
رفع رجل نحيف، ذو لحية صغيرة و عمامة ضخمة، ستار المدخل. كان يتأوه كثيرا. ليسلم على الجميع، اكتفى بهز رأسه بحركة إيجابية. انهار بين مساند كرسي صلب و تبع تأوهه.
- تبدو لي متعبا جدا ثانية، أيها العم حماد! هل أستطيع مساعدتك؟
- سوف أموت يا سي عبد الرحمان.
- لا تنطق بمثل هذه الكلمات التي لا تليق بالمسلم. إن الله وحده من يعلم أسرار الحياة و الموت. مما تشكو؟
- أنا لا أشكو من شيء. فقط، في الليل، يصبح تنفسي قصيرا، أختنق و يمتلئ قلبي بالخوف.
- يلزمك مقوّ، يا عم حماد. أعرف وصفة فعالة جدا. هل ستستطيع تذكرها.
- إن ذاكرتي سليمة؛ أقول لك بأن القلب هو الذي يضعف. أعطني هذه الوصفة بسرعة.
- إنها بسيطة. أطلب من أهلك أن يقلو بصلة مفرومة جيدا في الزيت. إخلط مع هذه البصلة المقلية ملء ملعقتين من العسل، اليانسون و حبوب

Scanned by CamScanner

السمسم، أضف الزنجبيل و القرفة، عطر الكل بثلاثة مسامير من القرنفل. إذا تناولت لقمة من هذا العلاج كل صباح، ستختفي توعكاتك.

- سي عبد الرحمان، فليكافئك الله، يوم الحساب؛ كنت أعلم بأن حكمتك ستساعدني كثيرا. سأذهب لشراء المكونات حالا.

تنهد العم حماد، تحرك، ثم انتهى بالنهوض من على كرسيه و رحل، و هو يطلق أنينا صامتا.

تحقق سي عبد الرحمان من التصاق المحاجم التي كان قد وضعها على رقبة زبونه الغامض.

- شرح سي عبد الرحمان: إن مساعدي غائب اليوم و المتعلم في السجن لجنحة لا أعرفها؛ أنا أعمل لوحدي.

تابع مخاطبا أبي:

- أتمنى، أيها المعلم عبد السلام، أنه ليس لديك شيء مهم لفعله، سأستغرق مدة لأكمل هذه الحجامة. لقد قمت بواحدة لأحد أصدقائك البارحة. مولاي العربي العلوي، صانع البلغات. يعجبني هذا الرجل. إنه وقور دائما. رصين الكلام و الأفعال. ما أستغربه، هو أنه ليس لديه أطفال. ربما لديه زوجة كبيرة في السن؟ لا بد من أن أهلك يعرفون زوجة مولاي العربي. يقال بأنها **شريفة** بقلب كبير. بفضل مساعدتها، استطاع مولاي العربي أن يسدد ديونه و يعيد تجهيز ورشته. أعلم بأن أعماله مزدهرة جدا الآن.

كان أبي يسمع بلا مبالاة. كان سي عبد الرحمان يكوي شفرة، ينحني على رقبة المريض ذي المحاجم، يضع أشياء صغيرة داخل درج.

جالسا على مقعد بين مسندين من الخشب الدائري، بقدمين في الفراغ، كنت أنظر إلى الحصير الرث الذي كان يغلف الجدار، عدة الشفرات و المرايا اليدوية، أعجب بعرش الأسقف المرسوم بألوان باهتة.

كان سي عبد الرحمان قد استأنف مونولوجه:

- ألا تظن بأنه يجب عليه أن يتزوج امرأة أخرى؟ ربما لم يئن الأوان البعد، لكنني متأكد من أن أعمال مولاي العربي ستمشي من حسن إلى أحسن. إنه يصنع بلغات نساء ممتازة، تتسم بجودة مدهشة حقا، سواء على مستوى المادة، الزينة أو الألوان. تلقى منتجاته دائما إقبالا كبيرا من طرف النساء. النساء فقط هن من يصنعن ثروة البعض أو دمار الآخرين. في

Scanned by CamScanner

بعض البلدان، تذهب النساء حتى إلى الحلاق لتصفيف شعرهن. لماذا لم أولد في أحد تلك البلدان المذهلة!
أطلق سي عبد الرحمان تنهد أسف طويل ثم استأنف:
- ليس لدي أي حق في التذمر، أنا الحلاق الذي يحظى باهتمام العديد من العائلات من المجتمع الراقي. إنهم كرماء. سيعرف الله كيف يكافئهم. الحمد لله!
دخل زائر جديد.
- قال: السلام عليكم!
- أجاب سي عبد الرحمان: و عليكم السلام و رحمة الله تعالى و بركاته.
حرك أبي شفتيه، سعل الزبون ذو المحاجم ثلاث مرات، بصق في مكان ما و تسمر في وضعيته الصلبة. كان يدير ظهره لنا. كنت أرى أهداب لحيته التي كانت خارجة من الجانب. كانت أذناه الحمراوان كالكرز تشبهان وردتين غريبتين. انطلاقا من لون رقبته، من المرجح أن يكون عجوزا و يعمل في الحقول أو في العديد من الحدائق التي تحيط بفاس. لم يعد يثير اهتمامي. كنت أنظر إلى القادم الجديد، كانت بشرته بيضاء كالشمع، حواجبه كثيفة و لحيته أكثر سوادا من جناح الغراب، كان وجهه يشع لطفا.
جلس على ما يشبه منبرا مرتفعا جدا كان يقابل باب الدكان. لم يتوقف سي عبد الرحمان عن تملقه بالابتسامات و الكلام الطيب. عندما جلس الشاب، أطلق الحلاق حمحمة أو اثنتين ليعبر عن فرحه ثم شرع في الحديث.
- كيف حال والدك المحترم، يا سي أحمد؟ (فليحفظه الله في صحة ممتازة و يكثر خيره!) ألازالت ركبته تؤلمه؟ لقد تحسنت! أنا سعيد جدا لذلك! لقد أتى مرهمي بنتيجة. لقد تجاوز توقعاتي حتى. و أنت، يا بني؟ دعني أهنئك، أتمنى لك السعادة و الفرح. أجل، أنا أعلم مسبقا. أعرف القليل في الحقيقة، يحدثني والدك عنك أحيانا، لقد أخبرني بالحدث السعيد. ستتزوج ابنة سي عمر كاتب العدل.
خلال كل هذا المونولوج، فتح المدعو سي أحمد فمه عدة مرات، حاول أن يتفوه بكلمة لكن كان سي عبد الرحمان يخمن أجوبته و يوفر عليه عناء النطق بها. كان الحلاق يتابع:

Scanned by CamScanner

- إن سي عمر رجل تقي. إن لقاء شخص مثل سي عمر أو والدك المحترم الحاج علي في زمن تكثر فيه الرشوة، الظلم و الطمع هو نعمة من الله.

استدار نحو أبي ليخبره:

- إن سيدي أحمد هو ابن الحاج علي العمراني، بائع الشاي في حي ساغا. لا بد من إنك تعرفه.

- بلى! بلى! لا بد من أنك تعرفه، لقد حج ثلاث مرات في الأراضي المقدسة. لقد لمس الحجر الأسود ثلاث مرات. أنا أدعو الله أن ينعم علي بأن أكون جارا لرجل تقي مثله في الجنة! سيتزوج سي أحمد ابنة سي عمر كاتب العدل. يملك سي عمر، إضافة إلى العلم، الحكمة و اللباقة، ثروات مادية؛ سيزيد الله من ثروته.

خاطب سي أحمد:

- كيف حال دراستك؟ عرفتك منذ أن كنت رضيعا، و ها أنت الآن عالم!

- قال سي أحمد أخيرا: لست سوى طالب للعلم.

قال هذه الجملة بشكل مفاجئ. كان سي عبد الرحمان يمص « سدادة » واحد من محاجمه. أضاف مستغلا دائما سكوت الحلاق الاضطراري:

- سي عبد الرحمان، لا شك في أنك تعلم أكثر مني عن زفافي. إن والدي هما من يتكلفان بهذا الأمر. ليس القرار بيدي.

- قال الحلاق: و منذ متى كان الشباب هم من يقررون عندما يتعلق الأمر بمثل هذه المشاكل الخطيرة؟ أحيانا تكون لديهم بعض التعليمات، لكن تعليمات مجمعة في الكتب و على شفاه معلميهم. تنقصهم تجربة الناس الناضجين، أوجه المقارنة، معرفة الرجال. إن الزواج لا يعني قضاء سهرات لطيفة مع فتاة شابة و جميلة، بل يعني خلق صلات قرابة جديدة مع عائلة أخرى، إنجاب أطفال جيدين قادرين على مساعدتك في الكبر. لدي بنت في سن الزواج. سيكون صهري المستقبلي مثل ابني تقريبا، أنا الذي كنت دائما أتمنى أن يكون لدي إبن.

سحب سي عبد الرحمان المحاجم، ذهب لإفراغها وراء ستار. كان انتفاخان داميان يظهران على رقبة الزبون. أسرع الحلاق بتغطيتهما بالقطن و أقبل نحوي.

Scanned by CamScanner

- سأبدأ بهذا الطفل الذي لا بد من أنه يشعر بالملل. كان سيفضل أن يكون في الشارع بدون شك.
بينما كان يغلفني بمنشفة كبيرة مخططة بالأحمر و الأصفر، كان يتابع بهذه الكلمات:
- أنا أفهمه! الشارع! الشارع، بالناس و روائحه، الناس و نداءاته، الناس و همساته، غنائه، نواحه، شجاراته و أصوات أطفاله، الشارع بأماكنه التي تظللها الدالية و الدلب، الشارع الذي يحلم، الذي يغني و الذي يحرد...
الآن، كان يصبن رأسي و يفركه بيديه المبسوطتين. كانت نظرته ملتبسة. تابع نشيد الشارع خاصته.
- الشارع الذي يكردح فيه الحمار الرمادي الصغير، الذي تتجول فيه القطط الهزيلة، الذي تدور فيه أسراب طيور الدوري، الشارع الذي يعبره زوج من الحمام بريش متقزح، يخصص هذا الشارع، بمواكب حفلاته و مواكب أدفانه، ابتساماته الأكثر لطفا للعشاق، يحيطهم بدفء حنان الأم، يتزين لهم فقط بالألوان اللطيفة و الأضواء النادرة.
- هتف سيدي أحمد: إنك شاعر يا سي عبد الرحمان! و الله! لم يسبق لي أن قرأت شيء بهذا الجمال عن الشارع.
- كيف لي بأن أكون شاعرا و أنا بالكاد أعرف القراءة و الكتابة؟ لا، أنا فقط أحب مدينتنا الجميلة فاس. إن الشارع بالنسبة لي هو احتفال مستمر.
- قال أبي: أنت تعرف كيف تتكلم عنه بشكل جيد.
- سي عبد السلام، نتكلم دائما عن الأشياء التي نحب بشكل جيد. إن نعارة سوقية من الطين يمكنها أن تثير حماسة هاو للنعارات و تحوله إلى ما يسميه سيدي أحمد شاعرا.
اختار سي عبد الرحمان موسى ذات مقبض من الأبنوس، مررها، أعاد تمريرها على حجر لزج بالزيت، مسحها بعناية، جربها على ظفره قبل الشروع في حلاقة رأسي.
بدأ من قمة الجمجمة، أجبرني على إخفاض أنفي حتى الركبتين، فرك بضربات خفيفة زغب رقبتي. عاد بعد ذلك إلى الجوانب، قام بجولة حول الخصلة التي كانت تتدلى على أذني اليمنى. كانت الموسى تحرقني قليلا. لم أكن أقول شيئا. لم أعد أسمع الحديث حتى. انتابني فتور. انتهى بي الأمر بالنوم. ذهب رأسي بطريقة منحرفة و جرحتني الشفرة قليلا.

Scanned by CamScanner

استيقظت منتفضا. كان الحلاق ما يزال يتكلم. كانت قطرات العرق تغطي جبيني، تسيل على طول أنفي.
توقف أخيرا، نفض وجهي و عنقي باستعمال منشفة و نزع عني المنشفة الكبيرة. أحسست بأنني خفيف، كما لو أنه تم إفراغ كل دمي. أحسست بألم في قلبي. بحثت عن أبي بعيني. انتبه لتوعكي، وقف، هب لإنقاذي.
- قال لي: تعال، سيفيدك الهواء الطلق. سي عبد الرحمان، أنا كذلك في حاجة إلى الحلاقة، لكن سأعود في المساء؛ يبدو هذا الطفل متعبا. يا سادة، سأترككم في رعاية الله!

ها نحن من جديد في الشارع؛ لم يسبق لي أن رأيته بهذا الجمال و السحر قبل هذا اليوم. أحسست بحال أفضل بكثير. عند وصولنا إلى البيت، جلسنا من أجل الطعام. كان صدى « الطعارج » يصلنا من كل السطوح.
في الطابق الأول، كانت زينب تضرب بدون إيقاع لعبتها ذات الأربع فلوس، **طعريجة** من الطين التي لم يكن طولها يتجاوز شبرا واحدا. لقد أخذت بالكاد وقتا لآكل، كنت أتطلع لأجعل زينب تموت من الغيرة. وجدت عصيتين، تقلدت « بدربوكتي المزدوجة » و بدأت نُوبة تثقب طبلة أذن كل سكان الحي.
فكرت. يجب أن تكون موسيقاي أكثر غنى. تحولت إلى رجل الأركسترا. جلست، وضعت طبلي أرضا على جوانبه، تمكنت من إمساك بوقي بركبتي. أمسكت يداي العصية بقوة. نفخت في بوقي بكل قوتي. اختلط صوت الطبل بالخوار. صارت الموسيقى مصمة. التحقت بي زينب لتشارك في الحفلة. أقمنا أجمل حفلة موسيقية جعلت جدران بيتنا ترن.
طلبت جميع النساء، مع احتساب أمي، الرحمة. لم تكن موسيقانا تعجبهن. نصحننا بالصعود إلى بلكون السطح و سحر آذان الجيران.
طلبت أمي مني قبل ذلك أن أخلع **جلبابي** و صداري القديم. كانت ترغب في أن تجرب قميصا جديدا علي. ألبستني إياه فوق القديم. كان يطقطق من التجهيز.
كانت أمي تبدو راضية عن عمل الخياطة. كان القميص يغطيني كليا و يسقط حتى الأرض. كانت ذراعاي تضيعان داخل الأكمام الكبيرة. كانت

Scanned by CamScanner

ياقتي التي يبلغ ارتفاعها أصبعين مصنوعة من عدة سموك من القماش و كان يغلق حافتها بريم من الحرير الأبيض.
لم أكن أفكر إلا في طبلي، كانت حصة القياس هذه تشعرني بالملل. استطعت التحرر، استعدت صداري القديم و **جلبابي**. ركضت إلى السطح. كانت زينب في انتظاري برفقة بنتين و ولد قدموا من المنازل المجاورة، كان كل واحد يملك الاته الموسيقية. كان الولد يملك طعريجة مثل البنات، تخلى عنها للحصول على بوقي. كان أكبر مني و يفهم في الموسيقى. عرف كيف يخرج من هذا البوق، الزمزمات الأكثر مفاجئة. استسلمنا لفرح الإيقاع، سكرنا في الضجة.
تسلقت نساء مثقلات بالثياب الجدران لتنظرن إلينا. كن يضحكن من إثارتنا، تشجعننا بكلمات لطيفة كانت تضيع في الجعجعة.
لعبنا حتى غروب الشمس. أتت أمي لاصطحابي. حسب قولها، كُنت قد استمتعت بما فيه الكفاية هذا المساء. كان يجب الذهاب للعشاء و النوم. كانت تنوي إيقاظي مع أول ساعات النهار للذهاب **للمسيد** و بدء السنة بالفرح، العمل و تلاوة الآيات الكريمة. أخذتني إلى المطبخ. هناك، كان المعلف الخشبي الذي يستعمل أيام الغسيل مليئا بالماء الفوار. لجعل هذا الماء أقل حرارة، سكبت فيه دلوا من الماء البارد. خلعت لي ملابسي، غمرتني في هذا الخليط الدقيق. انقطع تنفسي. بدأت بالصراخ، التخبط لكي أتخلص من يدي أمي التي كانت تفركني بقوة باستعمال أسطوانة من الفلين ملفوفة داخل قماش خشن للغاية. بعد استحمامي، أكلت بعض اللقم من خبز مغموس في صلصة طبق من اللحم بالحامض. استلقيت على فراشي. غطتني أمي بغطاء دافئ. سرعان ما غرقت في الظلام، ظلام تملأه بنات صغيرات، مزعجات و غبيات بالإضافة إلى حلاقين ثرثارين.

جرني صوت أمي من أعماق النعاس. سبحت، لوقت طويل، في ضوء أحمر تجوبه شرارات و كواكب ضالة، ثم، فتحت عيني. أعدت إغلاقهما بسرعة، على أمل إيجاد الظلام مريحا جدا و باردا جدا. كان الصوت يصر:

Scanned by CamScanner

- استيقظ، إنها الثالثة صباحا. لقد جهزت لك صدارك الجميل، قميصك الجديد و حقيبتك. لم ترى حقيبتك المطرزة بعد. افتح عينيك! فلتستيقظ إذن!

تباكيت، فركت جفني بحيوية باستعمال قبضتي. حاولت العودة إلى النوم عدة مرات، لكن أمي كانت قاسية. بللت يدها و مررتها على وجهي. توقفت أذناي عن الأزيز. واربت رموشي بحذر. كان أبي لابسا **جلبابا** من الصوف الرفيع، يبتسم لي.

- استعد لتحتفل **بعاشوراء** في **المسيد** مع زملائك. تشجع! تشجع!

غسلت عيناي و أنا في حالة سير أثناء النوم، شطفت فمي، أنعشت أطرافي. استعدت وعيي عندما مررت أمي، على بشرتي مباشرة، قميصي الجديد، الذي كان يطقطق من التجهيز. كان يحكني بشكل فظيع. عند كل حركة، كنت أملأ الغرفة بصوت ورق مدعوك.

لبست صداري الأحمر ذا الرسوم المعقدة و البارزة جدا. تقلدت بحقيبتي، أكملت هذا المجموع الأنيق جدا **بجلبابي** الأبيض الذي كان يرقد في قاع صندوق أمي. كانت تفوح منه رائحة أزهار أشجار البرتقال و الورد المجفف.

ها أنا ذا أصبحت رجلا آخر! كنت مستيقظا كليا. كنت أتطلع للذهاب للكتاب. الملابس، الأحذية، كان كل شيء جديدا. كنت أسبق أبي في الدرج و أنا مفعم بالكرامة و الثقة.

كان الضوء يلمع في كل نوافذ البيت. كان الرجال و النساء يبدأون السنة بالنشاط. أولئك الذين كانوا سيبقون في السرير في صباح مثل هذا، كانوا سيحسون خلال إثني عشر شهرا بالتقاعس و الكسل.

كان صوت أحد المتسولين يبلغنا من الشارع. كنت أسمع صوت عكازه. لا بد من أنه كان شخصا أعمى.

كنت أفقد بلغتي كل ثلاثة خطوات. « كان نوالداي عين كبيرة ». لم تكن الملابس و لا الأحذية على مقاسي. لكنني كنت سعيدا.

ما إن وصلنا إلى الشارع، دس أبي في يدي قطعة نقدية من فئة خمس فرنكات و وضع بين يدي الشمعة الدينية التي قمنا بشرائها. كانت تلك هي هدايا السنة الجديدة خاصتي لمعلم الكتاب.

Scanned by CamScanner

كان المارة الذين نلتقي بهم يبتسمون لي بتعاطف. كانت الدكاكين مفتوحة و الشوارع مضاءة. كنت أبذل مجهودا رهيبا لأحافظ على بلغتي. لمحت من بعيد نوافذ عرش كتابنا.
كدت أفلت شمعتي الدينية من الحماسة. كانت عناقيد ضوئية تتدلى و تحول هذه الواجهة الحزينة و المغبرة عادة إلى زينة رائعة. كانت قناديل الزيت، المتعددة الألوان، تتلألأ و كان وجودها في حد ذاته عبارة عن جو نقي من الاحتفال و الفرح.
حثثت الخطى، كانت أصوات التلاميذ تبدو واضحة في برودة الصباح. كانت تتنافس في المرح مع عشرات الشعلات التي كانت ترقص داخل حمام من الزيت و الماء المصبوغ بألوان قوس قزح. اشتد انطباع الاحتفال المذهل هذا عندما دفعت باب **المسيد**. لم أعد الأمير الوحيد بصدار الجوخ الأرجواني، أصبحت عضوا في اجتماع للأعيان الصغار، كلهم يرتدون ثيابا فاخرة، يتلون تحت إشراف ملك أسطوري أمداح بهجة و دعوات بركة.
تركني أبي وسط رفاق دراستي. وضعت شمعتي الدينية التي وزنها رطل واحد بالإضافة إلى عملتي النقدية من فئة خمسة فرنكات بشكل جليل. تزاحم الأطفال ليدعوا لي مكانا.
كنت أجود الآيات القرآنية بخشوع؟ وصل تلاميذ آخرون. كانت كومة الشموع الدينية تكبر بجانب **الفقيه**. كانت الحرارة تصبح خانقة. كان رأسي مغطى بقلنسوة جلبابي. نزعته. كان قميصي يلتصق بجسمي. كانت وخزات لا تحتمل تجوب ظهري. تغطت يداي و جبيني بلآلئ العرق. نزف أنف أحد التلاميذ و لطخ ملابسه الجميلة بقطرات قرمزية. رفعت عيني إلى السقف. كانت الشعلات الصغيرة ترقص، تئز، تقذف شرارة زرقاء أحيانا. سكتت لأسمعها ترتل كلام الله مثلنا. كانت أصواتها تختلط بخاصة التلاميذ. كنت مقتنعا بأنه لم تكن أي واحدة منها تحتفل **بعاشوراء** صامتة داخل قفصها الزجاجي، لا مبالية بموجات السعادة التي كانت تنتشر على وجوهنا.
هذا الصباح، ضمت الأشياء العادية جدا و الكائنات الأكثر حرمانا أصواتها إلى خاصتنا، كانت تشعر بنفس الورع، تصيح بنفس شدتنا بكبر و رحمة الله، خالق جميع الكائنات الحية.

Scanned by CamScanner

بعد تلاوة القرآن، غنينا أمداحا. كان آباء بعض التلاميذ يترنمون معنا. كانوا قد جاءوا ليرافقوا أطفالهم. ربما لم يكن لديهم عمل ينتظرهم: كانوا يحتفلون **بعاشوراء** في **المسيد** كما في أيام طفولتهم.
كان لون اللمبات يصبح أصفرا، يضعف مع اقتراب النهار. في الشارع، كانت حركة المرور قد أصبحت كثيفة. رفرف دوريان حول الثريات المعلقة على عرش النوافذ.
نطق المعلم بأدعية طويلة بعينين نحو السقف و فاتحا يديه كمن يقدم شيئا. طلب من الله أن يحمي أعمال الأمة الإسلامية و يزيد من ازدهارها، أن ينشر نعمه على الأحياء و الأموات، أن يقوي روابط التضامن بين الناس، و أن يجعل النظام، العدالة و التعاطف تسود على هذه الأرض.
آمين! آمين!
كانت أول مرة أرى فيها **الفقيه** بدون عصا السفرجل. بدا لي وسيما، ملفوفا **بجلبابه** ذي الخطوط البيضاء و السوداء، كان يلبس سلهاما من جوخ رمادي على كتفيه. أعطانا ثلاثة أيام عطلة. نظرا لأن يوم الدخول كان يوم خميس كانت العطلة ستدوم أربعة أيام. قبلت يد **الفقيه** قبل العودة إلى منزلنا. كلفني بتبليغ متمنياته لوالدي بمناسبة السنة الجديدة و نطق ببعض الأدعية لصالحهما.
كانت الحركة تدب في الشارع كثيرا الآن. كان كل المارة يرتدون ملابس جديدة تقريبا. كان البعض يعودون من السوق محملين بسلال من الحلفاء التي كانوا يحملونها بعزلة لكي لا يوسخوا مظاهرهم الأنيقة، كان آخرون يتجولون بدون هدف. كانت أمي قد أخرجت **منصورية** جميلة من الفوال الناعم، مزينة بخطوط من الساتان الأصفر. كانت قد غطت شعرها بمنديل أسود ينتهي بأهداب طويلة متعددة الألوان.
كان المرجل يئز. كان والداي ينتظران عودتي للغداء.
كانت أمي قد حضرت كومة من الحلوى من العجين المورق، على شكل مربعات. كانت تدهنها بالزبدة الطرية و العسل. كانت شهية. شربت كأسين كبيرين من الشاي بالنعناع.
أثناء الطعام، وضع والداي برنامجا للنهار. صباحا، اقترح أبي أن يصطحبني إلى مولاي إدريس، ولي المدينة. بعد صلاة الجماعة، كنا سنعود للغداء. بعد الزوال، كنت سأرافق أمي إلى منزل صديقتها لالة

Scanned by CamScanner

عيشة؟ كنت سأستطيع أن آخذ معي أحد بوقي؛ كان طبل الفخار الهش معرضا للتكسر أثناء الطريق.
كان لحسن طالعي رأي آخر. بعد أن تسكعت مع أبي في الشوارع التي تعج بالمارة، بعد شراء طبق من الخزف الأزرق في ساحة كتاب العدل التي كان بائعو الفخار يعرضون منتجاتهم فيها اليوم، دخلنا إلى مزار مولاي إدريس. قمنا هناك بطقوس صلاة **الولي** و ذهبنا للغداء.
جاءت لالة عيشة لتفاجئنا عند نهاية الطعام. عبرت أمي عن فرح كبير لرؤيتها من جديد. أغدقت المرأتان على بعضهما قبلات حارة، عبارات احترام و كلمات طيبة. تركهما أبي لإسهابهما، اختفى.
كانت لدي رغبة شديدة في الضرب على الطبل، إطلاق بعض أصوات الصفير من بوقي لكنني كنت أعلم بأن أمي لن تسمح بمثل هذه النزوات. امتنعت عن ذلك. كنت أنتظر المساء لأستسلم للموسيقى روحا و جسدا. بقيت في ركن أسمع كلام زائرتنا. لمحت منذ وصولها إلى أن في جعبتها الكثير لتحكيه. كانت أمي متفرغة كليا و ترتعش من الفضول. لم تنسى، رغم كل شيء، القيام بواجبها كمضيفة. نفخت على الجمر، أضافت قدحا من الماء إلى المرجل، شطفت الكؤوس. فتحت علبة من التنك و أخرجت منها ستة قطع من حلوى السميد.
- أصرت أمي : لالة عيشة، اجلسي على الأريكة الكبيرة؛ سيكون الشاي جاهزا عما قريب. لا! لا! قلت على الأريكة الكبيرة، في مركز الشرف! أرجوك، اجلسي براحة.
ارتمت لالة عيشة بين الوسائد، تنهدت من الرضى و بدأت قصتها، في الواقع، لم تكن قصة حقيقية، لكن سلسلة أحداث موصولة ببعضها البعض. أحيانا، كانت الوقائع تصبح معقدة جدا لدرجة أن لالة عيشة نفسها كانت تنسى إلى أي حد وصلت. في تلك اللحظات، كان وجهها يرتبك، كان ما يشبه الخوف يقلص ملامحها، كانت عيناها تفضحان قلقا عميقا، لكن سرعان ما تأتي ابتسامة عريضة لتبدد العاصفة و تستأنف لالة عيشة مونولوجها.
كانت أمي تتلقى نفس الآلام، تتحد في نفس الأفراح، تحس بنفس انفعالات صديقتها. كانت تفتح فمها أحيانا كما لو كانت ستساعدها لكن لعدم إيجادها الكلمة اللازمة، كانت تصمت.

Scanned by CamScanner

كانت بعض المقاطع من شريط النوادر التافهة هذا تملأني بالسرور.
حكت لالة عيشة بأنه في المنزل المجاور لخاصتها كان لجميع النساء، بمصادفة غريبة، اسم خديجة.
للتمييز بينهن، كانت تحدد مهنة الزوج: خديجة، زوجة البقال، خديجة، زوجة الخياط، خديجة، زوجة بائع الزيت.
أضافت لالة عيشة:
- كان سيكون من الأسهل مناداتهن بخديجة الصماء، خديجة الحولاء، خديجة السوداء، كان الجميع سيعرف بمن يتعلق الأمر.
ضحكنا من أعماق قلبنا على هذه الدعابة. غابت أمي للحظات. عادت و معها باقة من القصعين و الأفسنتين. شرعت في تحضير شايها الخاص بالأيام العظيمة. بينما كانت تصب الماء الفوار في إبريق الشاي سألت لالة عيشة.
- كيف حال زوجك؟ حدثيني عن أعماله هل لديه شريك جديد؟ هل يعمل لوحده؟
- ليس له شريك، لكنه لا يعمل لوحده. إنه يوظف ثلاثة عمال. تباع البلغات جيدا و لا أستطيع التذمر. وعدني بأن يشتري لي، عند بداية فصل الشتاء، **قفطانا** من جوخ مشمشي، شيء كنت أتمناه منذ وقت طويل.
- الحمد لله! تنتهي الصعوبات دائما بالتيسر و تقع المآسي في طي النسيان.
- قالت لالة عيشة و هي تتنهد: أجل!
انتظرت أمي تفسيرات جديدة لكن صديقتها سكتت بشكل مفاجئ. أقلقها الأمر.
- فيم تفكرين، يا لالة عيشة؟ تبدين حزينة. أتمنى بأن يكون كل شيء على ما يرام في أسرتك.
تنهدت لالة عيشة دون قول شيء. سكبت أمي قعر كأس من الشاي، تذوقته. بدت راضية. خدمت ضيفتها و خدمتني.
تكلمت لالة عيشة أخيرا. انحنت على أمي و همست لها بصوت خافت:
- نحن حقا مخلوقات ضعيفة، نحن النساء. إن الله وحده هو معيننا و وكيلنا. لا يجب أن نثق بالرجال. إنهم... إنهم...

Scanned by CamScanner

لم تجد لالة عيشة النعت المناسب، اكتفت بتحريك يديها عند ارتفاع كتفيها و رفع عينيها إلى السماء.
سمحت لي أمي بالذهاب إلى السطح لألعب بالطبل. فهمت بأن المرأتين كانتا تملكان أسرارا لتخبرا بعضهما بها و كانتا تخشيان أذني الفضوليتين. فرحت بالمصادفة السعيدة. صعدت إلى السطح. وحيدا في هذا العالم الواسع، كنت أستسلم لفرح الإيقاع. كنت أخترع الألحان الأكثر بربرية. كنت أضرب على كلا الوجهين الجلديين « لدربوكتي المزدوجة » الفخارية، بعصا غاضبة. كانت الجدران تضاعف الأصوات.
خلال هذا الوقت، كانت أمي و لالة عيشة، تنحني الواحدة منهما على الأخرى، تثرثران، تثرثران، تثرثران!...

في المساء، كانت مجموعات من النساء بملابس فاخرة تزين السطوح. كانت « الطعارج » ترن، كانت الغناءات تنهمر من كل مكان. كانت الشمس ما تزال في الأفق بلونها الأصفر، تغطي كل المدينة بلون وردي فاتح و خبازي لطيف. أومضت أول نجمة. قبلت لالة عيشة أمي و رحلت. أشعل قنديل الزيت. كنا بدون مرح. كان طبلي و بوقي موضوعين على أحد التخوت. كنت قد تقززت منهما. استعدت ملابسي القديمة بسرور. من بين ملابسي الجديدة، لم أحتفظ إلا بالقميص؛ بفضل حرارة جسمي، كان ثوبه قد أصبح لينا.
لأهرب من صوت الطبول الذي كان ما يزال يدوي تحت جمجمتي، فتحت علبة العجائب خاصتي، للأسف! لم تعد عيناي تقويان على النظر.

Scanned by CamScanner

الفصل 8

بعد مرور أيام مرح عاشوراء، عادت الحياة إلى مجراها الطبيعي، أي عادت إلى تجهمها، استعادت رتابتها. بدأت الحرارة تشتد. غزت أسراب من الذباب البيت، ملأته بأزيزها، زينته ببرازها. حضر البق الذي كان يغفو في المنجور القديم. كان بقا مسكينا و متعبا من صيام و برد الشتاء. كان ذا لون بني مغبر و هزيلا للغاية، كما لو كان قد أفرغ من دمه.

عندما جلسنا في هذه الغرفة، كانت قبيلتهم تتمتع بازدهار كبير. أعلنت أمي حربا شاملة عليهم. استعملت كل الوسائل لتنال منهم. استعملت أساليب عنيفة: جير حي، كبريت، زيت، قامت بممارسات أكثر مكرا، تعويذات، مساحيق متعددة اشترتها من عند صانع معجزات، أدعية. تمكنت بضع عائلات فقط من الإفلات من المجزرة. كانت أعضاؤها المنحلة تحافظ على وجود أليم على طول روافد و عوارض سقفنا. توقفوا عن التكاثر و عندما كان أحدهم يغامر سهوا بعيدا عن المرتفعات، كان يعلم بأنه لا أمل في نجاته. إن المجيء إلى متناول أصابع الإنسان كان طريقة للانتحار، طريقة مثل أخرى لإنهاء الأمر، للهروب بأسرع ما يمكن من هذا العالم و هذه المآسي.

إلا أن الذباب كان يزداد من يوم لآخر. كل صباح، كانت أمي تطردهم بضربات عديدة من الفوطة. كانوا يخرجون من النافذة بأزيز من الغضب. ببسط الستارة، كنا في مأمن من هذه الدويبات المنغصة. كان بعضها الأكثر مكرا يتابع القيام بجولات في ظليل الغرفة.

منذ اليوم الأول من الحرارة، خلعت أمي حصير الأسل، لفته و خبأته خلف السرير. كانت الأفرشة موضوعة مباشرة على الأرض التي تم غسلها بالكثير من الماء.

أصبحت الأنهر طويلة، تم هجر قاعة **المسيد** نظرا لكونها حارة جدا و ضيقة جدا. نقلنا ألواحنا و محبراتنا ذات صباح و جهزنا الكتاب في مزار يقع على بعد خطوات. كان هذا الضريح يؤوي قبر ولي. كان سكان الحي يجهلون اسمه لكن الشابات اللواتي كن يرغبن في الزواج كن يأتين يوم الخميس و يقمن بالدوران سبع مرات حول القبر. كان هناك أشخاص آخرون مدفونون في هذه القاعة الكبيرة ذات برودة الجنة.

Scanned by CamScanner

كانت مشكاة في أحد الزوايا تحدد اتجاه الشرق، منذ اليوم الأول، عند نداء المؤذن، أمرنا **الفقيه** بالصمت. أرسلنا لنتوضأ في النافورة الصغيرة الدائرية التي كانت تخر في إحدى الزوايا. صغارا و كبارا، مصطفين خلف معلمنا، قمنا باتزان بواجب كل مسلم صالح: الصلاة المفروضة. تكررت هذه الطقوس مرتين في اليوم، طوال فصل الصيف.

كان لتغيير الديكور، النور الخافت الذي كان يسقط من الفتحات الجانبية و نوع من التعاطف على وجه **الفقيه** أثر جيد جدا على صحتي، المادية و المعنوية. بدأت أحب الكتاب، قامت ذاكرتي بمعجزات. انتقلت من عشرة سطور على لوحي إلى خمسة عشر. لم أجد أية صعوبة في حفظها.

في يوم من أيام الجمعة، حكى أبي، مفعما بالفخر، لأمي الحديث الذي دار بينه وبين معلمي الذي التقى به في الشارع في اليوم السابق. كان **الفقيه** قد أكد له بأنني، إذا تابعت العمل بهذا الاجتهاد و الحماسة، سأصبح يوما ما عالما يمكنه أن يكون فخورا جدا به.

صحيح بأن ذلك لم يكن الهدف الذي كنت أسعى إليه. كانت كلمة عالم تذكرني بصورة رجل بدين بوجه عريض جدا تعمه اللحية، بملابس فضفاضة و بيضاء، بعمامة ضخمة. لم تكن لدي أدنى رغبة في أن أشبه مثل هذا الرجل.

كنت أحفظ درسي كل يوم لأنه كان يبدو لي بأن ذلك يجعل والدي يحبانني أكثر و بالخصوص لأن ذلك كان يجنبني لقاء عصا السفرجل الواخزة. كنت قد وضعت لنفسي برنامجا ملتبسا: حتى الغداء، كنت أحفظ الآيات المرسومة على لوحي بورع، بعد الزوال، كنت أمنح نفسي ساعتين كاملتين من النوم، بينما أتظاهر بتجويد الكلمات المقدسة.

كنت أدين بكل مرحي لهذه الاستراحة. كانت روحي تهرب من حدود الكتاب الضيقة و تذهب لتستكشف عالما آخر، لم تكن معرضة لأية إكراهات هناك. في ذلك العالم، لم أكن دائما أميرا صغيرا تطيعه الكائنات و الأشياء، كنت أحيانا أصبح رجلا، الرجل الذي كنت أرغب في أن أتحول إليه فيما بعد. كنت أرى نفسي بسيطا و قويا، ألبس ملابس من الصوف الحريري، بعينين مليئتين باللهب و قلب يفيض حنانا.

في الليل، تحت غطائي، كنت أستأنف نفس المنام. كنت أبني و أعيد بناء حياتي بمغامراتها المتعددة، لقاءاتها، حركاتها اللامعة، عوائقها الحتمية،

Scanned by CamScanner

حتى اللحظة التى تأتى فيها بقع سوداء عملاقة لتفريق العناصر المكيفة بأناة و إحداث الفوضى في هذا العالم الذي بدأت ولادته للتو. كان كل شيء يتبعثر. في ظلام الليل، كانت أجزاء عالمي المشتتة تظهر من حين لآخر، كما لو كانت الدوامة قد حملتها. كنت أعود لأشغالي في الصباح.

كان يوم إثنين، عندما غير أبي من عاداته و جاء للغداء في البيت. شرح لنا بأن **جلابيب** الصوف كانت أقل رواجا من فصل الشتاء و بأنه كان ينوي البدء بإنتاج **حوايك** القطن.

كانت هذه الأقمشة تلقى نفس الإقبال دائما. صيفا و شتاء، لا تستطيع نساء فاس الخروج إلا ملفوفات بهذه القطع البيضاء.

- أنا أنوي اليوم أن أصطحب كليكما إلى سوق المجوهرات.

- منذ مدة و أنت تطلبتن مني تلك الأساور المسماة **شمس و قمر** (ذهب و فضة). حان الوقت لأهديها لك. من جهة أخرى، لقد فقد عاملي والدته التي تعيش في البادية. لقد ذهب لحضور مراسم الدفن؛ سيعود في الغد و سنتابع العمل.

سألت أمي:

- هل ماتت بمرض ما؟

- قال أبي: أظن بأنها ماتت بالخصوص لكبرها في السن، لكن لا يهم، فليرحمها الله!

- اعترضت: لكنني لا أستطيع التغيب عن **المسيد** لمرافقتكم إلى سوق المجوهرات، لدي درسي لأحفظه.

- أجاب أبي: لا تشغل بالك. لقد قابلت **الفقيه** في طريقي و أعلمته بغيابك. أنت تعمل جيدا، سيكون نصف اليوم من الراحة هذا مكافئة مستحقة لك. لكن ربما كنت لا تريد رؤية مجوهرات جميلة و إجراء المزاد؟

- أوه بلى! إن المجوهرات جميلة، جميلة مثل...

لم أجرؤ على إكمال تشبيهي. شجعني أبي:

- جميلة مثل ماذا؟

أخفضت نظري و، بصوت خافت، قلت بخجل:

- إن المجوهرات جميلة مثل الأزهار.

قهقه أبي و أمي. بدت لي ردة فعلهما غير مناسبة. تسرب شك إلى نفسي حول مستوى ذكائهما.

Scanned by CamScanner

بعد الغداء، ذهبت لأجلس في الدرج بانتظار وقت مزاد المجوهرات. مقرفصا على إحدى الدرجات، واضعا يدي على ركبتي، فكرت بعمق في حديث الغداء. مقارنة مجوهرات بأزهار، أكان هذا دليلا على البلادة؟ كانت ضحكات والدي تعبر عن التساهل الذي يبديه الأشخاص الكبار مع الأطفال الذين يقولون لهم كلاما فارغا و صبيانيا. كنت أحس بأن تشبيهي كان يعبر عن فكرة مهمة. كان من الواجب استقبالها بالصمت. كان الضحك في ظرف مماثل يعتبر فظاظة.

كنت أعرف بعض الأزهار: الأذريون و الخشخاش التي تتفتح في فصل الربيع على القبور، الأقحوان البدين الذي يهب للشمس قلوبه الذهبية، اللبلاب الذي يعتدل تحت أقدامنا عندما كان أبي يأخذني إلى تلال باب كيسة في نهار جميل.

على سطح بيتنا، كانت إبرة الراعي، القرنفل و ورود الأصفهان تنبت في قطع من الفخار.

كانت معرفتي بالمجوهرات محدودة. إلا أنني رأيت باذخة منها في الحفلات على النساء و الفتيات. كنت أصنفها إلى فئتين: مجوهرات كل الأيام من الفضة الرمادية الزرقاء التي كانت تفتنني و مجوهرات الحفلات البراقة بالحجيرات الكريمة. كانت هذه الأخيرة، المطرقة بأيدي العباقرة في قصور موجودة تحت الأرض، ما تزال تحتفظ، داخل تألقها و لون الشمس خاصتها، بذكرى النيران التي أذابت مادتها. بالنسبة لي، كانت كل مجوهرات الحفلات هذه قادمة من الكنوز الدفينة، كانت تخص أميرات أحلام نسيت ذكراهم منذ زمن بعيد. كان من اللازم أن يكون المرء ساذجا أو صبيانيا ليصدق بأن هندسة الذهب الدقيقة هذه كانت من عمل صانع تقليدي مجتهد، مستعجل لإتمامها من أجل مقايضتها مقابل عملة مقيتة. كانت هذه الحلي السحرية تخلق من العدم بقوة الحب. كانت تأتي لتوضع على الشعر أو البدن الناعم لأميرات الأسطورة. كانت مجوهرات أخرى تخلق من العدم كذلك تحت خطوات هذه الأميرات نفسها إلا أنها كانت مصنوعة من مادة هشة. هكذا كانت تزهر حقول من الخشخاش، يشرق الحوذان و الأذريون، ينشر البنفسج و السوسن عطرهما.

في سن السادسة، لم أكن أستطيع أن أعبر عن آراء مشابهة عن المجوهرات و الأزهار، لم يكن أي نظام قد علمني بعد كيف أنظم أفكاري

Scanned by CamScanner

بشكل منهجي. كان معجمي ما يزال قليلا لكي أجدد ما يعج به ذهني بشكل مشوش. كان، على ما أظن، هذا العجز عن مشاركة الآخرين باكتشافاتي هو من ولد في كآبة مؤلمة. كنت أسامح الأشخاص الكبار على توبيخي، على الحاجة إلى ضربي لارتكابي لحماقة ما، لكنني كنت أحقد عليهم حقدا شديدا لعدم محاولتهم فهمي.

بالنسبة لأمي، كنت ولدا ممتازا إن كنت أغسل قدمي قبل الدخول إلى الغرفة؛ بالنسبة لأبي، كنت محط فخر إن كنت أقلد حركاته يوم الجمعة لأداء الصلاة المفروضة؛ بالنسبة للجيران، كنت طفلا مثاليا إن لم أرسم جرافيتي على جدران الدرج و إن لم أحدث ضجة عند لعبي في السطح.

كنت لأصبح وحشا من البلادة لو حاولت إطلاعهم على أسرار عالمي الخاص. كنت قد تعلمت على نحو غريزي الحيل التي يجب استعمالها للعيش بسلام مع كل هؤلاء الرجال و كل هؤلاء النساء الذين يتكبرون و يفيضون بتعاليهم.

مقرفصا على إحدى الدرجات، واضعا يدي على ركبتي، كنت أردد بدون كلل: « المجوهرات جميلة مثل الأزهار ».

في البسطة، كانت أمي و فاطمة بزيوية تتهامسان منذ ربع ساعة. من حين لآخر، كان صوت أمي يرتفع بنبرة غاضبة لطرد قط زينب الذي كان يتسكع حولها.

- كانت تقول له: إرحل، أيها الأجرب، الوسخ مثل جرذ المجاري، إذهب لتنزه قرادك في مكان آخر.

كانت الهمسات تستأنف. ضحكة مكتومة، بعض التنهدات المليئة بالنفاق، و اتجهت كل واحدة من النساء إلى شقتها. مر أبي بجانبي:

- قال لي: تابع اللعب، سأعود بعد صلاة **العصر** لاصطحابك أنت و أمك.

- صاحت أمي بصوت عال: ماذا تفعل عند الدرج؟

أجبتها بصوت منافق:

- ألعب.

- كرر الصوت: ماذا تلعب؟

- ألعب الملك.

- قالت أمي و هي تشهد جميع من في المنزل: أنا أتساءل ما الذي يمكن أن يفعله ملك عند الدرج و هو مقرفص على إحدى الدرجات!

Scanned by CamScanner

بدأت الجارات بالضحك.
وجدت زوجة صانع المحاريث أن من الظريف إضافة:
- لالة زبيدة، سيكون لابنك مستقبل باهر، إنه يظن نفسه ملكا منذ الآن!
بقيت جملتها التي تعلوها بعض الوقاحة بدون رد.
سرحت بتفكيري مجددا. و إن كنت أريد أن أصير ملكا! ماذا يمكن لزوجة صانع محاريث أن تفهم في الأمراء و الملوك؟ فلتكتفي بتقشير خضرها، دق توابلها، النحيب على ثمن الزيت و الفحم الذي ارتفع ثمنه بفلس!
لم تكن لديها روح أميرة إطلاقا، لم يسبق لها أن حلمت بنافورة داخل حوض من الرخام! لم تقم في حياتها بأدنى مقاربة بين جمال المجوهرات و الخاص بالأزهار. كانت تلبس دائما في إصبعها الصغير خاتما شريرا من النحاس مزين بحجر زجاجي. في أيام الحفلات، كانت تعلق على صدرها، في عروة تونيكها، يدا من الفضة بنقوش خشنة. هذا المساء، ستلبس أمي في رسغيها سواري **شمس و قمر**. ستكون رحمة شاحبة من الغيرة. طوال أيام عديدة، سأسمعها تقول بدون مرح:
- لست محظوظة، لقد تزوجت صانع محاريث مسكين؛ إنه بالكاد يستطيع إهدائي حبلا لأسحب به الماء من البئر. آه! لم يحسن الله الفصل بين الناس. أعطى لهذه المعاناة و البؤس، و للأخريات الازدهار، الطعام الجيد، المجوهرات الذهبية و الفضية. يا إلاهي! متى سينتهي عذابي؟
ستجيبها أمي بلباقة بالغة:
- أختي، فيم ينفع التذمر و لوم القدر؟ إن الله عادل، يعطي لكل واحد حسب نيته.
- ستقول جميع الجارات: لا إلاه إلا الله!
بالطبع، لا إلاه إلا الله! سمعت المؤذن يعلنها.
- هل هذا آذان **العصر**، يا أمي؟
- أجل، سيعود أبوك عما قريب. خذ، ستغير **جلبابك** للخروج، إن الذي تلبسه مليء بالبقع.
كانت مكنسة **الدوم** الصغيرة تصر في غرفة فاطمة بزيوية، توقفت بشكل مفاجئ. اجتازت جارتنا البسطة بخطوات خفية، أدخلت رأسها في غرفتنا و سألت بصوت خافت.
- هل يجب أن أستعد أيضا؟

Scanned by CamScanner

لا بد من أن أمي قامت بإشارة إيجابية. أسرعت فاطمة إلى غرفتها. صفق غطاء صندوق.
في الطابق الأرضي، نطق صوت أبي الجملة المعتادة:
- ألا يوجد أحد؟ هل أستطيع الدخول؟
أجابته لالة كنزة من آخر معبدها الأسود المليء بدخان البخور:
- أدخل، معلم عبد السلام.
سمع وقع خطواته في الدرج. تركت درجتي و ذهبت لأغير ملابسي.

كان سوق المجوهرات يشبه مدخل قرية النمل. كان هناك تدافع، كان الجميع منهمكين في كل الاتجاهات. لم يكن يبدو بأن هناك من يتجه إلى هدف محدد. كانت أمي و فاطمة بزيوية تتبعاننا، أنا و أبي، بخطوات بطيئة، ملفوفتين بإحكام داخل **حايكيهما** الأبيضين.
كانتا تتحدثان بصوت خافت عن من الأفضل. كانت الدكاكين المرتفعة تعرض أمام أعيننا بريق مجوهرات الفضة الجديدة التي كانت تبدو مقطعة في تنك سوقي، تيجان و أحزمة ذهبية ذات عمل متغطرس جدا كان يفقدها كل نبلها، لم تكن هذه المجوهرات تشبه الأزهار على الإطلاق. لم يكن يكسوها أي غموض. كانت أيد بشرية قد صنعتها بدون حب لإرضاء غرور الأغنياء. كانوا على حق، كل هؤلاء الحانوتيين، ببيعها بالوزن، مثل التوابل. كان هذا يشعرني بالغثيان. كان العديد من الزبائن ينتقلون من دكان إلى آخر. كانت أعينهم تلمع من الشراهة و الطمع. كانت هناك شخصيات أخرى، رجال و نساء، متجمعون هنا و هناك، يكبتون دموعهم. فيما بعد، فهمت المعنى الكامل لكآبتهم. لقد أحسست بنفسي بهذا الإذلال الذي يخلقه المجيء لإعطاء جشع الرجال اللامبالي ما كنا نعتبره من أعز أملاكنا. مجوهرات ارتبطت بها ذكريات، حلي حفلات كانت تشاركنا جميع أفراحنا تصبح في سوق مثل هذا أشياء تافهة توزن، تشتم، تدار و تقلب بين الأصابع ليدفع نصف ثمنها الحقيقي في الأخير.
ما إن وصلنا، جاء سماسرة أو **دلالون** ليقترحوا علينا عدة سلع. كان أبي بالكاد ينظر إليها. يرفضها بتحريك رأسه. كانت المرأتان تتهامسان خلفنا و هما تستندان إلى الجدار. بدا لي الوقت بطيئا جدا قبل أن ينتهي أبي

Scanned by CamScanner

بأخذ، من يدي شيطان كبير بعينين منتشيتين كان ينادي بأعلى صوته بأي رقم كان، زوج أساور تملأه الأحجار الهرمية، أحدها ذهبي و الآخر فضي. أعطاها لأمي التي عاينتها بإمعان، جربتها أربع أو خمس مرات، رجت فاطمة بزيوية أن تضعها على رسغيها لترى مظهرها. ناقشت كل تفصيل لمدة ربع ساعة. ثم أعادتها أمي لأبي دون تفسير. كان السمسار يتابع آليا تكراره للرقم الذي يمثل ثمن هذه البضاعة. مد له أبي المجوهرات، قام بإشارة إيجابية. تغير الرقم و غاص الشيطان الكبير السمسار بين الحشد. كانت يده فقط هي التي تظهر و هي تتحرك فوق الرؤوس ممسكة بالسوارين ثم انتهت بالاختفاء.

انتظرنا طويلا. كان التعب يشل ساقي، كان رأسي يدور، كنت أتثاءب حتى أكاد أقتلع فكي.

بدأ أبي بإبداء علامات نفاذ الصبر. ظهر السمسار. كان الثمن قد ارتفع. بإشارة إيجابية جديدة من أبي، تغير الثمن. ذاب السمسار وسط صخب و دوامة الناس.

كان السوق في أوجه. كان السماسرة يبحون، يصيحون بأعلى صوتهم بأرقام كنا نجد صعوبة في فهمها، يجرون من اتجاه إلى آخر، يمسكون بيد أحد الزبائن و يجرونه خلفهم بحماسة. كانت نقاشات تسمع هنا و هناك. بالكاد كان شجار يتوقف فيبدأ آخر في مكان أبعد.

أحيانا، كانت موجة من الرجال الهاذرين و النساء الهستيريات تغمرنا، تسوينا تجاه الحائط ثم تذهب لتتكسر على ضفة مجهولة.

لم أعد أحتمل التعب. قام أبي الذي لاحظ ذلك برفعي بين ذراعيه و أبقاني مضموما إلى صدره. كان جبينه يسيل بالعرق. بدأت أمي بلعن **الدلال** و هي مغتاظة. بالتذرع إلى جميع الأولياء الذين كانت تعرفهم لكي يفرضوا عليه العقوبة التي يستحق. كان التصرف بهذه الطريقة مع الناس الشرفاء أمرا مخزيا! ما الذي يحاول صنعه خلال كل هذا الغياب؟ هل يحسبنا قرويين جهلة؟ سوف نكتشف الحقيقة. سندفع الثمن المنصف و لن نخدع من طرف هذا الجاحد. لكن الجاحد كان ما يزال غائبا.

فجأة، وضعني أبي أرضا و اختفى بين الحشد. طال غيابه. ارتفعت أصوات في الطرف الآخر من السوق. طغت على الجلبة، هبت مثل العاصفة. حركت أمواج كبيرة هذا البحر البشري. كانت انفجارات من

Scanned by CamScanner

الغضب تنهمر هنا و هناك، تمشي بضع خطوات أبعد من ذلك، تتحول إلى صخب.
و بدأ ناس السوق بالجري؛ كانت فاطمة بزيوية و أمي تكرران « الله! الله! »، تشتكيان بصوت مرتفع من آلام أقدامهما التي كان الحشد يدوس عليها، تحاولان الإمساك **بحايكيهما** اللذين يجرفهما التيار.
في الأخير، مر أبي و السمسار و هما يمسكان بخناق بعضهما البعض. كان السوق يشكل جمهورا لهما. كانت عيون الرجلين حمراء و كانت هناك رغوة عند طرف شفاههما. كان أبي قد فقد عمامته و كان **للدلال** بقعة دم على خده.
رحلا و المتسكعون يتبعونهم.
بدأت أنا و أمي و الجارة بالبكاء بضجيج. أسرعنا باللحاق بهما عشوائيا. وصلنا إلى سوق الفواكه الجافة. لم يكن هناك أي أثر لا للخصمين ولا لموكبهما. كنت أتوقع أن أرى شوارع خالية، بضائع متخلى عنها، عمامات و بلغات ضائعة خلال الذعر العام. خاب أملي. لم يكن أي أثر للشجار قد ترك بصمته في هذا المكان. كان يباع و يشترى، يتسلى و كان بعض الفتيان الأشقياء يبالغون بلامبالاتهم إلى حد غناء لازمات رائجة.
أصبح حزننا خانقا في خضم هذا الجو. كنا نحس بكامل عزلتنا. قررت أمي العودة إلى البيت.
- أضافت: لا جدوى من الجري في جميع الاتجاهات. لنعد للانتظار و البكاء.
في البيت، بمجرد دخولنا إلى غرفتنا، تخلصت أمي من **حايكها**، جلست على فراش، بكت بصمت و هي تضع رأسها بين يديها.لأول مرة، كان بكاؤها يؤثر في. لم يكن ذلك يشبه إطلاقا صيحاتها المرتفعة و نوبات أنينها التي كانت تنكب عليها أحيانا لتريح قلبها. كانت دموعها تسيل على ذقنها، تنبسط على صدرها، لكنها كانت تبقى هناك، دون حراك، متأثرة بوحدتها.
بكيت، أنا كذلك، للحظة، معكرا الصمت بشخير مدو، ثم تمددت على السرير و انتظرت بعينين نحو السقف. لم أكن أعرف ماذا كنت أنتظر بالضبط. لابد من أن كارثة السوق كانت لها نهاية ما. عندما تحدثت أمي عن الانتظار، لا بد من أنها كانت تعني ذلك حقا. بدأنا نحن الإثنان بتنفيذ

Scanned by CamScanner

برنامجنا: كانت أمي تبكي و أنا أنتظر. لقد كنت خبيرا في هذا المجال منذ زمن طويل.
حل الظلام. كانت الأضواء تلمع في كل نوافذ المنزل. بقيت غرفتنا مظلمة. في الظليل، كانت تتشكل وجوه بشعة أمام عيني، تتبدد، تتحول، تترك المكان لشرارات خضراء عملاقة، تعود لتلامس جفوني بفوالاتها البنية.
في الأخير، ثقب صوت أبي الظلمات. جلست. كانت أمي، و الألم يمزقها، ما تزال تطلق تنهدات مكتومة. كانت الدرجات ترن أكثر فأكثر بشكل أوضح تحت خطوات أبي. فتح باب الغرفة، بدى خياله الأسود الغامق بلون رمادي على الجدار.
- قال: لماذا لم تشعلا القنديل؟ أين أعواد الثقاب؟
أجابت أمي بصوت بنت صغيرة:
- إنها على الرف، قبالة علبة الشاي التنكية.
سأل أبي:
- هل نام سي محمد؟
- لا يا أبي، أنا لست نائما.
أشعل عود ثقاب، رفع زجاج القنديل.
- استأنف: ما الذي كنت تفعله إذن في الظلام؟
- كنت أنتظر عودتك.
بعد إشعال القنديل، رفعت أمي رأسها. كان وجهها ما يزال مبللا بالدموع.
انتبه أبي إلى الأمر.
- لماذا كل هذه الدموع؟ لا نملك والحمد لله أي سبب للحزن. لقد اضطررت لترككما لوحدكما لأؤدب هذا الكافر الذي كان يحاول أن يدبر لنا بعض المقالب على طريقته. لقد عاد كل شيء إلى طبيعته الآن و ها هما السواران.
وضع السوارين على الفراش بجوار أمي.
- قالت أمي: لا أريد رؤية هذه الحلي المشؤومة. أظن بأنني لن ألبسها أبدا. أظن بأنه بسببها دخل الشؤم إلى هذا المنزل، من الأفضل أن تذهب لبيعها منذ الغد.

Scanned by CamScanner

- إنهما بالفعل السواران اللذان كنت تريدينهما، خذيهما و لا تقولي كلاما فارغا.
نهضت أمي، أخذت المجوهرات دون النظر إليها، فتحت صندوقها و رمتها بداخله بغضب.
- سوف ترى: إن ما أقوله لك هو الحقيقة. ربما لست ذكية، لست سوى امرأة ضعيفة، لكن قلبي لا يكذب عندما يخبرني عن شخص أو شيء ما. لا يشعرني هذان السواران بأية فرحة. سأحضر العشاء الآن.
لقد أكلنا بالكاد من هذا العشاء المرتجل. ذهبنا إلى النوم. سأتذكر دائما هذه الليلة المليئة بالكوابيس. لا زلت أرى مشاهد العنف و الدم، أعاود رؤية الوحوش، العيون المشتعلة بالحقد التي كانت تلاحقنا، أنا، أمي و أبي. كانت جموع من الرجال قبيحي الوجوه تتبعنا عبر المدينة لتجردنا من ثرواتنا. كانوا يحقدون بالأخص على علبة العجائب خاصتي. ظهر أبي على حصان أسود. كان يحمل علبتي تحت ذراعه. شق الحشد بالعدو. حاولت أياد إيقافه. جعل الحصان يسرع. كان عرف الحصان الطويل يرفرف مثل علم. وجدت نفسي أنا و أمي بشكل مفاجئ في ضيعة مقفرة. كانت أمي تبكي بصمت. كان ضوء الصيف يغمر مساحات الرمل و الحجارة. ظهر خيال أبي على إحدى التلال. كان ينتظرنا. كان بدون حصان. كان ما يزال يحمل علبة العجائب خاصتي تحت ذراعه.
- قال لنا: لقد أنقذتها و أضاف و هو يخاطبني: إنها لك، افتحها إذن.
وضعتها على الأرض الجرداء و فتحتها بحذر. بهرت عيناي: على أرضية من الأزهار المقطوفة حديثا (قرنفل و ورود) كانت توجد مجوهرات ذهبية تعلوها أحجار كريمة كما لو كانت داخل علبة مجوهرات. لم يسبق لي أن رأيت شيئا بهذا الجمال، رفعت رأسي لأقول لوالدي: « أنظرا إلى كنزي. »
ألقيا نظرة على علبتي. أعلنت أمي:
- تكون المجوهرات الجميلة دائما نذير شؤم لأصحابها.
انتباتني موجة برد؛ أعدت إغلاق العلبة، بدأت بالبكاء.
- سيدي محمد، لماذا تبكي؟ فلتستيقظ إذن! استيقظ!
كان النهار قد طلع. كانت الدلاء تخشخش في الفناء. كان أبي ينحنى علي، يجس جبيني، فتحت عيني.

Scanned by CamScanner

- أكد أبي: لا! إنه لا يعاني من الحمى. لا بد من أنه رأى كابوسا بكل بساطة.
كانت أمي تكرر و هي جالسة في سريرها:
- أقول لك بأنه مريض. بعد كل تلك الانفعالات بالأمس و اضطراب سوق المجوهرات الذي ظننت بأنه من اللازم أخذه إليه، لا يدهشني أن يمرض.
- أعلن أبي: هذا الطفل لا يشكو من شيء. إنه متعب قليلا بدون شك. فليتغيب عن الكتاب.
- يا إلاهي! عاقبني، أنا المخطئة الرئيسية، لكن لا تؤذني بابني. أيها الرجل، أقول لك بأنني لا أريد بأية طريقة الاحتفاظ بهذين السوارين. إن الشؤم يدخل إلى هذا البيت بسبب هذه المجوهرات.
توجه أبي نحو الباب. أعلن و هو يلبس بلغته:
- سأرحل، أشعر بأنني سأفقد صبري لو بقيت هنا.
- أجابت أمي: إذهب، أنت رجل، من الطبيعي أن يكون لك قلب من الحجر.
ما كان يجب على أمي أن تقول أشياء مشابهة. ليس من الطبيعي أبدا أن يكون لرجل قلب من حجر. يوما ما، سأصير رجلا، لن يكون قلبي من حجر. أمام هذه الأحداث فقط، يتصرف أبي كما يجب أن يتصرف الرجل. يحافظ على تبصره و رباطة جأشه. كانت أمي تريد أن تراه و هو ينفعل مثلها: التحرك، الصراخ، تعظيم أهمية أدنى الأحداث.
على أية حال، كان أبي على حق: لم أكن أحس بأنني مريض بتاتا. و مع ذلك اضطررت لإطاعة أمي و البقاء في السرير طوال اليوم. بعد الغداء، زارتنا لالة عيشة. لم نسمع أخبارها أو أخبار زوجها سي العربي صانع البلغات منذ وقت طويل. أسرعت أمي بتحضير الشاي. شرعت بعد ذلك بسرد قصة مآسيها لصديقتها القديمة. لقد حكت رحلتنا إلى سوق المجوهرات بجميع تفاصيلها، الكارثة الرهيبة التي حصلت بسبب السوارين، توقفت لتبكي قليلا، استأنفت قصتها التي كانت تتخللها تنهدات، أدعية. تنبأت بحماسة بالكوارث التي لن تلبث أن تضرب بيتنا إن لم يقرر أبي بيع السوارين المشؤومين، السبب الخفي لخرابنا.

Scanned by CamScanner

كانت لالة عيشة، بدافع الأدب، توافق، تتنهد، تهز رأسها، تضرب خديها بشكل خفيف.
نظرت أمي أخيرا إلى صديقتها.
- و أنت؟ لا تخبريننى بشيء عن بيتك. كيف حالك؟ كيف حال زوجك؟
لكي تجيب لالة عيشة، غطت وجهها بيديها و أجهشت بالبكاء. صب سيل من الدموع من خلال أصابعها. هزت تشنجات عنيفة جسمها. كان الألم يخنقها عبر لحظات. أحاطت أمي كتفيها بذراعيها و بدأت بالبكاء معها. توقفت لالة عيشة. كان خداها ما يزالان يتلألآن بالبكاء و أنفها مبللا، قالت لأمي:
- زبيدة، لم يعد لدي أحد في العالم، أنت صديقتي، أنت أسرتي الوحيدة. لقد تخلى عني ابن الحرام الذي بذلت الغالي و النفيس من أجله ليتزوج بامرأة أخرى، ابنة عبد الرحمان الحلاق.
- صاحت أمي: الله! الله! يا أختي، أختي المسكينة، يا إلاهي، ياله من ألم.
بدأت المرأتان من جديد بالبكاء و هما متعانقتان.
جعلتني الحرارة، السرير و هذه المشاهد الشنيعة التي كنت أحس بمأساتها دون أن أفهمها مريضا. أحسست بصداع عنيف في رأسي، هزتني الحمى بكاملي. بدأت أتقيأ على غطائي. أسرعت أمي خائفة و هي تصرخ:
- سيموت إبني، يا صديقاتي، يا أخواتي، ابني! أنقذوا ابني!
اجتاحت الجارات الغرفة، انغلق جفناي. داخل جمجمتي، لم أعد أسمع سوى ضربات طبل عملاق.

Scanned by CamScanner

الفصل 9

لم يأكل شيئا منذ غدائه البارحة. كانت هذه الجملة المنطوقة بتنهد كافية لإيقاظي. كان هناك ظليل كثيف يملأ غرفتنا. كانت أمي تهمس. كانت تخاطب خيالا غامضا و هي واقفة في وسط الغرفة. لم يكن الشكل يتحرك. كان همس غير واضح يسمع من حين لآخر. كانت مقاطع لفظية لا معنى لها تصلني إلى سريري. تركني الشكلان. حاولت التحرك، ضاعف الطبل الذي كان يقرع في جمجمتي شدته. اختلط بظل ذيول الرماد الأحمر الغير ملموسة. حامت غيمة شرارات صغيرة حول وجهي. صامتة و باردة، حولت الديكور الذي كان مألوفا بالنسبة لي إلى جو خيالي. انتشر ألم مشوش في عظامي و جعلني أتأوه.

عادت أمي، اقتربت بخطوات صامتة من سريري، انحنت علي قليلا و بقيت على هذه الحالة مدة طويلة، صامتة جدا كما لو كانت لا تتنفس. كانت تشكل أمام عيني كتلة سوداء بمحيط موبر. كنت أتوقع أن أراها تتبدد و تذوب مثل تلك الأشباح التي كانت تزورني في ليالي الأرق.

انتهت بالتنهد و التراجع خطوة إلى الخلف.

- قلت لها: أنا مستيقظ لكنني أشعر بالألم.

- بما أنك تكلمني فقد تحسنت.

- سألت: لم المكان مظلم؟

- أجابت أمي: إنه المساء، لم أرد إشعال القنديل لكي لا أقلق نومك. لقد عانيت من الحمى طوال الليلة الماضية و هذا الصباح بأكمله. لم تتوقف عيناي عن البكاء. للأسف لا تستطيع عيناي تخفيف ألمك.

- أشعر بالجوع.

- هذا خبر جيد، الحمد لله! سأحضر لك زبدية حساء.

تركتني للحظة. بقيت زبدية الحساء التي أحضرت لي بضع دقائق على ركبتي. كانت رائحة الطعام فقط تريع قلبي. ترجتني أمي لأتذوقه بدون جدوى. كانت قد أسندت جسمي بالاستعانة بعدة وسائد. تدحرجت القطعة، تأرجحت، طارت في الجو، ملتفة حول نفسها، معرضة لقانون الكواكب و النيازك الثابت. كان لأمي وقت كاف فقط لتمسك بالزبدية التي بدأت

Scanned by CamScanner

بالانتشار على الأغطية و تمديدي بحذر بالغ. كانت ضربات الطبل في جمجمتي تغيظني.
لقد كانت الأشياء تنحرف عن مسارها شيئا فشيئا. جاءت أمي لتجلس على مقربة من سريري في فراش منخفض جدا.
نادتها زوجة صانع المحاريث:
- زبيدة، كيف حال سيدي محمد؟ غطيه جيدا و اجعليه يشرب شايا ساخنا، لا شك في أنه قد أصيب بالزكام.
تدخلت فاطمة من نافذتها.
- أنا أظن بالأحرى بأنه أصيب بلفحة شمس. يجب إحاطة رأسه بقشور الليمون و أوراق النعناع.
ربما كان كلاكما على حق، يا أخواتي، لكن إذا لم يتكرم الله بتسكين معاناته، ستكون كل مجهوداتي بدون جدوى. سأجرب كل العلاجات لتسريع شفاء ابني.
أعلن أبي وصوله عند باب دخول المنزل. كان قد وصل أبكر من المعتاد. بينما كان يصعد الدرج، أسرعت أمي بإشعال قنديل الزيت. غمر ضوء أصفر غرفتنا. دخل أبي. جاء لينحني علي. كان محجراه يحدثان ثقبين أسودين في وجهه الذي بدا لي شاحبا و متعبا. لمس جبيني برفق، هز رأسه و أدار لي ظهره دون قول شيء.
وضعت أمي الطاولة الصغيرة المنخفضة من أجل العشاء، أعتقد بأنه كان أتعس عشاء في حياتهما.
من سريري، كنت أرى طبق الخزف البني. لم أكن أستطيع تمييز نوع الطعام الذي كان فيه. كنت أعلم بأنه كان يحتوي على صلصة بالزعفران، خضر و لحم. كانت رائحة الزعفران تشعرني بالغثيان. لم يكن أبي و أمي، كل واحد غارق في تفكيره، يأكلان أو يتكلمان.
ظهر قط زينب من العدم، اقترب بخطوات خافتة من الطاولة، نظر إلى الشكلين الساكنين للمدعوين و ماء من الدهشة. ماء بخجل، بصوت نائح، ضاما ذيله بين قائمتيه الخلفيتين و مدخلا عنقه في كتفيه. كتم مواءه في الجو مثل قطيلة قطنية. تملكه الرعب. حملق بعينيه الصفراوين، طوى أذنيه إلى الخلف، تفوه بشتيمة رهيبة و رحل خارجا بزغب منفوش.

Scanned by CamScanner

لم يكن والداي قد قاما بأية حركة، لم يقولا أية كلمة. كان جزع نهاية العالم يثقل على كل شيء. أجهشت بالبكاء. أفاق أبي من خبوه و سألني:
- أين تشعر بالألم، يا طفلي؟
أجبته و أنا أفوق بشدة:
- أنا لا أشعر بالألم، لكن لماذا لا تتكلمان؟
- ليس لدينا ما نقوله. ارتح و كف عن البكاء.
أفاقت أمي بدورها، أخذت الطاولة و اتجهت نحو مطبخها. عادت و يداها محملتان بصينية و كؤوس للشاي. وجدت أبي واقفا و قد بدأ يستعد للنوم.
- سألته أمي: ألن تشرب الشاي؟
- لا، و من الآن فصاعدا ستنتبهين لكي لا تضيعي كثيرا سكرك.
- هل أنا امرأة مبذرة؟
- لم أكن أفكر في هذا. كنت أريد القول ببساطة بأنه ابتداء من الغد سيكون من الصعب علينا شراء السكر و الشاي كل يوم.
أصبحت أمي شاحبة جدا. فتحت عيني جيدا لكي لا تفوتني أي لقطة من المشهد. وضعت الصينية، اعتدلت في جلستها، واجهت أبي جيدا.
- قالت بصوت منكسر: أنا أحس بمكروه خطير.
بقي أبي صامتا، بجفنين منخفضين.
بشكل مفاجئ، جعتلني طقطقة مدوية أنتفض في سريري، أخرجت مني أنين ألم. كانت أمي قد أطبقت كلتا يديها على خديها بقوة اليأس. جلست على الأرض، انصبت على وجهها، خدشت نفسها، نتفت شعرها دون التلفظ بأية كلمة. سارع أبي بالإمساك بيديها. مكافحا لمدة طويلة. انهارت أمي بوجه مقابل الأرض.
- يا امرأة! ألا تخشين غضب الله؟ قال أبي برفق: ثقي برحمته. لن يتخلى الله عنا. إن ما يحدث لنا، يحدث كل يوم لآلاف المسلمين. غالبا ما يعاني المؤمن. لقد فقدت في ازدحام مزاد **الحوايك** كل رأسمالنا الضئيل. كنت قد وضعت النقود في منديل. لا بد من أنني جعلت المنديل يقع مني أرضا، معتقدا بأنني أضعه في حقيبتي.
كانت أمي قد رفعت رأسها. لم تكن تقول شيئا. كان أبي يتابع بصوته الهادئ:
- لماذا النحيب؟ يجب أن نحمد الله في جميع الظروف.

Scanned by CamScanner

خرجت أمي عن صمتها أخيرا.
- ماذا سنفعل؟
- سأعمل.
- كم أضعت؟
- كل رأسمالي العامل. ليس لدي حتى ما أدفع به لعاملي الذي لم يقبض شيئا هذا الأسبوع. أنا مدين أيضا بشهر من الكراء لصاحب الورشة. كنت أنوي تسديد كل هذه الديون و شراء بعض القطن.
- ألا يمكن للتجار أن يقرضوك؟ أنت معروف بالشرف.
لن أتنازل أبدا إلى حد التسول من هؤلاء اللصوص. و لا أريد كذلك راتب عامل. أنا جبلي و ريفي. لقد بدأ موسم الحصاد للتو، يتم توظيف حصادين. سأذهب للعمل في ضواحي فاس.
- ستجرؤ على تركي مع طفل مريض؟
- هل تفضلين الموت من الجوع؟ هل تريدين أن تكوني محط شفقة صديقاتك و جاراتك؟ سأكون على بعد يومين مشيا من المدينة. سيتحسن سيدي محمد في الغد. حضري له شوربة بالنعناع المدبب؛ غطيه جيدا ليتعرق بغزارة. إن حماه اليوم أقل حدة من الليلة الماضية.
- إن هذه عقوبة متعبة من الله. لقد كان ذلك السواران اللعينان هما من زرعا سوء الحظ في بيتنا. لماذا لا تبيعهما؟
- أنا أنوي بيعهما. سأترك لكما هذه النقود لكي تتغذيا أثناء غيابي. سيبقى إدريس الفظ وفيا لنا، سيأتي كل يوم للتسوق. أطعميه فليس له أحد.
تفكر أبي للحظة.
- سأترككما لوحدكما لمدة شهر. سأحاول ألا أنفق شيئا من راتبي، سيكون بإمكاني أن أعيد إدارة الورشة بمجرد عودتي.
خيم صمت مطبق، صمت ثقيل، رطب، دهني و أسود كالسناج. كنت أختنق. كنت أتمنى بكامل قوتي أن يصفق باب، أن تطلق جارة صرخة فرح أو أنين ألم، أن يحصل حدث خارق للعادة و يحطم هذا الفزع. كنت أريد الكلام، التفوه بأية حماقة لكن حلقي انقبض و خرج تأوه من شفتي.
لم يكن والداي يتحركان، تحولا شيئا فشيئا إلى شخصيات كوابيس. كلما حملقت بعيني لأراهما، كلما أصبحا مبهمين، لا يمكن إدراكهما، تارة شفافين، و تارة بلون أسود حالك، لكن بدون محيط محدد. لأول مرة،

Scanned by CamScanner

شعرت بإحساس الفراغ المطلق، الوحدة بدون رحمة. امتلأ قلبي بالألم. تكونت كرة صلبة في صدري معيقة تنفسي.أغلقت عيني. دعوت بورع. كنت أحس بأنه تم التخلي عني عند أبواب الجحيم.
لا، لم أنس هذه اللحظات بعد. يا إلاهي! أنا أتذكر. أتذكر هذه الوحدة الكبيرة مثل المساحات الشاسعة للكواكب الميتة، هذه الوحدة التي يموت فيها الصوت بدون صدى، التي تطول فيها الظلال في أعماق الفزع و الموت. و القلب الذي ينزف! منبع ألم لاينضب، سيول ساخنة أكثر مما يجب بنيران أحزاني و آلامي؛ صوت بدني المسحوق تحت وزن لعنتك. لم أكن سوى طفل، يا إلاهي! لم أكن أعلم بأن النهار يولد من الليل، بأنه بعد نوم الشتاء، تبتسم الأرض بكل أزهارها تحت مداعبة الشمس، تئز بكل حشراتها، تغني بصوت عنادلها.

تركنا أبي غد اليوم التالي عند الفجر. رحل، بخرج راع من الكاميروبس كمتاعه الوحيد، كان قد اشتراه في اليوم السابق، منجل جديد و حقيبة من الكتان، بسحاب مزلق. كانت أمي قد فصلتها بقطعة **حايك** قطني و حشتها بالمؤن: زيتون أسود، تين مجفف، دقيق محمص و محلى، خبزتان معطرتان بالقرنفل و عشرة **قرشالات**. هكذا نسمي خبزات دائرية صغيرة محلاة، معطرة بالقرنفل و أزهار شجرة البرتقال و مزينة بحبوب السمسم.
كنت مستيقظا عندما رحل أبي. أعطته أمي بضع توصيات و بقيت بعد ذهابه، خائرة على سريرها، تخفي وجهها بيديها. شعرت بإحساس كأنه تم التخلي عنا، كأننا صرنا أيتاما.
لا بد من أن جميع من في الحي كانوا على علم بمشاكلنا المادية و برحيل أبي. كانوا سيظهرون تجاهنا شفقة متباهية أكثر إذلالا من أسوأ احتقار. رحل أبي، بقينا دون دعم، دون دفاع.
كان الأب، في أسرة مثل خاصتنا، يمثل حماية خفية. لا حاجة لأن يكون ثريا، تعطي هيبته المعنوية القوة، التوازن، الثقة و المحترمية.
لم يكن أبي يعود إلى البيت إلا في المساء، لكن كان يبدو الأمر كأن طوال النهار كانت تحصل تحضيرات لاستقباله. كنت أفهم ما يعذب أمي، هذا الصباح، في ضوء النهار الذي كان بالكاد قد بدأ بالطلوع. كانت تدرك في خافية قلبها بأن تحضيراتها ستكون دون جدوى. لا أحد سيدفع بابنا في

Scanned by CamScanner

المساء، لن يحضر رائحة العمل الزكية من الخارج، لن يكون رابطا بيننا و بين حياة الشارع الغزيرة.
بالنسبة لي و بالنسبة لأمي، كان أبي يمثل القوة، المغامرة، الأمان، السلام. لم يسبق له أن ترك بيته؛ كانت الظروف التي تجبره على فعل ذلك هكذا تتخذ في مخيلتنا وجها قبيحا.
كان البيت يستيقظ شيئا فشيئا، يحيي الشمس و أصواتها المعتادة. كنت أحس بحال أفضل هذا الصباح. جلست في سريري. لم يكن لرأسي وزن على كتفي. لم تكن ذراعاي مريضتين بأية حمى.
قلت: أمي، هل الشهر طويل؟
أفاقت أمي من خبوها، نظرت يمينا، ثم يسارا، كما لو كانت تحاول أن تعرف أين تجلس ثم حدقت في بعينين مندهشتين.
- هل تكلمت، سيدي محمد؟
- أجل، أمي، أنا أسألك إن كان الشهر طويلا.
- إن الشهر يدوم شهرا، يا بني، لكن بالنسبة لنا، سيكون الشهر القادم قرنا.
- أنا أعرف الانتظار؛ أنت، لا زلت لا تعرفين، أو، بالأحرى، لقد عرفت من قبل لكنك نسيت.
بدت أمي مندهشة من هذه الملاحظة.
- ما الذي تنتظره؟
- أنتظر أن أصبح رجلا. أنت، لا تنتظرين شيئا منذ أن أصبحت شخصا بالغا.
سكت قليلا قبل أن أضيف:
- عندما كنت بنتا صغيرة، لم تكوني تستطيعين فعل كل ما تريدينه، انتظرت أن تصبحي امرأة لتحققي مشاريعك، شراء الملابس التي كنت ترغبين فيها، الخروج مع لالة عيشة صديقتك، تحضير الأطباق التي كنت تحبين تناولها. أنا، أكل ما تعطينني إياه، لا أخرج لوحدي أبدا، دائما ألبس قمصانا ليست على مقاسي.
كانت دهشة أمي تزداد. لم تكن تعرف بماذا تجيبني؛ كانت تحدق بي بفضول.
كنت أهمس بهدوء:

Scanned by CamScanner

عندما سأصير رجلا، سألبس **جلابيب** بيضاء جميلة ستغسل كل يوم، سآكل كل يوم على الأقل رطلا من الفطائر الساخنة جدا بالكثير من الزبدة، و أحيانا بالعسل. سيكون لدي أربعون قطا يطيعونني دائما. لن يتغوطوا في الزوايا أبدا. على أية حال، سنسكن منزلا آخر بنارنج في الساحة.
أنارت ابتسامة وجه أمي.
- لن تقبل زوجتك بالاعتناء بقطيع قططك أبدا.
- لن أتزوج، أنت، تحبين القطط، ستتكفلين بالأمر.
بصراحة لقد انفجرت بالضحك. فجأة أعاد مرحها كل ثقتي بنفسي. ضحكت أكثر منها؛ كنت أضرب بيدي. وضعت أمي سبابتها على شفتيها و قالت لي:
- ماذا سيقول الجيران لو سمعوك تضحك بهذه الطريقة في يوم رحيل أبيك.
- سيعود أبي قريبا و سنعود أغنياء جدا من جديد.
- لكن لم يسبق لنا أن كنا أغنياء.
- بلى، لم نكن نشعر بالجوع، أليست غرفتنا أجمل واحدة في المنزل؟
- ارتح، يا صغيري، لن تشعر بالجوع أبدا طالما أنا حية، حتى و لو اضطررت للتسول.
حك أحدهم الباب بخجل. نهضت أمي.
- قالت و هي تتجه إلى ممر الدخول: من هناك؟ تبع هذا وشوشة طويلة، كلها همسات و هسهسات. أخيرا سمعت أمي تقول بصوت ملح:
- أدخلي، فاطمة! أدخلي و أعطيه له بنفسك؛ أنا لن يقبله مني، إنه عنيد جدا! هيا ادخلي!
ظهرت فاطمة بزيوية. كانت تحمل في يدها زبدية داخنة. اقتربت مني، أظهرت لي ابتسامة عريضة و سألتني:
- كيف تشعر هذا الصباح، أيها **الفقيه؟**
لم أجب بشيء، لم أرد الانخراط في أي حديث مع هذه المرأة التي أتت لتتملقني لكي تجعلني أبتلع شرابا نتنا.
- لقد حضرت **تادفي** من أجلك! ألا تريد أن تتذوقه؟

Scanned by CamScanner

كنت أحب **تادفي** عادة، هذا الحساء المعطر بالنعناع المدبب. انطلاقا من مبادئي، أدرت وجهي إلى جهة الحائط. كنت أظن بأنني أنهي هكذا أية محاولة إقناع. أتت أمي لتنقذ جارتنا.

- أنا متأكدة من أن هذه الشوربة ستعجبك. بعدها سأرسل زينب لتشتري لك فطيرة.

جعلتهما تترجيانني لمدة أطول. انتهيت بالجلوس. أخذت الزبدية، شممتها بأنف حذر، نظرت إلى المرأتين المنحنيتين علي باهتمام و أعلنت بأنني لا أحب الشوربة الحريفة.

أجابتني الاثنتان باتفاق، بشكل مؤثر، بأنه لم يكن في هذه الشوربة أي ذرة من الفلفل أو الفلفل الأسود. نظرت إلى أمي في العينين و سألتها بشكل مفاجئ كيف لها أن تعرف ذلك إن لم تكن قد تذوقت هذه الشوربة. حاولت أن تجيبني، بحثت عن جملتها، ارتبكت، تنهدت، رفعت عينيها إلى السماء لتشهد العوارض الخشبية المليئة بالدخان و ذهبت لتحتمي في المطبخ.

كانت فاطمة تلح:

- أنا، أؤكد لك بأنه لا توجد أية توابل في هذا **التادفي**. بحركة واحدة، وضعت الزبدية في يديها.

- يعلم الجميع بأنه لا يمكن شرب **التادفي** بدون توابل. ليس لأنني مريض فسوف تجعلينني أشرب صمغ الدقيق.

فقدت فاطمة صبرها.

- أقول لك بأنه لذيذ! تذوق أولا قبل أن تتفوه بمثل هذه الحماقات. خذ بسرعة.

كنت لا أزال أحرد. أصبحت فاطمة حنونة. نادتني بصوت لطيف: حلوى سكرية بطعم الحامض، جبنة صغيرة بيضاء، شعرية بالحليب. لم أكن أستطيع مقاومة كلمات مدللة جدا كهذه، استعدت زبدية **التادفي**. كنت أشعر بالجوع بشكل مقبول، شربت هذه الشوربة اللذيذة ببلعات كبيرة.

بعد ذلك طلبت من أمي أن تنظفني. غيرت قميصي، لبست **جلبابي**. كنت أحس بأنني شفيت و لكن لست قويا كفاية لأعود إلى الكتاب.

طوال بضعة أيام، كنت سأنعم بعطلة حقيقية.

رأتني رحمة عند النافذة و حيتني بفرح:

Scanned by CamScanner

- الحمد لله! سيدي محمد! ها أنت قد استعدت عافيتك. كنا قلقين جدا بشأنك. عدني بألا تمرض مرة أخرى، لأنني أفقد شهيتي، أقسم بالله و بأوليائه المقدسين.
- أجابت أمي من طرف مطبخها: فليحفظك الله أنت و أقرباؤك في صحة ممتازة، يا رحمة، فليعطكم السعادة و الازدهار.
اتكأت رحمة على سياج نافذتها مقررة استئناف الحوار.
- آمين، يا أختي زبيدة. هل رحل سيدي عبد السلام هذا الصباح؟ لقد سمعته ينزل الدرج.
- أجل، لا بد من أنه بعيد الآن.
- سيعيده الله لكما سالما معافى.
خاطبت رحمة كل من في المنزل لتعلن:
- إن الزمن يصبح صعبا على الناس المساكين مثلنا، لكن لنحمد الله في السراء والضراء.
للرد على هذا، عطس أحدهم بشدة في الطابق الأرضي. عطس ثلاثة مرات، ثم تمخط بنخوة. ذكرني صوت أنفه بصوت بوق رمضان. انفجرت ضاحكا بفرح.
أمسكتني أمي من كتفي، أعادتني إلى فراشي. نصحتني بصوت حازم بأن أتمدد. لم أكن قويا كفاية لأقوم بشذوذ مشابه. كان يجب علي البقاء في السرير. أوصتني بتلاوة بعض الآيات القرآنية لكي لا أنسى كل ما حفظته و لكي أجلب البركة إلى بيتنا و إلى أبي الذي رحل نحو المجهول.
جلست على الفراش، بوجه متجهم. لم أكن أرغب في تلاوة آيات قرآنية، لم أعد أرغب بشيء. كنت أسمع بأذن شاردة الثرثرات المألوفة لنساء البيت. لم أكن أعير أي اهتمام لكلماتهن. رغم الشمس، كان كل شيء يبدو لي مظلما. كان وسخ الجدران الذي كنت أراه من نافذتنا يثير اشمئزازي.
أخيرا، قدمت أمي الغداء. كانت الوجبة تتكون من فطيرتين كانتا لي، زبدة زنخة، زيتون أسود و باقة فجل كانت هدية من فاطمة بزيوية أو بالأحرى من زوجها، محمد البستاني.
بدأت بتناول فطيرة. أصبحت عجينية و بدون مذاق في فمي. مضغتها، أعدت مضغها، ممررا إياها من خد لآخر؛ انتهيت بابتلاعها دون لذة.
أخليت الطاولة، وضعت أمي على الطاولة مباشرة برادا من المينا لم نكن

Scanned by CamScanner

نستعمله أبدا و كأسين. دون صينية، دون مرجل في الغرفة، دون الطقس المعتاد الذي كان يسبق تحضير الشاي، كان انطباع فقر يطفو في الجو. وحدها الأسر البائسة من كانت تتصرف بهذه الطريقة.
أجابت أمي على ملاحظاتي بأنها لم تعد تستطيع تضييع وقتها في تلميع الصينية، غسل الكؤوس، صقل البراد القصديري. ماذا كانت ستفعل بوقتها إذن؟ لم أكن أعلم.
بعد الغداء، أوصتني أمي بأن أكون عاقلا جدا، لبست حائكها و ذهبت لزيارة صديقتها لالة عيشة. كان لديهما الكثير لتقولاه لبعضهما البعض.
لا زلت أتذكر الساعات الرهيبة التي أمضيتها في انتظارها. دون أن أجرؤ على الذهاب إلى النافذة، كابحا رغبتي في الجري في الدرج، في القفز على السطح تحت الشمس. ألقيت نظرة على علبة العجائب خاصتي. لم تعد علبة عجائب بل تابوتا ترقد فيه جثث أحلامي المثيرة للشفقة. قمت بتكشيرة فظيعة. لا بد من أن الجارات لم تسمعنني و أنا أبكي. مسحت أنفي بخرقة قديمة كانت مرمية على الأرض. ممددا على ظهري، تأملت البقع المتقشرة التي كانت تتراكم على جدران غرفتنا.
لم تعد تتحرك. كانت تنظم على شرفي حفلات راقصة تفتن العيون فيما مضى. كنت أمضي ساعات و أنا أتابع هذه الأشكال المتغيرة. لم تعد الآن سوى بقع ساكنة تشعرني بالغثيان.
بدأ قلبي بالدق من الحزن، من الفزع، من الغيظ و الغضب. كان يدق بالأخص من الخوف. رغم أحاديث الجارات، الصوت المألوف لمكانس **الدوم**، صرير الشرارات، أزيز المنافخ، كنت أشعر بالخوف. متعبا من دموعي الصامتة، انتهيت بالنوم. عندما عادت أمي، كنت قد أصبت بالحمى من جديد. غطتني بشكل دافئ، جلست بجانب سريري و بكت مطولا. كانت تدندن بهدوء، تتوقف من وقت لآخر لتمسح أنفها، تعود لهمسها.
في المساء، لم تحضر العشاء، نامت باكرا. وجدت صعوبة في النوم. كنت أتحرك في سريري، أستدير، أتقلب دون أن أتمكن من الغطيط في النوم.
بشكل مفاجئ، هبت العاصفة. انقض الريح على بيتنا بهزيز الغضب. صفقت الأبواب. وسط تأوهات، دموع و نعيب العاصفة، سمع لحن شبابة خافت. لم يكن نايا بشريا، تشبه تلك الأبواص ذات السبع ثقوب التي تجعل

Scanned by CamScanner

الأشباح ترقص تحت ضوء النجوم، كانت، بلا شك، بعض الآلات الموسيقية من مادة لامعة و باردة، مطرقة في أعماق المياه من طرف **جن** فقد عقله. كانت تتكلم أحيانا بلغة مؤثرة و عذبة، أحيانا مبهمة، متجهمة، شريرة، أحيانا بحنين شرس. كان هناك نداءات، توسلات، توبيخات، ضحكات الضبع، صراخات ألم طويلة، كلمات حب و جمل غضب.
كان الريح يضحك، يلعب مع الأبواب، يضربها من الغضب. لكي يعيذ قواه المظلمة، تلوت ثلاثة مرات سورة الإخلاص. مرتجفا بكل أطرافي، وضعت وسادة على وجهي؛ انتهيت بالنوم.

كانت حياتي تمضي في عالمين متعارضين. في النهار كنت أعاني من كل أنواع الإكراهات، كنت أشارك في بلايا لم أكن أفهمها، كان الليل يقدمني كطعم لوحوشه، يرميني في فراغ هاوياته، يهديني فواكه لم تكن يداي تستطيعان إمساكها. حياة مزدوجة، مليئة بالعوائق، بالسرابات، المقالب، لكن الأمر انتهى بي بالاعتياد عليها. لم أكن أتصرف، كنت أتحمل. كانت كل قطعة من المستقبل تخبئ ذرة غموض. كانت كل واحدة من اللحظات تتعاقب بشحنة فرحها، للأسف! سريعة الزوال، بوزن ألمها الذي كان يطبع على جسمي كدمته. حسب مزاج البعض أو نزوة الآخرين، كانت أيامي تبدو لي مظلمة أو مشرقة، ليالي، ملجأ راحة، مكان تعذيب، لحظة هناء، محنة الأرواح الملعونة إلى الأبد.
أعطاني هذا مذاق المغامرة فيما بعد، أي: مذاق الموت. كنت أموت كل ليلة لأبعث فورا في عالم بدون أبعاد. كنت أعود للحياة كل صباح لأرى الشمس، غناء الدوريات، خبز القمح و برودة ماء العين. كان للخبز و الماء طعم لذيذ و كنت أفرح لكوني على أرض لا ينقصان فيها. مع ذلك، في ساعات كآبتي و وحدتي، كانا يبدوان لي مرين، تفهين، صلبين على حلقي الضيق جدا.
بالطبع، كنت أفضل النهار على الليل، كانت الأيام تبقى مبدئيا خاضعة لمنطق الزمن، تتعاقب بشكل مرتب جيدا من حيث المظهر. كانت الليالي تخلق شخصيات، مواقع، أزمنة. كان والداي، الجيران، أطفال **المسيد**، المعلم و عصا السفرجل خاصته يسكنون الأرض المشمسة لكن كان

Scanned by CamScanner

يحدث لي في الليل أن ألتقي بهم في بلدان بعيدة محرومين من الضوء، في دروب محفوفة بالمخاطر. كانت علاقاتنا غالبا لا تكون كما كانت عليه في النهار. حاولت عدة مرات تجنبهم لكن كان يتبين بأن مجهوداتي كانت دون جدوى. لم أكن أستطيع الإفلات منهم، لا في هذا العالم، و لا في أي واحد آخر. كان قد عهد لهم بتدليلي أو تعذيبي كما يحلو لهم. بعد ذلك سأدافع عن نفسي. الآن، لم أكن سوى طفل، طفل مصافق كان يشخر بصمت بينما كان جميع الرجال قد ذهبوا للعمل، بينما كانت جميع الجارات قد اغتسلن.

أيقظتني أمي:

- سيدي محمد، أنت تنام بشكل خاطئ، ستصاب بالصعر.

واربت جفني بصعوبة. كان ضوء النهار يغمر غرفتنا.

- انهض و اذهب لتتوضأ، سأطبخ لك بيضة خلال هذا الوقت.

- أحب كثيرا البيض بالزيت مع الفلفل الأحمر و البقدونس.

- أعلم، سأضع فلفلا أحمر، بقدونس و حفنة كمون أيضا.

لم تفلت هذه الجملة من أذن رحمة. وقفت عند نافذتها و صاحت:

- نسمي هذا الطبق بالعجة اليهودية، إنها لذيذة.

أجابت أمي:

- لازال سيدي محمد مريضا، إن لديه وحما مثل المرأة الحامل.

أنصتت كل الجارات إلى الحديث. كانت بعضهن تضحكن، و أخريات تتمنين لي الشفاء العاجل. حكت خالتي كنزة، **الشوافة**، واحدة من ذكرياتها: كانت قد عرفت امرأة شابة حاملا كانت في يوم من الأيام ذاهبة إلى الحمام فرأت في دكان لمشتقات الحليب جبنا أبيض جميلا.

أرادت تذوقه، لكن اللبان، مقتر، تابع للشيطان، رفض إعطاءها أدنى فتات. ولد الطفل بعد بضعة شهور. على بطنه، كانت تبرز بوضوح قطعة جبن أبيض.

كانت خالتي كنزة قد رأتها بأم عينيها.

- قال صوت بدون أدنى سخرية: من حسن الحظ أن قطعة الجبن لم تظهر على جبينه أو واحد من خدوده.

نادى إدريس الفظ من باب الدخول. طلبت منه أمي أن ينتظر للحظة، كانت ستنزل. قطعت ربع خبزة كبير، جرت إلى مطبخها لدهنه بالزبدة الزنخة، لفت قبضة من الزيتون الأسود داخل ورق أدسم و اندفعت إلى الدرج. قبل

Scanned by CamScanner

أن تصعد من جديد، استعارت دلو خالتي كنزة، ملأته بماء البئر و صعدت الدرجات بصعوبة. كانت دائما تتصدر باب مطبخنا جرة الماء الصالح للشرب المصنوعة من طين مسامي. سكبت أمي الدلو فيها. عادت إلي و قالت لي:

- سوف أستعد، سنخرج سوية؛ سنمر لاصطحاب لالة عيشة التي تنتظرنا. سآخذك اليوم لترى شخصا لا تعرفه. ألست سعيدا بالخروج قليلا؟ سنذهب بعيدا...

بينما كانت تتكلم، كانت تلف نفسها بحائكها، تشد حجابها، تنفض الغبار عن بلغتها.

- أنت لا تعرف حي كالكليين، سترى، إنه حي جميل **بدروب** ضيقة ينزل منحدرا، منازل بسقوف مطلية و شجرة تين أو اثنتان تخرج من الجدران و تتدلى على الزقاق. سيعجبك كل هذا. امسح أنفك، ما الذي فعلته بمنديلك؟ فلتمسح أنفك إذن!

كنت أضيع وقتي في البحث عن منديلي، وجدته أخيرا تحت وسادة منكمشة و ملتصقة. شددته لأحصل على مساحة كافية لأضع فيها أنفي. مسحت أنفي بشدة، بشدة لدرجة أن أصابعي كلها تبللت. رميت المنديل و مسحت أصابعي **بجلبابي**.

كنا نهم بالخروج من البيت عندما نادت فاطمة بزيوية أمي.

- لالة زبيدة، إلى أين أنت ذاهبة؟

- لقد دعتنا لالة عيشة لقضاء اليوم عندها، إنها وحيدة جدا!

- ماذا حل بزوجها، سيدي العربي؟ ألم يطلق ابنة الحلاق بعد؟

- لا، لكنني أعرف بأنه يدفع حاليا ثمن نكرانه لجميل لالة عيشة. إن عائلة زوجته تجعل أيامه مرة، إنها تتهمه بترك زوجته الشابة تعاني من الجوع.

نزعت أمي حجابها الذي كان يزعجها لكي تتكلم. كان البيت كله آذانا صاغية. يالها من مصادفة سعيدة أن تعرف أكثر من الآخرين! يالها من فرصة رائعة لتبين لكل هؤلاء الحسودات حجم التقدير الذي تكنه لالة عيشة لها. كانت تبوح لها بكل أسرارها! في النهاية، لمحت إلى أنها كانت تعرف ماهو أطول من ذلك، لكن اللياقة لم تكن تسمح لها بإفشاء كل شيء. رحلنا أخيرا. كنت أمشي في المقدمة، وأنا أحملق إلى عروض البضائع. عند وصولنا إلى سيدي أحمد تيجاني، اتجهت أمي إلى وعاء القرابين. في

Scanned by CamScanner

جدار مغطى بالفسيفساء، كان يوجد ثقب، بمستوى الإنسان، يعلوه سياج من البرونز المتقن الصنع.
لم تضع أمي أي قربان في الثقب. أدخلت فيه يدها فقط، فركت خدها بالمنجور الذي كان يحيط به و همست بدعاء ملتبس، كنت قصيرا جدا لأبلغ الثقب، ألصقت شفتي بفسيفساء الجدار الباردة. أسعد إظهار الاحترام لسيدي أحمد تيجاني هذا أمي.
- قالت لي: تعال، يا عيني الصغيرة، وليحفظك الله من كل شر!
تبعتها. مشينا بضع خطوات. كان بائع فلفل و طماطم قد جلس عند زاوية الزقاق. كان يعرض خضره على الأرض على شكل كومات صغيرة مرتبة جيدا، على شكل هرمي.
- سألته أمي: بكم تبيع طماطمك؟ انحنت، جست هنا، لمست هناك، خلطت الطماطم بالفلفل، أحدثت الفوضى. أجابها البائع، و هو غاضب، بأن هذه السلعة لم تكن للبيع، خصوصا لزبونة مزعجة مثلها.
بشكل وقور، وقفت أمي و نصحته بأن يجمع نفاياته إن لم يكن ينوي بيعها. لا يجب السماح لكسالى من هذا النوع بأن يملأوا الأزقة و يعيقوا حركة المرور. لابد من أنها كانت ستكمل نقدها اللاذع لكنني أمسكت بيدها و أجبرتها على اللحاق بي. تركنا البائع يشتعل غضبا.
إلى يسارنا، كانت توجد بوابة ضخمة مزينة بمسامير و مطارق من البرونز بطريقة جميلة جدا.
- **مي**، قولي لي لمن هذا المنزل؟
- إنه ليس منزلا، إنه مكتب مسيحيين.
- أرى مسلمين يدخلون إليه.
- إنهم يعملون مع المسيحيين. المسيحيون أغنياء يا بني و يدفعون جيدا لمن يعرف لغتهم.
- هل سأتكلم لغة المسيحيين عندما أكبر؟
- فليحفظك الله، يا بني، من أية صلة بأناس لا نعرفهم.
كان شارع زنقة حجامة يقع إلى اليسار، قبالة سوق العبيد القديم. منذ مدخل البيت، نادت أمي لالة عيشة، تمنت لنا قدوما ميمونا من غرفتها في الطابق الثاني و رجتنا لنصعد. كانت تنتظرنا، جالسة أمام مرجلها الذي كان يطلق تدفقات دخان.

Scanned by CamScanner

كانت الغرفة تعكس صورة الأسى. كانت تبدي البؤس و الضجر. لقد عرفتها في أيام أفضل. لم يعد هناك كريتون على الأفرشة، لم تعد هناك سجادة بألوان زاهية! كانت الرفوف الخشبية المطلية بحمولتها من الزبديات الخزفية و الأطباق المزينة قد اختفت، تركت الساعة الحائطية بقعة فاتحة في مكانها على الجدار. لم يتغير عدد الأفرشة لكنها صارت محشوة بلبدة نباتية بدل الصوف. كانت اللبدة قد ضمرت، كانت الأفرشة باردة و قاسية. على أية حال، كانت الغرفة كلها تبدو باردة و قاسية. كان الجو مشبعا بما يشبه الفزع. بدا لي البيت ميتا. كان المستأجرون الصامتون يجلسون، بدون أدنى شك، في الزوايا الأكثر ظلمة من غرفهم. كان قط يموء بشكل يائس على السطح. لا بد من أنه ماء طوال أيام. كان صوته ينزف عند كل نداء.

حضرت لالة عيشة الشاي. قدمته في طبق نحاسي بنقوش ممحوة. كانت تقوم بواجب المضيفة بشرف كبير.

لم يكن أحد يقول شيئا. كان كل واحد من ثلاثتنا يتابع حلمه الخاص، يغرق في أفكاره. كسرت لالة عيشة الصمت.

- سنذهب بالأحرى إلى حي صفاح، لقد سافر **فقيه** كالكليين إلى **الجبل**. يبدو بأنه لازال لديه عائلة في قرية نائية. إن سيدي العرفي الذي سنذهب لاستشارته أعمى. لقد حصلت على المعلومات من خدوج العلوية التي استشارته مرتين أو ثلاثة. لقد أكدت لي بأن كل ما تنبأ لها به قد تحقق نقطة بنقطة.

لدي أمل، يا زبيدة؛ بمساعدة هذا العراف، أنا متأكدة من أنني سأصيب هدفي. نحن مخلوقات ضعيفة جدا، إن السعادة شيء هش. لقد خرب بيتي، لن أرتاح حتى اليوم الذي يعود فيه إلى ما كان عليه.

كانت أمي تهز رأسها، أنا كنت أتنهد لأنني كنت أعرف بأنه في مثل هذه الظروف كان من اللائق التنهد. خيم الصمت من جديد.

قالت أمي في الأخير:

- لالة عيشة، أنا كذلك في حاجة ماسة إلى النصيحة. أنا خائفة على بيتي، على زوجي و على ابني. عندما يحل غضب الله على الناس الفقراء مثلنا فإنه يحولهم إلى رماد. إن الناس الذين « يعلمون » يكونون عونا ثمينا لنا. إن سيدي العارافي يملك سمعة جيدة، سيساعدنا بالتأكيد.

Scanned by CamScanner

- من المسموح للعبد أن يبذل قصارى جهده ليعالج بؤسه، بعدها يجب أن يترك الأمر بيد الله لانجاز نواياه. لنكن على أمل.

نهضت لالة عيشة، التي لم تفقد شيئا من وزنها الزائد، بصعوبة من الأرض، أخذت **حايكها**.

Scanned by CamScanner

الفصل 10

لم نجد أية صعوبة في إيجاد بيت سي العارافي. كان ناس حي صفاح، فخورين بكونهم جيران رجل مشهور جدا، يسارعون بإرشادنا. تطوع طفل في مثل سني بمرافقتنا. دلنا عبر متاهة من الشوارع التي كانت تصبح ضيقة أكثر فأكثر، مظلمة أكثر فأكثر، مليئة أكثر فأكثر بأكوام النفايات و القطط الضالة. وصلنا أخيرا إلى ساحة صغيرة تغمرها أشعة الشمس. في هذا الفضاء المشرق كان يوجد مدخلا طاحونتين مائيتين، ثلاثة أبواب لمنازل عتيقة و فتحة مجاري. كانت سحب من الغبار و الذباب تدور في الجو. كانت روائح متعددة تتعارك فيما بينها: نفايات منزلية، بول حمير، أطباق قليلة الدسم، و كان البنزوين و اللبان يمزجان نفحهما بها.

صوب الطفل الذي كان يرافقنا سبابته اليمنى نحو الباب الرئيسي، دس سبابته اليسرى في أنفه و رحل دون أن يقول شيئا. فتح الباب. خرجت امرأة عجوز بوجه مكشوف تحمل على رأسها سلة من القصب. حدقت إلينا بهدوء، هزت رأسها. اتجهت نحو الزنقة السوداء التي أتينا منها. مشينا واحدا تلو الآخر في ممر الدخول. كنا نضرب الأرض بطرف بلغاتنا قبل أن نحط قدمنا. كان الممر مظلما. لم يكن البلاط متناسقا. من حين لآخر، كانت أمي أو لالة عيشة تطلب من النبي نجدتها. كانتا تتعثران بنفس الحاجز بالدور، بلاطة مرصوفة بشكل خاطئ، آجرة كانت مرمية هناك سهوا.

انعطف الممر إلى اليسار. بهرنا ضوء الفناء. تنهدنا من الرضى: كانت هناك قدم دالية تتسلق على طول الجدار الذي كان يواجهنا. كانت الأوراق، بلون أخضر داكن، تزهوا فوق بياض الجير الذي كان يغطي كل جدران المنزل. كانت هذه الساحة تبدي سلاما رهبانيا. كان هناك حمام يهدل و ترغل يجيبون بلغتهم. كنت أبحث بعيني عن هذه الطيور التي كانت تستقبلنا بفرح لكن دون جدوى. لا بد من أنها كانت تراقبنا من مخابئها المليئة بالظل و البرودة.

لم يكن هناك أحد في الفناء. بقينا هناك بضع دقائق و نحن لا نعرف من نخاطب. تجرأت أمي و نادت:

Scanned by CamScanner

- يا سكان البيت!
سأل صوت امرأة:
- من تريدون مقابلته؟
- استأنفت أمي: يا سكان البيت، هل يسكن سيدي العارافي في بيتكم؟ إننا نريد استشارته. ظهر رأس بنت صغيرة تشبه الزنوج من كوة. دلتنا بعينيها إلى الدرج الذي كان على يميننا.
- قالت: اصعدوا، إن سيدي العارافي يسكن في الطابق الأول.
بالكاد صعدنا ثلاث درجات حتى بدأت لالة عيشة بالتنفس مثل منفخ المسبك:
- نصحتنا: اصعدا أنتما الإثنان، ستنتظرانني عند البسطة.
من البسطة، كانت هناك عدة ممرات تذهب في جميع الاتجاهات بالإضافة إلى عدة أدراج مهترئة كذلك. كانت الدرجات المهترئة تعرقل الصعود.
في نهاية أحد هذه الممرات كانت توجد غرفة سيدي العارافي. كانت ستارة بشرائط صفراء و حمراء تمنع ولوجها.
التحقت بنا لالة عيشة و هي تتعرق و تختنق و تفوق بأدعية و عبارات نداء للرحمة الإلاهية. رفعت الستارة لأمهد الطريق لمرافقتي. ألقت أمي نظرة على الغرفة و سألت:
- هل صحيح بأن سيدي العارافي يسكن هنا؟
- أجل، هذا صحيح، لا خشية عليكم من الاقتراب يا حجاج الله الذين أرسلهم إلينا. أنا هو العارافي، الأعمى المسكين. لا أرفض أبدا استقبال ضيوف الله.
دخلنا، واحدا تلو الآخر، تاركين بلغاتنا في الممر.
- أعلنت لالة عيشة و هي تنطق كل كلمة بتنهد عميق:
- إننا ضيوف الله، يا سيدنا، لكننا ضيوفك كذلك.
- مرحبا بكم! مرحبا بكم! و إن كنتم تشعرون بالعطش، لدينا ماء يروي الحلوق المتجففة. اقتربوا و اجلسوا. لا تستطيع عيناي رؤيتكما لكن قلبي يقول لي بأنكم أناس أخيار. إن بينكم طفلا. تسمع أذناي وقع خطواته على الحصير. هل هي بنت أو ولد؟
- أجابت أمي: ولد.
أضافت و هي تخاطبني:

Scanned by CamScanner

- قبل يد الشريف، يا بني، و اطلب منه أن يباركك.
مد الأعمى يده في الفراغ و قال:
- باركك الله، يا بني، باركك الله! تعال إلى جانبي!
كان وجهه يشرق طيبة. كان وجهه طويلا و هزيلا، بلون الخبز المحروق. لم تكن مقلتاه اللتان تملأن محجريه تثيران خوفي. تقدمت. وضعت يدي في يده. وضعت شفتي على أصابعه. ابتسم لي و جرني بلطف إلى ركبتيه. مرر يده بشكل خفيف على وجهي. جست فيه كل جزء و جوف. توقفت على جبيني، انزلقت نحو الأذنين، وصلت إلى العنق.
خلال كل هذا الاستكشاف، لم يتوقف عن ترديد: « فليبارك الله! فليبارك الله! »
تناول مسبحة كانت في متناول يده و أدارها فوق ظهري سبع مرات. بينما كان يقوم بهذا الطقس، كان يتلو آيات قرآنية كنت أعرفها، لكنني لم أكن أحفظها بشكل تام. توقف أخيرا و قال لي:
- لا بد من أنك تعرف **آية الكرسي**؛ أتلوها دائما، سوف تحميك من كل النوايا السيئة.
كان سيدي العارافي يرتدي قميصا قطنيا واسعا جدا. كان يلبس على رأسه قلنسوة صوفية كانت قد ضاقت عند الغسل. بعد أن قبلت يده مرة أخرى ذهبت لأجلس على بعد بضع خطوات منه. أتت زوجته بدورها لترحب بنا. قدمت لنا ماء باردا جدا كانت تسكبه في قلة فخارية. كان لدي انطباع بأنني سبق و رأيت هذه المرأة. ربما في الحمام العمومي. كانت بشرتها كلون القهوة بالحليب. كانت تتكلم بلكنة تافيلالت. كانت حركاتها خفيفة و مفعمة بالخير. لازلت أتذكر وجهها ذي العينين المتقاربتين جدا، بأنف صغير لكن بشفتين منتفختين جدا. أتذكر كذلك أسنانها المحكوكة بقشور الجوز، أسنان عريضة، مغروزة بقوة في لحم اللثة التي كانت بلون التمر.
صحيح أن سيدي العارافي لم يكن يعيش في رخاء.
كانت الأفرشة موضوعة على حصير من الأسل. ما كان الحصير الأصفر البني ليقاوم القدم لمدة أطول. كانت أغطية الكريتون النظيفة جدا تعاني من الشيخوخة. كان هناك رف في الحائط. كانت تتصدره سكرية وحيدة من التنك مطلية بالأحمر المزين برسوم من الحبر الذهبي، نصف ممحية. كان جلباب سيدي العارافي يتدلى من مقدمة السرير.

Scanned by CamScanner

طلب سيدي العارافي من زوجته أن تحضر له **سلته**. بقيت أنا و أمي و لالة عيشة صامتين. كان حدث هام سيحصل. كنت أشعر بذلك. غمرتني موجة من القلق. كنت أرتعش من الفضول.
وضعت زوجة سيدي العرفي أمام زوجها سلة دائرية من الحلفاء يعلوها غطاء مخروطي كبير. مد الأعمى ذراعه، لمس الغطاء و رفعه ببطئ. مددت عنقي. كنت خائفا على نحو غامض. كنت أتوقع خروج وحش بشع، ربما سحابة دخان كانت ستتحول أمام أعيننا إلى شيطان جاهز لتنفيذ كل طلباتنا.
لم تكن السلة تحتوي على أي شيء مشابه. كانت تفوح منها رائحة بنزوين و لبان عطرة. نظرت عن قرب إلى الأشياء التي كانت يد سيدي العارافي تتأهب لتناولها. ابتسمت.
كانت سلة سيدي العارافي تذكرني بعلبة العجائب خاصتي. كان يعرف « السر ». كان الجميع يقولون بالطبع بأنه عراف ماهر. أي عراف حقيقي لا بد له من أن يمتلك علبة عجائب. لقد فهمت الآن. رغم عماه. كان مرحا و ذا شخصية مسالمة. لم يكن يرى الشمس، الأزهار و الطيور، لكن ليله كان ينتعش أحيانا بالشخصيات التي كان يمثلها كل شيء من سلته. مددت يدي أنا كذلك لألمس الأشياء الصغيرة. أوقفت نظرة من أمي حركتي.
تلا سيدي العارافي دعاء طويلا بصوت منخفض. كانت اليد، بأصابع متباعدة، تحوم فوق محتوى السلة مثل طائر يستعد ليحط في عشه.
توقف و قال و هو يخاطبنا:
- لا تتوقعوا أن أكشف لكم الغيب. إن الغيب ملك لله، القدير، إن هذه المحارات و الأحراز تساعدني لأحس بألمكم، تقربكم من قلبي. عندما سأحدثكم، إن قلبي هو من سوف تسمعونه. سيدي محمد، أليس هذا هو اسم الطفل الذي يرافقكم؟
- أجابت أمي بصوت خجول: أجل.
- إن سيدي محمد يعرف بأن ما أقوله لكم صحيح. إن طفلا طاهرا ما يزال ينتمي إلى الكتائب الملائكية، هذه المخلوقات النورانية. لا تستطيع الحقيقة أن تفلت منه لكونها نورا... اقترب، يا سيدي محمد، أدخل يدك في هذه السلة و تناول شيئا دون أن تراه.

Scanned by CamScanner

نفذت ما طلبه مني حرفيا. استقرت كرة زجاجية، بحجم بيضة، في باطن يدي. كانت ناعمة الملمس و ذات لون مائي. نظرت إليها قبل أن أعيدها إليه. كانت فقاعة هواء كبيرة تلمع في كتلتها الشفافة. كانت أقمار صغيرة تدور حول هذا الكوكب.

لمست أصابع سيدي العارافي الكرة الزجاجية لمدة طويلة. لم يكن يقول شيئا. أصبح وجهه صارما. أخيرا تكلم بهدوء و هو ينطق كل مقطع لفظي على حدة.

- اسمع، أيها الطفل المبارك و تذكر. إن الألماس يسمى، حسب لغة الخبراء، اليتيم، الوحيد لأنه نادر و لعدم وجود أي حجر آخر يمكنه أن ينافسه في الصلابة و الجمال. يمكن لأي رجل أن يسمى مثل الألماس، اليتيم أو الوحيد. من الآن فصاعدا، لا تكن حزينا بعد الآن. إذا تخلى الرجال عن بعضهم، أنظر إلى داخلك. هل تفهمني جيدا، يا بني؟ يا للعجائب، يا للعجائب التي يخبؤها قلبك! عندما تنسى أن تتأمل كنوزك، تعاني صحتك من هذا و تصبح ضعيفا. أنظر إلى الكرة التي أعدتها إلي للتو. بداخل هذه الكتلة الشفافة، توجد صورة الشمس. إنها في مأمن من أي وسخ هناك. إنها منيعة على كل ما ليس نورا. كن مثل هذه الصورة، ستنتصر على كل العقبات. باركك الله، يا طفلي! باركك الله! قرب جبينك من شفتي.

قبل جبيني. بعدها، تلونا بصوت مرتفع، نحن الاثنان، دعاء قصيرا.

كان الانفعال يخنقني. امتلأت عيناي بالدموع. كنت أسبح في الهناء الخالص.

كانت هذه الأحداث قد تركت في أمي و لالة عيشة انطباعا قويا. بقيتا صامتتين في حالة احترام. أبعد سيدي العارافي السلة و طلب أن يشرب. ملأت له زوجته زبدية من طين مسامي بالماء و انصرفت. مسح العراف فمه بمنشفة إسفنجية صغيرة لفها بعد ذلك بشكل كروي و وضعها تحت إحدى ركبتيه. في الأخير، خاطب المرأتين:

- لقد أرسلكما الله إلي لأن قلبكما الجريح. لست سوى عبد متواضع لكن الله اختارني لأساعد إخوتي و أسكن أوجاعهم. فلتكرر إحداكما ما فعله هذا الطفل المبارك ولتدخل يدها في السلة.

Scanned by CamScanner

تنهدت لالة عيشة، وهي تمد ذراعها إلى السلة. تناولت محارة صغيرة. أعطتها لسيدي العارافي و تنهدت من جديد.
كانت المحارة تبدو ذات بياض خارق بين اليدين البنيتين لسيدي العارافي. كانت تتحول إلى تحفة من خزف صيني ناعم، صناعة مجانية من خزاف رائع في لحظة فرحة عارمة. مررها سيدي العارافي من يد إلى أخرى ، لمسها، قربها من شفتيه بتقوى. تكلم:
- ما اسمك أيتها المرأة الكريمة القلب؟
- عيشة، أيها الشيخ.
- كانت المرأة المفضلة عند النبي تدعى هكذا. أستطيع أن أنصحك بمسح كل حزن وجهك؛ لكنك عانيت كثيرا و ما تزالين تعانين بشكل كبير ، لذلك فستستمعين إلى كلامي من دون إصغاء. يبدو الجرح عميقا، إلا أن الشفاء قريب. هل تعلمين، يا امرأة، بأن كل ألم يعلن عن فرح، بأن كل موت يسبق قيامة، بأن كل وحدة تفسح المجال لسيول من الحنان؟ لا يجب علينا السخط، لا يجب علينا أن نطلب من القدر تفسيرا. على هذه الأرض، نخضع لقوانين لسنا قادرين على فهمها. فلنقبل ما يرسله الله لنا. ستجرف العاصفة العش المسكين في دواماتها لكن، بعون الله، سيبنى العش من جديد. سيكون هناك ربيع و أزهار على أغصان أشجار اللوز من جديد.
أطلقت لالة عيشة تأوها و بدأت بالبكاء. أخرجت أمي منديلا لتمسح عينيها. أنا كنت أشعر بالفرح و التحرر. كانت كلمات سيدي العارافي قد وجدت أرضا خصبة. كانت جذورها مغروسة في دم أوردتي. سمعت سيدي العارافي يهمس لنفسه بهذه الأغنية الغريبة:
بإيقاع الأيام اللا مبالي،
بإيقاع الليالي البطيء،
تسبيح الأقمار الجديدة
يحصي الفصول.
خاطب المرأتين من جديد:
- تحدث الدموع أثر ندى نافع. إن كان الندى غزيرا جدا، تذبل الأزهار و تموت، أوقفا بكاءكما ولنتلو **الفاتحة** سويا.
رددنا معا بطنين:
بسم الله الرحمان الرحيم

Scanned by CamScanner

الحمد لله رب العالمين
الرحمان الرحيم
ملك يوم الدين
إياك نعبد و إياك نستعين
إهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.
آمين!
بعد لحظة صمت، مدت أمي يدها إلى السلة بحركة خجولة. أعطت لسيدي العرفي حصيلة صيدها. كانت لؤلؤة سوداء برسوم متعددة الألوان.
ابتسم العراف و سأل أمي عن اسمها.
- أجابت: زبيدة.
- لقد فقدت بصري منذ وقت طويل يا أختي. كان ألمي قد انتشر على شكل طبقات دافئة على خدي. لم يبقى مني سوى الرماد. لم يعد هناك مكان لراحة جسمي. لم يكن هناك ما يكفي من الماء ليروي عطشي. كانت الشمس قد اختفت و كان فصل شتاء دائم يسود العالم.
ماء و شمس يا إلهي
ماء و شمس يا إلهي
سمع الله شكواي. عادت الأرض حنونة و خصبة من جديد. ذهبت إلى التل لأدفئ عظامي. أدخلت أطرافي في الينابيع الصافية. استعاد حلقي المنتعش نبراتي المفقودة. يا أختي، امتنعي عن رؤية الجانب المظلم فقط من الإرادة الإلهية. إن أولياء الله الذين يسهرون على هذه المدينة يهبونك حمايتهم. زوري مزاراتهم. تذكري بأنه عندما يقوم شخص بأمنية من أجل غائب، يجيبه الملاك الحارس: فليرد الله عليك بالمثل.
انتهى سي العارافي بهذه السورة:
قل: « هو الله أحد
الله الصمد
لم يلد و لم يولد
و لم يكن له كفؤا أحد. »
غرق الجميع في صمت تأملي من جديد. محركا بإحساس لا أعرفه، أسرعت بشكل مفاجئ إلى يد سيدي العارافي و قبلتها. كانت نهاية الزيارة.

Scanned by CamScanner

أصلحت المرأتان حجابيهما. نهضتا بصعوبة، رتبتا **حايكيهما**. انحنيتا بالدور على سيدي العارافي لتقبيل كتفه و دس قطعة نقدية متواضعة في باطن يده خلسة. غادرنا الغرفة و دعوات سيدي العارافي ترافقنا إلى غاية الباب. في الشارع، أحسست بأنني تخلصت من عبء كبير. كان العالم يتمثل أمام عيني بنقائه الأصلي. كانت الشمس تلعب على الجدران القديمة، على عروض بضاعة الدكاكين و على العمامات و **الجلابيب** بمرح.

كنت أقول لنفسي: ستتحقق تنبؤات سيدي العارافي. لكن أية تنبؤات؟ لقد تكلم بمفاهيم غامضة جدا! هل فهمت معنى الكلمات بشكل جيد؟ كنت أفهم كل شيء، بحضور هذا الرجل. لم يعد هنا، لكن بقي لدي إحساس بالحرية لم أكن أعرفه حتى الآن. كانت كلماته التي ابتلعتها بشراهة قد تحولت داخل أحشائي إلى موسيقى خالصة. لم يعد التعب يثقل كتفي. بدأت بالرقص. لم تعد أمي و لالة عيشة تريانني. كانتا تمشيان جنبا إلى جنب و هما غارقتان في أفكارهما.

بشكل مفاجئ، توقفت عن النط لأجري و أختبئ في ثنايا **حايك** أمي. أيقظت هذه الحركة انتباهها.

- ما بك؟ أنت أبيض مثل الغسيل. ما الذي يمكن أن يخيفك؟ فلتتكلم!

أصريت على صمتي و التصقت أكثر بأمي.

تدخلت لالة عيشة:

- ما به إذن؟ هل من الممكن أنه يعاني من أوجاع في البطن؟

- إنه لا يريد إخباري. إنه يرتعش خوفا. تكلم، أيها العنيد!

غادرت ثنايا **الحايك** و تنفست بعمق. قلت في الأخير:

- لقد كنت خائفا.

- ممن كنت خائفا؟

- لقد رأيت **الفقيه**، معلمي، مارا. لقد انعطف إلى اليسار، لقد ذهب من الشارع الصغير. كان من الممكن أن يراني.

- ماذا كان سيحدث لك لو رآك. ألست مريضا؟ ألا ترافقك أمك؟ لا يمكن اتهام طفل ترافقه أمه بالتسكع.

- أجبت: أجل، لكن الطفل المريض لا يتجول في الشارع حتى و لو كانت أمه ترافقه.

- لو التقينا **بالفقيه** كنت سأقول له بأنني اصطحبتك لترى طبيبا.

Scanned by CamScanner

- كان سيظن بأنه عذر بسيط و عندما أعود **للمسيد**، كان سيجعلني أدفع ثمن نزهتي.

تنهدت أمي و قالت و هي تخاطب لالة عيشة:

- لم يعد من الممكن إقناع هذا الطفل، إنه يناقش كالرجل.

- أجابت صديقتنا: باركه الله!

مشينا في صمت. في جسر بين المدون، كان هناك بائع رمان قد جلس على الأرض و فتح قفته. لم يكن الرمان ناضجا بعد. كانت قشرته ما تزال خضراء. وقفت أمامه. فهمت أمي موقفي بسرعة. صاحت بي من بعيد:

- تستطيع البقاء هناك، لن تحصل على رمان. إنه ما يزال أخضرا. أنا لا أريد علاجك إذا أصبت بأوجاع العيون.

- أريد واحدة فقط لأتذوقها.

- لن تحصل على حبة واحدة. هيا تعال!

أمسكتني من ذراعي و جذبتني رغم مقاومتي. بدأت بالتباكي. دام نخيري مدة طويلة. اختفت كآبتي دون سبب. مسحت عيني بأكمام جلبابي. شغلني منظر الشارع. كان ما كنت أراه يثير في ملاحظات كنت أعبر عنها بصوت مرتفع. بقيت أثرثر بدون انقطاع إلى غاية البيت.

لم تقل أمي لجاراتنا أية كلمة عن الزيارة التي قمنا بها لسيدي العارافي. كنا نسكن مع **شوافة**. عادة كان على أمي أن تستشيرها في المقام الأول. لكن لم تكن لديها أية ثقة بقدراتها. كنت أتفق معها بشكل ضمني. كانت أفعال كنزة، المستأجرة الرئيسية، تنبع من المجال الشيطاني. كانت معقدة، تتطلب تحضيرات، ترتبط بعدة مصاريف. لم نكن أثرياء بما فيه الكفاية لنسمح لأنفسنا بتضييع النقود في شراء بخور عطرة لأنوف الجن. أضيفوا لكل هذه الاعتبارات حذر أمي، الخوف من فضح جميع أسرارها. لم يكن هناك من يجهل وضعيتنا في البيت، و مع ذلك كان يخيل إلى أمي عكس ذلك.

حكت بأننا ذهبنا برفقة لالة عيشة إلى حي بعيد عن المدينة (لم تكن تستطيع أن لا تحكي شيئا) لكنها تجنبت كل فضول بادعائها أننا ذهبنا لنتبرك في مزارات المدينة. كانت صحتي تستدعي ذلك. إن العلاجات البشرية تبقى بلا فائدة إن لم يتم تقديسها بالنفوح الروحية لرجال الله.

Scanned by CamScanner

في اليوم التالي لخرجتنا مع لالة عيشة، أخبرتني أمي بنيتها في أن تدعني في البيت خلال فترة غياب أبي بأكملها. ذكرت سببين مقنعين: الأول: أنني لم أعد سوى كومة من العظام و صارت بشرتي تشبه لون قشور الرمان؛ الثاني: أصبحت أمي تحس بالوحدة أكثر فأكثر، كان وجودي يجعلها تنسى همومها.

بقدر ما كانت تفعل ذلك من أجل الترفيه كانت تفعله لتجعل أولياء المدينة يشفقون على حالنا، قررت أمي أن تأخذني كل أسبوع لنصلي تحت قبة ولي. كانت مدينتنا تعج بالقبور التي تحتوي على بقايا **الشرفاء**، زعماء أخويات، تقاة مشرعون كانت ثقة الشعب تعترف بقدراتهم. كان كل قديس يملك يوم زيارته الخاص: الإثنين لسيدي أحمد بن يحيى، الثلاثاء لسيدي علي دياب، الأربعاء لسيدي علي بوغالب، إلخ... كل هذا، كنت أعرفه، كان الجميع يعرفه. كان ما قام به أسلافنا يبدو لنا بسيطا، طبيعيا، متناسقا و حكيما بشكل مثالي. لم يكن أحد ليجرؤ على الضحك على ذلك. كان للأيام معنى. بالنسبة لي، كان لها لون حتى. كان الإثنين يرتبط في خيالي بالرمادي الفاتح، الثلاثاء بالرمادي الداكن، داخن قليلا، كان الأربعاء يلمع ببريق ذهبي كمساء خريف، الخميس بارد و أزرق يتباين مع الأصفر البراق ليوم الجمعة، كان امتقاع السبت يعلن انتصار أخضر الأحد. لم يسبق لي أن أخبرت أحدا بهذه الاكتشافات. لو كنت امرأة، لو كنت غنيا، كنت سألبس كل يوم كسوة باللون المناسب. كانت حياتي ستكون أكثر جمالا، أكثر توازنا، أكثر سعادة. لكنني لم أكن امرأة و قلما كنا أغنياء، بالأخص بعد رحيل أبي. كانت أمي تطبخ طبخا قليل الدسم، تخلط دقيق الشعير بخبز الحنطة. قل ضحكها، لم تعد تحكي القصص. كانت تبقى لنا النزه الطويلة التي كنا نقوم بها للذهاب إلى مزارات متعددة مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. كنا نعبر عن نفس الشكاوى، نطلب تحقق نفس الأمنيات. نذرف دائما نفس الدموع الضعيفة و نعود إلى بيتنا. كانت هذه الزيارات تتعبني. لم أكن أستطيع رفض المشاركة فيها. كان وجود طفل يجعل رجال الله أكثر انتباها و أكثر تأييدا.

ذات صباح، كنا نستعد للخروج، عندما طرق أحدهم باب البيت. سأل إن كان المعلم عبد السلام، الحائك، يعيش هنا حقا. أجابته الجارات بالإثبات. نادت كنزة، **الشوافة**، أمي.

Scanned by CamScanner

- زبيدة! زبيدة! هناك من يطلبك.
بطبيعة الحال، كانت أمي قد سمعت كل شيء بقيت في وسط الغرفة، بيد على الصدر، دون أن تنطق بكلمة. من الذي كان من الممكن أن يأتي ليسأل عنا؟ هل كان رسولا يبشر بالخير أو ناقل خبر سيئ؟ ربما كان دائنا نسي أبي أن يخبرنا عنه! كان المبلغ المالي الصغير الذي تركه لنا أبي قبل رحيله قد ذاب. كانت الفرنكات القليلة المتبقية تخص شراء الفحم.
أجابت أمي أخيرا بصوت يرتجف بشكل خفيف:
- إن كان هناك من يريد مقابلة زوجي فقولي له بأنه غير موجود من فضلك.
نقلت كنزة الكلام بصوت عال إلى الغريب الذي كان ينتظر خلف باب البيت. تردد خلفها همس غير واضح. ترجمته كنزة، مفعمة بحسن النية، بهذه الكلمات:
- زبيدة! إن هذا الرجل قادم من البادية، يريد أن ينقل لك أخبار المعلم عبد السلام. يقول بأن لديه شيئا ليعطيه لك.
تشجعت أمي. أضاءت ابتسامة وجهها.
- قالت و هي تسرع إلى الدرج: هذا ما كنت أظنه بالضبط.
نزلت الدرجات بأقصى سرعة. لأول مرة في حياتي، كنت أراها تجري. لحقت بها. لم أكن آمل أن أسبقها في السرعة. عندما وصلت إلى ممر الدخول كانت أمي قد بدأت بالحديث عبر شق الباب مع شخص مجهول.
كان الظل يقول بصوت خشن:
- إنه بخير، إنه يعمل كثيرا و يضع كل ماله جانبا. يقول لكم بألا تقلقوا بشأنه. لقد أرسل معي هذا من أجلكم.
لم أكن أرى ما كان يسلمه لها عبر شق الباب. طوت أمي أسفل كسوتها و ضمت بعناية الكنز الذي سلمه لها الغريب.
- قال الصوت: هناك أيضا هذا، هذا كل شيء. سأغادر المدينة غدا صباحا، سأرى المعلم عبد السلام بمجرد وصولي إلى الدوار. بماذا أخبره من طرفك؟
- قل له بأن سيدي محمد قد تحسن كثيرا.
- الحمد لله! كانت صحته تشغل باله كثيرا. سأرحل؛ السلام عليكم.
- رافقتك السلامة، أيها الرسول الميمون.

Scanned by CamScanner

أغلق الباب، عبرت أمي الفناء و صعدت الدرج بسرعة.
كانت الأسئلة تنهمر مسبقا من كل النوافذ. انحنت رحمة خارج النافذة، أفلتت كنزة ،التي كانت تغسل قرب البئر، دلاءها و صابونها، تركت فاطمة بزيوية مغزلها، كن كلهن يسألن أمي في الوقت نفسه عن صحة أبي، عن عمله الجديد، عن المكان الذي يوجد فيه. لكن أمي كانت تجيب بكلمات ملتبسة متبوعة بكم من عبارات المجاملة. بدا بأن فضول جاراتنا عنيد. كن كلهن يردن أن يعرفن ما أرسله لنا أبي. كنت أشعر بأن أمي تريد أن تجعلهن ينتظرن بفارغ الصبر. عندما وصلت إلى غرفتنا، وجدت على الطاولة المستديرة الصغيرة اثني عشرة بيضة، أصيصا طينيا مشقوقا مليئا بالزبدة و قنينة زيت بلون بني داكن. نظرت إلى أمي، كانت تشع من الفرح. كانت عيناها مليئتين بالدموع.
- قالت لي: أنظر إلى ما أرسله لنا أبوك! إنه لم ينسنا. إنه بعيد، لكنه يسهر علينا. لقد أرسل لنا حتى النقود. أنظر! أنظر!
فتحت يدها. رأيت ثلاثة قطع نقدية تعكس بريقها بلون القمر الواضح.
تم همس هذا المونولوج بصوت خافت، لكن الآذان التي كانت تترقب هذه اللحظة سمعت كلمة نقود. انتقلت هذه الكلمة السحرية من فم إلى آخر. عادت جاراتنا النصف راضيات إلى أعمالهن. كن يعلمن بأن أمي لن تخفي ثروتها عنهن لمدة طويلة. أنا، كنت أفكر بالخصوص في نزهتنا التي كانت تبدو مشبوهة جدا. لم أكن أتأسف عليها. غمرتني بهجة أمي. كل شيء في و حولي بدأ بالغناء. كنت أردد في نفسي: « نحن أثرياء! نحن أثرياء! ». قبل أسبوع، لم أكن أجرؤ حتى على التفكير في مدى فقرنا. كان البؤس يسكن جدران بيتنا، كان يشبع برائحته حتى الغسيل. ظهر الرسول الخفي هذا الصباح في حياتنا، بدد فزعنا، تخوفنا، قلقنا. كان علينا، أنا و أمي، أن نثق بحسن طالعنا و ننتظر.
- قالت لي أمي: سيدي محمد، إذهب للعب على السطح إن كان ذلك يسرك، لدي الكثير لأفعله اليوم لكي أصطحبك إلى قبر سيدي علي مزالي، سنذهب، إن شاء الله، الأسبوع المقبل أو في أحد الأسابيع القادمة.
لم تكن لدي أدنى رغبة في الصعود إلى السطح. كانت الشمس، بلون أبيض معدني، تحوله إلى جهنم. أطللت من نافذتنا. كانت كنزة ما تزال تغسل قرب البئر. كان قط زينب الذي أنهكته الحرارة ينام في زاوية من

Scanned by CamScanner

الفناء ممددا بكامل طوله. سمعت أمي تتحدث إلى فاطمة بزيوية في البسطة. كانت فاطمة تشكرها، تقوم بدعوات لازدهارنا. دام الحوار مع رحمة التي ذهبت أمي لتزورها في غرفتها مدة أطول. كان دور **الشوافة** هو الأخير. انزوت مع أمي في غرفة الاستقبال الكبيرة. انتهى حديثهما عند نهاية من الصباح.

على الطاولة المستديرة، لم يبقى إلا ست بيضات. كانت أمي قد تقاسمت مع جاراتنا بشكل عادل. كنت أحب البيض، كانت رؤيته تجعل لعابي يسيل بغزارة. قبل تحضير الطعام، صعدت أمي إلى السطح. سمعتها تتكلم مع الزنجية التي كانت تسكن في منزل مجاور. في المساء، كان الحي كله يعرف بأن رسولا قد جاء من بادية بعيدة، محملا بثروات عديدة كانت مرسلة إلينا.

جاءت لالة عيشة بشكل مفاجئ. لم يفاجئني ذلك. كان حضورها بالنسبة لي مرتبطا بكل الاحتفالات العائلية. لم يكن فرحنا، على وجه الخصوص، فرح أمي، ليكتمل لو لم تتقاسمه مع صديقتها القديمة.

أسرعت أمي بوضع الطاولة. ضحت بالست بيضات. أكلناها مقلية. خلال الطعام، حكت حدث اليوم بتفاصيله. وصفت شكل مرسول أبي (كانت بالكاد قد رأته في الظل)، تحدثت عن مفاجئتها و تخوفاتها، شكرت الله على نعمه و رجته بورع أن يسهر على عبيده المتواضعين الذين كنا من أكثرهم تواضعا.

- سألت أمي لالة عيشة: و أنت! كيف تجري أمورك؟

- الحمد لله! الحمد لله! تعالي غدا لزيارتي، أنا أحضر لك مفاجأة.

- هل من الممكن أن يكون زوجك قد عاد إلى البيت؟

- إنه يأخذ وقته و يدفع الثمن غاليا للمعاناة التي سببها لي. لكن تعالي غدا صباحا، ستعرفين المزيد. يجب أن أتركك الآن. لقد مررت فقط لأطلب منك أن تأتي في الغد.

نهضت لالة عيشة، لفت نفسها **بحايكها** و توجهت إلى الدرج.

Scanned by CamScanner

الفصل 11

كانت لالة عيشة تطرد الذباب بالعديد من ضربات الفوطة، كانت توبخهم مثل أطفال فظيعين.

- هيا، أخرجي، أيتها الدويبات البائسة؛ أنت توسخين كل ما تلمسينه؛ عندما أحاول أن أستريح، تزعجينني بحركتك و أزيزك.

لاحظت وجودنا عند عتبة الباب. بقيت ذراعها متدلية؛ أنارت ابتسامة وجهها.

- مرحبا بكما. أدخلا، اجلسا، لتستريحا. يصبح هذا الذباب لا يحتمل. الحرارة و الذباب، العديد من البلايا التي يرسلها الله إلى عباده ليختبر صبرهم. تكلمي قليلا، زبيدة، لا تبقي صامتة.

كانت أمي لترغب في الاستجابة لطلب مضيفتنا عن طيب خاطر، لكن كيف تقول كلمة؟ كيف تستهل حديثا مع شخص أصابته حمى الإبادة يجري من ركن غرفة إلى آخر، ملوحا بفوطة كبيرة عوضا عن علم؟ صحيح أن الذباب كان يسخر منها قليلا. كان يحط بمجموعات على وسادة، ينتظرها متظاهرا بالقيام بوضوء دقيق، لكن ما إن كان يراها تقترب حتى كان يصدر لحن حرب، يطير، يحوم للحظة في نواحي السقف و ينزل مباشرة على السرير أو الفراش.

تخلت لالة عيشة عن الكفاح. غابت للحظة لتذهب إلى مطبخها لإحضار مرجلها النحاسي و الموقد. كانت الصينية المعدة مسبقا تتصدر وسط الغرفة. كانت مغطاة بحجاب مطرز بالذهب. كنت أرى أسفله، بفعل الشفافية، البراد القصديري و الكؤوس. أخيرا، بدأت أمي و لالة حديثا حقيقيا، أعني حوارا. بدأ ،مثل كل حوارات النساء، بأسئلة عن صحتيهما. لقد رأتا بعضهما في اليوم السابق. كانتا قد تبادلتا نفس الأسئلة و نفس الأجوبة. بصراحة، ليس تماما: لقد واجهت لالة عيشة صعوبة في النوم عند بداية الليل، لكنها لاحظت سريعا بأن ذلك كان راجعا لقساوة الفراش. غيرت السرير، نامت كالحجر.

- سألت متظاهرا بالبراءة: هل الصخور تنام؟

- قالت لي أمي: أصمت أو اطرح أسئلة معقولة.

Scanned by CamScanner

ذكر هذا الحدث أمي بقصة زينب، ابنة جارتنا. كانت قد تركت حجرا كبيرا يسقط على الإصبع الكبير لقدمها، القدم اليمنى، وضحت أمي.

- سألت لالة عيشة مبدية علامات قلق: الله، هل حدث هذا بعد مدة طويلة من انصرافي؟

- أجابت أمي: كلا، لقد حدث هذا منذ سنتين؛ أتذكر ذلك اليوم كما لو كان البارحة. كنت أفرم الخبازى على السطح عندما سمعتها تصرخ...

في هذه اللحظة تماما، سمع صوت طفل في البيت كله. حملقت أمي، محرجة. نظرنا إلى بعضنا و نحن متفاجؤون كليا و قهقهنا كثيرا. أنا كنت أضحك كثيرا لدرجة أن دموعي غمرت خدي.

- نطق صوت رجل: الحمد لله! الحمد لله! إن الضحك نعمة من الله.

التفت لأرى الزائر الذي كان يتجرأ على الدخول هكذا إلى غرفة تثرثر فيها امرأتان لم تكونا لا زوجتيه و لا قريبتيه. كانت امرأة تقف في إطار الباب.

هل سمعت جيدا؟ نظرت إلى أمي و لالة عيشة على التوالي، لكن لم تكن أي واحدة متفاجئة مثلي.

- قالت لالة عيشة: مرحبا بك، يا سلامة، كانت أمي قد بدأت بطرح أسئلة على القادمة الجديدة عن صحتها، صحة أصدقائها و أطفالها. حسب ما علمته فيما بعد، لم يكن لديها أطفال. كانت سلامة مزوجة محترفة.

التفتت لالة عيشة إلى أمي.

- قالت لها: إنها المفاجأة التي أعددتها لك.

- لكن، يالها من مفاجأة رائعة! لقد مر زمن طويل لم أحظى فيه بفرحة لقاء سلامة. كانت آخر مرة التقينا فيها هي حفل زفاف قريبة عيشة، زوجة بائع الحصائر. كان زفافا جميلا جدا!

- اليوم، لدى سلامة أشياء لتحكيها لنا؛ هل عرفت ما هي؟

- لا فعلا، لا أعرف.

كنت أعرف أمي. لم تكن عيناها تقولان الحقيقة كلها.

لم تتكرم سلامة بإلقاء نظرة على شخصيتي المتواضعة. لا بد من أنني كنت أبدو لها صغيرا بشكل مضحك، هزيلا بشكل مضحك. كانت سلامة تنتمي إلى ذلك العرق المنقرض الذي أنجب أسطورة العمالقة. تقدمت بخطوة عظيمة نحو الأريكة الكبيرة، جلست في مرتبة الشرف. بصدر

Scanned by CamScanner

مستقيم، يدين منبسطتين على الركبتين، بقيت صامتة، ساكنة مثل كتلة من الجرانيت.
لم تكن أية عضلة من جسمها تتحرك، كانت عيناها فقط التي تحط ببطء على كل شيء. كنت خائفا منها بشكل ملتبس. كانت تجذبني و تضايقني في الوقت نفسه. كنت أنتظر منها أن تتكلم و أنا مكور على وسادة، تحركت شفتاها الغليظتان اللذان كان يعلوهما شارب خفيف بشكل لا يلاحظ. لم يخرج أي صوت. كانت الرغبة في سماعها تتحدث تجعلني أرتجف. لم أعد أدرك حتى إن كانت أمي و لالة عيشة صامتتين أو تثرثران كالعادة. أغلقت عينيها، أعادت فتحهما و أعلنت بأنه بعد الشاي، سيكون لديها الوقت الكافي لتخبر أخواتها الصغيرات عن الأحداث التي تتحضر. أضافت:
- أستطيع أن أؤكد لكما بأن هناك أحداثا مهمة تتحضر.
أفلتت ضحكة صغيرة طريفة، ذات بهجة عارمة، من لالة عيشة. كانت هذه الضحكة فتية جدا، باردة جدا، ربيعية جدا لدرجة أن لالة عيشة احمرت من التشويش. نهضت سريعا، ذهبت لإحضار السكر و النعناع.
بدأت أمي بسرد قصة الأعراس التي حضرتها. حضر الشاي في وقت قياسي. خدمت لالة عيشة الجميع مدت لي كأسي بأصبعين من الشاي في الحقيقة. احتججت. طالبت بكأس مليء بالكامل مثل الذي أحصل عليه في بيتنا.
قطبت أمي، عضت شفتها السفلى لتعني لي استنكارها. لاحظت سلامة وجودي أخيرا. ابتسمت. أنارت أسنان صفراء عريضة، لكن مغروزة بمتاتة وجهها.
- أعط شايا لهذا الصبي، أنا سأعطيه حلوى.
بحثت في جيب قفطانها، أخرجت منديلا مطرزا. كان يحتوي على سابليين و كعب غزالة. حصلت على كعب الغزالة و تقاسمت المرأتان السابليين.
بعد صمت جديد، طلبت أمي و لالة عيشة، و الفضول يلتهمهما، بصوت واحد:
- إحكي، يا سلامة، لا تجعلينا ننتظر طويلا. إحكي.
- أجل، من الأفضل لي أن أبدأ. هلا اتصفتم بالصبر لسماعي حتى النهاية؟

Scanned by CamScanner

- طالبت المرأتان بشراهة: إحكي، يا سلامة! إحكي!
- أعرف قلبيكما، إنهما نبيلان و مفتوحان للتعاطف. لالة عيشة، لقد كنت مخطئة جدا في حقك، هل يمكن أن تسامحيني في يوم من الأيام؟
قامت لالة عيشة بحركة اعتراض. أطلقت تنهدا طويلا. أطلقت أمي بدورها تنهدا عميقا. تنهدت سلامة كذلك قبل استئناف قصتها. لم أكن أستطيع ألا أفعل مثل الجميع، خرج تأوه على شفتي. لم يلاحظه أحد. كانت سلامة قد بدأت بالكلام.
- لقد قدر الله (و كل شيء مقدر من طرفه) أن أكون الوسيطة في هذا الزواج الذي جعلنا جميعنا تعساء. أنت، يا لالة عيشة، لأنك فقدت مودة زوجك مؤقتا، عانت لالة زبيدة لأن صداقة طويلة تجمعكما، لاحظ سيدي العربي سريعا بأنه عقد عيشته هدرا، أما فيما يخص ابنة الحلاق فستتحول عما قريب من فتاة شابة إلى امرأة مطلقة. ستجد كل الصعوبات في إيجاد زوج. هكذا تنفذ إرادة خالقنا. وضعنا على هذه الأرض لنعاني و نمجد.
تنهد الجميع من جديد و تابعت سلامة:
- بدأ كل شيء في اليوم الذي كلفتني فيه كبيرة، ابنة معلمي المحترم مولاي عبد السلام ، بشراء الحناء لها. كنت قد وصلت إلى **سوق** التوابل لتوي عندما لمس أحدهم كتفي خلسة. التفت، كان مولاي العربي واقفا أمامي، مبتسما و لطيفا مثل العادة. تبادلنا التحايا المعتادة. تكلمنا مطولا عن الجو السيئ الذي كان قد عاث فسادا، إن كنتما تتذكران ذلك جيدا، كان ذلك منذ شهر. سألته عن أحوالك، يا لالة عيشة!
- قال لي: إنها بخير. أخفض عينيه بعد ذلك و اتخذ وضعية مستسلمة.
- ما بك، يا مولاي العربي؟ هل يمكن أنك تخفي عني شيئا خطيرا عن أهلك؟
- أجاب مولاي العربي: كلا، لا أخفي عنك شيئا، لكنك خمنت الأمر، هنالك ما يضايقني. إن أردت، يمكنك مساعدتي لأريح بالي.
كما تظنون، كانت حيرتي تزيد شيئا فشيئا. مر حمار محمل بأكياس السكر بيننا نحن الاثنين، فرقنا. التصقت بالجدار و أشرت لمولاي العربي باللحاق بي. تبادل بعض الشتائم مع مار كان قد دفعه و جاء في الأخير إلى جانبي ليخبرني عما كان يقلقه.

Scanned by CamScanner

- قال لي: أجل، تستطيعين مساعدتي. إن حالتي تزدهر من يوم إلى آخر. أربح أكثر بكثير مما يلزم لإعالة أسرة و عدة أسر حتى. أكبر ألم في حياتي هو أنه ليس لدي أطفال. بالطبع، أنا أقدر و أحترم لالة عيشة، زوجتي الحالية؛ أعتقد بأن هذا التقدير و الاحترام متبادلان، لكنني لا أستطيع أن أتخيل مستقبلي بسكينة ما دمت لا أملك وريثا.
قاطعته لأنصحه بأن يذهب و يستشير طبيبا.
- قال لي: لا تقاطعيني، سلامة، لا أؤمن لا بالأطباء و لا بالعلاجات. في حالتي، لا يوجد سوى حل واحد، و إن أردت، يمكنك أن تساعديني في الحصول عليه.
فتحت عيني جيدا و تظاهرت بأنني لم أفهم.
- تابع مولاي العربي: العلاج هو إيجاد زوجة ثانية لي.
- لا أستطيع فعل هذا، يا مولاي العربي، أنا أحب كثيرا لالة عيشة لكي أكون سببا في كآبتها.
- لن تعاني لالة عيشة، إنها تتمنى أن تراني أبا لطفل. و مع ذلك، سأطلب منك أن تكتمي سر حديثنا. لن يكون من اللائق إطلاعها على حدث يمكن لنتائجه أن تؤذي حبها الخاص.
قبل أن أتمكن من الإجابة على حجته، دس بين يدي قطعة نقدية جديدة. ذهب و هو يوصيني بالتفكير جيدا في هذا العرض و بأن أمر لزيارته في ورشته خلال الأسبوع. بعد عدة أيام، مررت قرب الورشة...
كانت قصة سلامة تستهويني، لكن حاجة ملحة أجبرتني على مقاطعتها لأسأل أمي إن كنت أستطيع النزول للطابق الأرضي لأقضي حاجتي.
تم استقبال مقاطعتي بغضب. صاحت بي أمي لتخبرني بالذهاب إلى حيث أشاء و ألا أعود لإزعاج الناس بكلمات غير لائقة. ذهبت على مضض. نزلت الدرج بسرعة. كان باب المرحاض يوجد في زاوية من الطابق الأرضي. كان مقفلا. انقضضت عليه لأقتحمه. سمع أحدهم في الداخل. كان يجب الانتظار. بدأت بالبكاء بصوت مرتفع. كنت أرقص بقدم على أخرى بينما أصيح بألمي. فتح الباب بشكل مفاجئ. لم آخذ وقتا لرؤية وجه الساكن و انزويت داخل المقصورة الصغيرة. لم أتأخر في الخروج منه، بوجه فرح، سعيدا بالذهاب للاستماع إلى تتمة قصة مولاي العربي المشوقة.

Scanned by CamScanner

كنت أضع قدمي على أول درجات السلالم عندما نادتني امرأة بصوت مليء بالغضب:

- أيها الطفل قليل التهذيب، ألا تستطيع أن تقفل باب المرحاض بعد استعماله؟ اذهب لإقفاله! أنت لست في بيتك هنا، أنت ضيف. يجب على الضيوف أن يكونوا مؤدبين و يتصرفوا بشكل لائق في منزل غريب.

أخفضت أنفي. ذهبت بمظهر متصنع لإقفال الباب. كان مظهرا متصنعا تماما مثل ذاك الذي سمحت لنفسي بإظهاره لأجيب هذه المرأة المشؤومة.

- هنا، أنا لست ضيفا، أنا ابن لالة زبيدة، صديقة لالة عيشة. لن تكون لالة عيشة سعيدة إن أخبرتها بأنك نعتني ب « الطفل قليل التهذيب ».

- أنت طفل قليل التهذيب، إذهب و أخبرها بذلك، أيها الولد الوقح! هزيل قذر! هل تظن بأن لالة عيشة خاصتك ستقطع رأسي؟ إن بقيت تنظر إلي بهذه الطريقة فسأتناول مقصي و أقطع أذنيك.

أطلقت صراخا.

- أمي! لالة عيشة! إن هذه المرأة تريد أن تقطع أذني! أوه! أذناي! أذناي!

كانت لالة عيشة قد أطلت من النافذة.

- ما الأمر؟ ما الأمر؟

حاولت امرأة الطابق الأرضي أن تشرح لها الموقف، لكنني كنت أصرخ عاليا لدرجة أن جملتها لم تكن تبلغ الطابق. كانت تقوم بإشارات بيدها لتدعوني للسكوت. بقيت أصيح، أتململ. ظهر رأس أمي إلى جانب الخاص بلالة عيشة. كانت كلاهما تطلبان تفسيرا. كانت بعض الجارات قد خرجن من غرفهن ليدعمن عدوتي.

هدأ صوت سلامة الجميع.

- قالت: إنه مجرد طفل، لا يمكن لأحد أن يضمر له ضغينة لنسيان أو حماقة. لن يكون من المعقول أن ينشب شجار بسبب شقاوة. سيدي محمد، توقف عن البكاء و اصعد بسرعة، لقد وجدت كعب غزال آخر في جيبي سيفرحك بالتأكيد.

مسحت وجهي بأسفل **جلبابي**. صعدت الدرج بفخر.

كانت النساء قد عادت إلى أشغالها. عاد للمنزل هدوءه. عند دخولي إلى غرفة لالة عيشة، لم تستطع أمي أن تتمالك نفسها عن أن تبدي لي نظرة

Scanned by CamScanner

كانت تقول الكثير. كنت أخشى هذه النظرة أكثر من أي شيء في العالم. كانت تصعقني، تحطمني.
أمنت سلامة حمايتي. مدت ذراعها نحوي، ابتسمت لي بجميع أسنانها. كان كعب الغزال ينتظرني على الصينية. أخذته، لكنني لم أستطع حمله إلى فمي.
كانت لالة عيشة تنشغل بتحضير الشاي من جديد. جالسا بين وسادتين، كنت أحاول الاختباء. كنت أخفض عيني. سمعت أمي تقول، مخاطبة سلامة:
- كيف كان ذلك اللحم؟ هل كان حقا قليل الدسم أو لم يكن جديدا؟
- حسب أقوال الحي كله، كان ذا جودة ممتازة. إلا أن ابنة سي عبد الرحمان كانت تبحث عن ذريعة. إن مولاي العربي في عمر أبيها. من جهة أخرى، لم تكن إمكانياته تسمح بإرضاء جميع نزواتها؛ ثم، كما قلت لكما، إن هذه الفتاة مجنونة. منذ متى كانت هناك ابنة حلاق تطلب من زوجها أن يشتري لها زوجا من الأساور الذهبية. تطلب المال نقدا لتشتري تفاهات؟ لتنظم حفلات شاي لصديقاتها المزعومات؟ لتعزف الصنج في كل وقت؟
طرحت لالة عيشة سؤالا.
- لكن، ألم تكن تعمل؟ ألم يسبق لها أن تعلمت مهنة ما؟
« - إنها تطرز أوجه الأحذية. كلفها مولاي العربي بعمل أو اثنين، لكن كان عملها يؤخر المهنة كثيرا، لم يكن منجزا بشكل جيد و كانت دائما تطلب ضعف الثمن العادي الذي تقبضه الطرازات الأخريات. توقف مولاي العربي عن توظيفها. لذلك اتهمته بأنه على علاقة غير شرعية مع نساء في أحياء نائية. بدون شك تحت ذريعة تكليفهن بتطريز أوجه الأحذية، كان يستغل ذلك ليتحدث معهن بطريقة لا تليق بمؤمن.
« نحن نعلم بأن مولاي العربي لن يقوم أبدا بأفعال مشابهة. إن هذه مجرد كلمات كاذبة لفتاة غبية و غيورة.
« لم يكن كل هذا ليخلف عواقبا لو لم تكن أمها تتدخل كل لحظة في شؤون الأسرة. إنها تأتي ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع لشم كل شيء، إعطاء نصائح، إبداء استيائها حول هذا أو ذاك، تحريض ابنتها على أن تكون متطلبة أكثر، تتملق كبرياءها و هي تردد لها بأنها جميلة جدا بالنسبة لمسن

Scanned by CamScanner

عجوز تفوح منه رائحة العرق و الجلد و الذي يظهر عاجزا عن تدليل زوجته الشابة كما تستحق.
« بطبيعة الحال، يتحمل مولاي العربي المسكين آثار هذه النصائح السيئة. آه! إنه يستحق الشفقة حقا، مولاي العربي! لم يجد في هذا الزواج سوى الحزن و الألم. نادرا ما يأتي ليراك، يا لالة عيشة، لأنه يعتقد بأنه ارتكب خطأ فادحا في حقك. لم ينسى ما فعلته من أجله. لم تكن لا أمه و لا أخته لتنقذه في الضيق كما فعلت بكرم. لكن الرجال كائنات ضعيفة!
« منذ أن تحسنت وضعيته، لم يعد لديه سوى حلم واحد، إيجاد زوجة شابة ليسلي حياة العمل و الكفاح خاصته. إن زمننا يصبح غريبا أكثر فأكثر. إن شابات اليوم لسن مثل شابات الأمس. ينقصهن الحياء، يجهلن الاحتشام، يحتقرن كرامتهن للحصول على رضى عابر. يفضلن الزواج بشباب أبله يتحكمن به على هواهن.
« إن مولاي العربي رجل، يلزمه إذن امرأة على مقاسه. إن هذه المرأة هي أنت يا لالة عيشة. كان خطؤه هو نسيانه لهذا مؤقتا. »
اتجهت كل الأنظار نحو الباب. كنا قد سمعنا صوت تنحنح خافت للتو.
- قالت لالة عيشة: من هناك؟
- قريب.
- أهذه أنت يا زهور؟ فلتدخلي!
أظهرت زهور وجهها الصغير الكثير التبرج.
- هل يمكنني الحصول على غصن نعناع؟
- هاهو النعناع، لكن خذي بعض الوقت لتشربي معنا رشفة شاي.
- شكرا، سأفعل، لن يتأخر زوجي في الوصول.
- لم يعد بعد، إذن إبقي معنا حتى عودته.
قررت زهور الدخول.
كانت تشع شبابا و نضارة. كانت ترتدي ملابس بألوان ملفتة للنظر. تقدمت بخطوات صغيرة، مدت يدها لأمي، حملت سبابتها إلى شفتيها، أعطت يدها لسلامة، أعادت نفس الحركة. كنت أرغب في أن تجلس بجانبي. تحققت أمنيتي. جلست بجانبي. لمست يدها الصغيرة خدي.
بعد الأسئلة و الأجوبة المعتادة و المرتبطة بصحة هذه أو تلك، دخلت زهور في صلب الموضوع. أرادت أن تعرف إن كان حكم طلاق مولاي

Scanned by CamScanner

العربي و ابنة الحلاق قد صدر. نظرا لأن جميع النساء كن يظهرن جهلهن بإيماءات متعددة، ابتسمت زهور بشكل عريض. فخورة لأنها أصبحت محط أنظار الجميع، بدأت مونولوجا لامعا.

- لا بد من أن أمي سلامة تعرف ما يحصل في هذه الأسرة، لكن الجميع يعرف كتمانها. و مع ذلك، كل سكان حي العدوة على علم بالصعوبات التي يواجهها يوميا مولاي العربي مع زوجته، على أية حال، إن هذه الفتاة مجنونة أو ممسوسة. تهدد محيطها بكسر كل شيء في المنزل لأتفه الأسباب، تصعد إلى السطح بنية القفز إلى الشارع من فوق الجدار. حصلت على معلوماتي من مصادر موثوقة.

وهكذا، في يوم الثلاثاء الماضي، طلبت من زوجها أن يشتري لها في نفس الليلة، منديلا مطرزا بأهداب طويلة. عاد مولاي العربي بعد ساعتين بمنديل كستنائي براق برسوم متعددة الألوان. بالكاد نظرت إليه ابنة الحلاق، أمسكته بين الإبهام و السبابة، رمته في ساحة البيت بتكشيرة اشمئزاز.

- قالت لزوجها: من تحسبني؟ فتاة من البادية؟ كيف تجرأت على أن تهديني منديلا بألوان سوقية كهذا؟ صحيح أنك لم تدفع ثمنا باهظا مقابلا له! إعلم أنه عندما يتخذ ملتح عجوز مثلك كزوجة له فتاة كان يمكن أن تكون ابنته، يجب أن ينفذ كل طلباتها و ألا يشتري لها إلا أغلى الأشياء. أنا أهبك شبابي و جمالي، في المقابل، تحضر لي منديلا بالكاد يبدو جميلا على رأس زنجية.

غضب مولاي العربي و بدأ بشتمها بعنف. تناولت ابنة الحلاق كأسا، كسرته على حافة النافذة و، بالقطعة الحادة التي كانت ما تزال في يدها، حاولت أن تقطع عنقها. أسرع مولاي العربي ليوقف حركتها. بدأت بالصراخ، بإشهاد الجيران، مدعية بأن زوجها كان يضربها، بأن وضعيتها لم تعد تحتمل، بأنها لم تكن تحصل أبدا على طعام كاف و بأنه كان عليها الاكتفاء بملابس مرقعة، لشدة بخل زوجها.

اعترفت سلامة بأنها لم تكن على علم بهذا الشجار.

- من حكى لك هذا، يا أختي الصغيرة؟

- ناس! في فاس، لا أحد يجهل شيئا عن الآخر. أعرف كذلك بأن ابنة الحلاق كسولة للغاية. لا تترك غطائها إلا بعد صلاة **الولي**. عندما ينام

Scanned by CamScanner

مولاي العربي إلى جانبها، في الصباح، يذهب من دون غداء، دون أن يشرب كأس شاي حتى. غالبا ما ينتظر اللحم و الخضر حتى المساء عندما **لالة، ابنة الحلاق** تقرر أن تطبخها. لن يتحمل مولاي العربي حياة كهذه مدة طويلة. لقد بدأ ينام في الورشة بدل الالتحاق بزوجته الشابة. إنه يستحيي كثيرا من أن يحكي كل هذا للالة عيشة التي تستقبله، كما ينبغي، بفتور شديد منذ زواجه.

انتشر همس بين المستمعات. حاولت أمي قول شيء لكنها غيرت رأيها، تنهدت، غرقت من جديد في صمتها. تنهد الجميع بقناعة.

لم يعد لدى زهور شيء لتقوله.

فجأة، بدأ الجميع بالكلام في الوقت نفسه. كن يتكلمن عن ابنة الحلاق، عن الحلاق نفسه، عن زوجته، عن أمه المتوفاة (التي ذهبت عظامها لتشعل نيران الجحيم). تذكرن عدة قصص حصلت في هذه العائلة، لم تكن تنتهي دائما في صالح أفرادها. من يسمعهن يصدق بأن الحلاق، أمه، زوجته و ابنته كانوا يمثلون حثالة المجتمع؛ عند موتهم، حتى الكلاب ما كانت لترغب في جيفهم. كانوا بالكاد كائنات بشرية و ليسوا مسلمين تقريبا.

على وجه الأرض كله، لم تكن هناك أمة أكثر كرما، أكثر صراحة أو أكثر عفة من أمة محمد (عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام). لم يكن لأشخاص مثلهم مكان بين طائفة نبيلة كهذه. من جهة أخرى، لم يكن لا النصارى و لا اليهود ليرغبوا فيهم.

كانت نبرة هذا النقد اللاذع عالية جدا. كان صوت سلامة يهزم مثل الرعد، كان صوت النساء الأخريات يقلد تارة صوت الشلال و تارة صوت تحريك أوراق الشجر الجافة بفعل ريح نهاية الخريف.

كان ما يقلنه ينزلق دون أن يترك أثرا في عقلي. لم أكن أفهم معنى جميع الكلمات. لم يكن يهمني أن أفهم. كنت منتبها فقط إلى موسيقى المقاطع اللفظية. كنت أنصت بإمعان شديد لدرجة أنني نسيت كأس الشاي الذي كنت أمسكه في يدي. ارتخت أصابعي. انسكب الشاي على ركبتي. انتهى السكر الشفوي بشكل مفاجئ. نظر الجميع إلي بصمت مرعب. كانت المفاجأة و الرعب تلمعان في كل العيون الموجهة نحوي. بحثت عن أي عذر في عقلي المرتبك لكن دون جدوى. لم يكن أي تفسير يستطيع إنقاذي.

Scanned by CamScanner

لم يكن البكاء ليجدي نفعا. نظرت إلى كل امرأة، رفعت عيني إلى السقف و أطلقت تنهدا عميقا.

Scanned by CamScanner

الفصل 12

في ذلك اليوم، منذ الصباح، كان هناك عنصر جديد يطفو في الجو و يحرك القلوب. حتى لالة كنزة، **الشوافة**، شخص صارم أكثر من الجميع، كانت تغني مقطعا موسيقيا رائجا. كنت أسمعها من نافذتنا. كان صوتها يتهدج قليلا لكن كانت الكلمات: قلب، عين الغزالة، شفتا الوردة تصل إلى مسامعي. كانت هذه الكلمات تذكرني بأشياء جديدة و قيمة كانت قد نامت طويلا تحت فراش من الغبار. كانت ترتفع، حرة، في سماء الصيف البيضاء، مرفرفة بسعادة بأجنحة كانت ما تزال تلتصق بها نسج عناكب صغيرة و ثابتة. كررت طويلا في ما يشبه لحظة فرحة عارمة: عين الغزالة، شفة الوردة! كانت هذه الكلمات التي، بالنسبة لي، لم يكن لها معنى جميلة جدا. لم أكن أعرف كيف كان شكل عين الغزالة و لا الغزالة بأكملها. كانت شفة الوردة توحي لي بصورة أكثر سهولة في التصور لخيالي.

على أية حال، تمكنت بسرعة من الاعتراف بأن الأغنية ليست بحاجة إلى أن يكون لها معنى. وعدت نفسي بأن أؤلف أغاني فيما بعد. لم يكن ذلك يبدو لي صعبا. كان المعجم معتادا بالنسبة لي مسبقا. سأتكلم عن الليل، عن جباه بلون القمر، عن أسنان تشبه لآلئ منظومة في خيط حريري، عن شفاه ورد أو مرجان. كان دائما الأمر يتعلق باسم امرأة. أي واحد كنت سأختار؟ بحثت طويلا. كان اسم عيشة دائما يتجسد في امرأة بدينة و ثرثارة: لالة عيشة صديقة أمي. كانت رحمة تسكن معنا؟ لم يكن اسمها يلهمني. زبيدة، إنها أمي. ربما لم يكن من اللائق كثيرا وضع اسم الأم الخاصة في أغنية، كانت زينب تسبب لي الكثير من المشاكل، فاطمة! كنت أراها من مكاني تعجن خبزها وسط غرفتها. لا أحد يستطيع أن يغني اسم امرأة كانت تجثو على الأرض و تعجن العجين في قصعة!

ربما كنت سأختار زهور أو خديجة. بالأحرى زهور.

ذكرى لطيفة!

وجه مخضب، فم مبتسم!

يشتعل خداي بذكرى لمسة يدك!

Scanned by CamScanner

زهور، التي كانت تعرف الكثير عن زواج ابنة الحلاق سي عبد الرحمان، كانت ما تزال تشغل بالي. كنت قد هيأت لها عشا ناعما في كياني.
بدأت رحمة بدورها أغنية شعبية. نادت بمظهر كئيب جميع الأولياء لنجدتها. كانت تشتكي من نحافتها و أرقها. لم تكن نحيفة إطلاقا، حسب قول ابنتها، كانت تشخر حتى تجعل زبديات الخزف الصيني ترتج فوق رفوفها.
لم أفهم بقية القصيدة التي تتحدث عن عيون شاب لا أعرفه، عيون تشبه النجوم تعلوها حواجب مثل السيوف المقوسة.
كانت كنزة، **الشوافة**، و رحمة زوجة صانع المحاريث قد أعطيتا المثال. ملأت أمي، بخجل، ثم بصوت أكثر حزما، البيت بشدوها. قررت الاشتراك بشكل متواضع في هذه الحفلة الموسيقية. للمشاركة، لم يكن من اللازم اتباع أية قاعدة، لم يكن من الواجب استوفاء أية شروط خاصة. كان كل واحد يستسلم لإلهامه.
كان فهرسي يتألف فقط من كلمتين:
يا ليل! يا قمر!
انطلقت:
يا ليل! يا قمر!
إذا كانت القصيدة تبدو فقيرة، أقسم بالله بأن التوزيعات الموسيقية التي ألهمتني إياها كانت تستحق البقاء منقوشة في الذاكرات. إلا أن العقل البشري كان سيجد صعوبة لا محدودة في تسجيل مجموع التغيرات، النزوات الجريئة، الإيقاعات الغير متوقعة، التي، في لحظة الحرية التامة هذه، ولدت هذياني الغنائي.
وسط هذا السكر، عصف مثل الرعد في شمس أبريل الجميلة، سمع صوت مقرعة الباب عند مدخل البيت. أظلم البيت بصمت مطبق. عند القرع الثاني، صاحت رحمة:
- من هناك؟
صاح صوت ضعيف لطفل بجملة مبهمة. امتقع وجهي. أطللت من النافذة. دعت خالتي كنزة الطفل للولوج إلى الفناء. بعد دقيقتين لا تحتملان من الانتظار، ظهر الخيال الممراض لولد صغير ذي عشر سنوات. عرفته. لقد كان علال اليعقوبي، تلميذ من كتابنا القرآني. أسرعت مذعورا خلف

Scanned by CamScanner

السرير لأختبئ. كانت أطرافي ترتجف، أسناني تصطك داخل فمي، يتسلل البرد إلى صدري، يستقر فيه إلى الأبد.
كانت أمي تتكلم. كانت تقول:
- لقد تحسنت حالته. أشكر **الفقيه** لأنه أرسلك لتطلع على أحواله، قل له بأنه لم يستعد كامل عافيته بعد للعودة إلى **المسيد**. إذهب، يا بني، فليفتح الله أبواب المعرفة في وجهك.
غرق البيت من جديد في صمت مدقع.
نادت أمي:
- سيدي محمد! يا، سيدي محمد! أين أنت؟
لم أجب.
اغتاظت.
- أين أنت، يا ابن الكلب؟ ألم تعد تستطيع الرد؟
عاجزا عن فتح فمي، واجهت هذه الشتائم بصمت مهين.
ناحت، أشهدت الله، البيت و الأمة الإسلامية على مصيبتها.
- يا ويلتاه! يا ويلتاه! إن ترك المرء من طرف زوجه و العيش مع طفل عنيد جدا لقدر تعيس لدرجة أنه لا يمكن تمنيه حتى للعدو، سواء كان يهوديا أو نصرانيا! يا رب! إسمع بكائي! حقق رجائي.
لابد من أن باب السماء كان مفتوحا على مصراعيه.
عادت زينب، التي كانت قد ذهبت للتسوق، و هي تلهث. سمعها الجميع و هي تصرخ من الزقاق.
- أمي زبيدة! أمي زبيدة! أحمل لك خبرا سارا، خبرا سارا!
خبرا سارا؟
توقفت أمي عن تأنيبي. وقفت زينب، التي كانت تختنق من الانفعال، وسط الفناء، حاولت أن تفسر الموضوع لكنها لم تتمكن من ذلك. لم يكن أحد يفهم سبب إثارتها. كانت النساء قد تركن أعمالهن. كن ينظرن، واحدة من كوة و أخرى من نافذة، إلى زينب و هي تلوح وسط البهو. خرجت من مخبئي. توقفت زينب عن الحركة منهكة. بدأت كل النساء بسؤالها. رفعت رأسها في اتجاه غرفتنا و تمكنت أخيرا من قول:
- لقد رأيت في الشارع... المعلم... عبد السلام!
استقبل صمت مشكك هذا الاعتراف.

Scanned by CamScanner

كسرته رحمة:

- ما الذي تتفوهين به أيتها الكاذبة الشقية؟

- لقد رأيت با عبد السلام على مقربة من بائع الدقيق، قرب مسجد النارنج. يحمل دجاجتين في يده. لقد تركته و هو يتحدث مع ريفي وجهه طويل مثل النعارة.

قالت كنزة من غرفتها:

- إذا كان ما تقوله زينب صحيحا، فنحن جميعنا سعيدات جدا لذلك و نتمنى للمعلم عبد السلام عودا حميدا.

لم تكن أمي تقول شيئا. التحقت بي في غرفتنا و بقيت في وسط الحجرة بذراعين متدليتين. كانت قد غادرت الأرض، كانت تسبح في الفرح لدرجة أنها لم تعد تعرف كيف تستخدم لسانها.

أسرعت إلى الدرج. لم أكن أعرف إلى أين كنت ذاهبا بالتحديد. كنت قد نزلت عشرة درجات عندما سمع صوت أبي في الطابق الأرضي.

- ألا يوجد أحد؟ هل أستطيع الدخول؟

لم يكن صوته قد تغير.

- أجابت كنزة العرافة: أدخل، أيها المعلم عبد السلام. إنه يوم مبارك. لقد أعادك الله إلى أهلك، الحمد له.

- قال أبي: فليغمرك الله ببركاته.

عدت أدراجي. كنت أود رؤيته يدخل إلى الغرفة. كان الدرج يبدو لي مكانا مظلما، لم يكن مناسبا إطلاقا للقاء أبي بعد سفر طويل كهذا. لم تكن أمي قد تحركت. بدت لي متوعكة قليلا. حتى أنا، لم أعد أحس بحال جيد. تغطى جبيني بقطيرات باردة و كانت يداي ترتجفان بشكل خفيف. كان وقع أقدام أبي الثقيل ما يزال يسمع في الدرج. أظلم ظل باب غرفتنا. دخل أبي.

- السلام عليكم.

- همست أمي: و عليكم السلام، هل كانت سفرتك مريحة؟

- الحمد لله، لم أواجه أية متاعب، لكنني متعب قليلا... سيدي محمد، تعال لأراك عن قرب.

اقتربت من أبي. تخلص من الدجاجتين. وضعهما على الأرض مباشرة. كانت قوائمها مربوطة بخوص نخل. بدأتا ترفرفان بأجنحتهما، تطلقان نقنقات رعب. كان أبي يخيفني. كان يبدو لي متغيرا. كان وجهه قد اكتسب

Scanned by CamScanner

لونا يشبه الفخار كان يربكني. كانت تفوح من **جلبابه** رائحة التراب، العرق و الروث. عندما مرر يده من تحت إبطي و رفعني إلى علو عمامته، استعدت ثقتي بأكملها و قهقهت. أفاقت أمي من خبوها. ضحكت مثل بنت صغيرة، أخذت الدجاجتين لتحملهما إلى المطبخ، عادت لتساعد أبي على إفراغ قلنسوته التي كانت تحتوي على بيض، أخرجت من كيس من **الدوم** أصيص زبدة، قنينة زيت، علبة زيتون، قطعة حلوى ريفية من السميد الخشن. مصابة بحمى النشاط، كانت ترتب ثرواتنا، تنفخ على النار، تذهب، تأتي بخطو مستعجل دون التوقف عن الكلام، عن طرح الأسئلة و عن توبيخي بلطف.

جالسا على ركبتي أبي، كنت أحكي له الأحداث التي شغلت حياتنا خلال غيابه. كنت أحكيها على طريقتي، بدون ترتيب، دون هذا الخضوع الأعمى للحقيقة المجردة للوقائع التي تجعل قصص الأشخاص البالغين خالية من المذاق و الإبداع. كنت أقفز من موقف إلى آخر، كنت أحرف التفاصيل، أخترعها عند الحاجة. في كل لحظة، كانت أمي تحاول أن تصحح ما كنت أؤكده؛ كان أبي يرجوها أن تدعنا بسلام.

كانت الجارات يتمنين بصوت مرتفع أن تكون سعادتنا دائمة و صحتنا ممتازة.

كانت زغاريد تطلق على السطح. كانت نساء قادمات من المنازل المجاورة تعبرن بصخب عن مشاركتهن لنا في فرحتنا. لم تتوقف أمي عن شكر البعض أو الأخريات.

عاد إدريس العاود من ورشته. أخبرته زوجته عن عودة أبي. نادى:

- يا معلم عبد السلام! نحن سعداء جدا بعودتك من جديد إلى أسرتك.

- إصعد للحظة، يا إدريس.

كان إدريس، صانع المحاريث، في مثل سن أبي. كان عمر كليهما يناهز الأربعين. كانا يعرفان بعضهما منذ أمد بعيد. صعد إدريس العاود إلى بيتنا.

تحدث الرجلان، بعد التحايا المألوفة، بشكل عفوي. تكلما عن جودة المحاصيل، أثمنة السلع و الأصدقاء المشتركين.

قال إدريس لأبي:

Scanned by CamScanner

- لقد وصلت للتو و ربما حتى أناس بيتك لا يعرفون بالأمر بعد. لقد صدر حكم طلاق مولاي العربي و ابنة الحلاق بالأمس أمام كاتب عدل.
- الحمد لله! سيستطيع مولاي العربي أخيرا أن ينعم براحة البال، سلام الرجال المباركين. كنت أعلم بأن جنون مولاي العربي سيكون عابرا. أليس من الجنون محاولة جر عدة أنشوطات في الوقت نفسه؟ إنه لمن الصعب مسبقا التفاهم مع امرأة واحدة، العيش في ونام مع أطفال من صلبك. لقد تذوق مولاي العربي الثمرة المرة للتجربة، ها هو من جديد بين الناس الطبيعيين، يجب أن يحمد الله.
نادتني أمي بصوت منخفض:
- سيدي محمد! تعال لأخذ الصينية.
ذهبت لإحضارها من المطبخ. كانت الصينية ثقيلة على ذراعي الطفل خاصتي. قمت بهذه المهمة بشيء من الفخر. صب أبي الشاي.
استأنف حديث الرجلين. تحول شينا فشينا إلى قرقرة. انتاب التعب أطرافي. أحسست بأنني حزين و وحيد. كلا! لم أكن أريد النوم، لم أكن أريد البكاء. أنا كذلك، كان لدي أصدقاء. كانوا سيعرفون كيف يشاركونني فرحي. سحبت علبة العجائب خاصتي من تحت السرير. فتحتها بتقوى. كانت كل وجوه أحلامي تنتظرني.

Scanned by CamScanner

نتمنى ان تنال اعجابكم

www.vuseen.com